رواية

النجع

خيري حداد

الناشر

المكتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب: النجع
اســم المؤلـف: خيري حداد
تصميم الغلاف: محمد خيري
رقم الإيداع: 2018/23606
الترقيم الدولي: 978-977 812-374-6

الناشر
المكتب العربي للمعارف

26 شارع حسين خضر من شارع عبدالعزيز فهمي
ميدان هليوبوليس - مصر الجديدة - القاهرة

02-264231100
01283322273
malghaly@yahoo.com
elmaktb.elarabe.llmaref
www.mam-books.com

الطبعة الأولى

2018

© حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر، ويحظر النقل أو الترجمة أو الاقتباس من هذا الكتاب في أي شكل كان بدون إذن خطي من الناشر، وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العربية. وقد اتخذت كافة إجراءات التسجيل والحماية في العالم العربي بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية والأدبية.

النسخة الجاهزة للطبع نهائيا

رواية/ النَّجع

الحاصلة على منحة التفرغ من الدولة لعام ٢٠١٥

"البيت القديم"

"كان أبي موظفًا متوسط الحال، لكنه كان حريصًا على تعليم أبنائه حتى ولو كلَّفه ذلك أن يأخذ من تموين البيت لتعليمهم، عمل نور بعد تخرجه من كلية الهندسة في أعمال كثيرة بعيدة عن مؤهله؛ في محل ملابس بالموسكي باع فساتين الزفاف والملابس الداخلية للرجال والنساء، وعمل في سوبر ماركت كمدير، بعدها انتقل ليعمل أمين مخازن في شركة بركنز، وكانت آخر أعماله في القاهرة فرد مبيعات في مخزن كبير لكاوتش السيارات بأول طريق مصر إسكندرية الصحراوي، وكان حريصًا كل أسبوع على قراءة جريدة الوسيط وإعلانات كافة الجرائد بحثًا عن وظيفته كمهندس ميكانيكي، إلى أن وجد إعلانًا لشركة في الإسكندرية، فهرع إليها وتقدَّم إليها بأوراقه في صباح أحد الأيام، ثم عاد إلى بيته في القاهرة الذي يقع في حي باب الشعرية ليواصل عمله في مبيعات شركة الكاوتش، ومرَّت أيام قليلة حتى استلم عمله في شركة الإسكندرية، وفي حَواري المنشية وجد غرفة مفروشة في بيت قديم مع سيدة أرملة تجاوزت الستين عامًا بقليل، وكان نور حريصًا على أن يبذل قصارى جهده في عمله بالشركة حتى يستطيع تحسين مرتبه بساعات إضافية ليكفي سداد التزاماته من إيجار للسيدة، وغسيل هدوم ووجبة غداء يوميًّا يتناولها حين يعود إلى بيتها من عمله كل يوم، وكان يمشي صباح كل يوم من بيته في المنشية حتى ترام الرمل ليصل إلى عمله في أبي قير، وكانت صاحبة السكن قد ترمَّلت منذ عامين وانشغلت برعاية ولدها كمال الذي يدرس في كلية الطب

وابنتها صفية الحاصلة على ليسانس الحقوق ومتزوجة منذ عدة سنوات من قريب لأبيها يعمل في البحر، وصفية تقيم في الطابق الثاني فوق شقة أمها، صفية جميلة الوجه، شعرها مثل فرع شجرة يخفي رأسها كالخيمة التي تظل من آوى إليها في نهار أو ليل، لها جسد فارع ممشوق، وأرداف مثل ربوة خصبة تكسوها الخضرة، وكان رب البيت يعمل موظفًا بسيطًا بجمرك الإسكندرية، واشترى بيته من خواجة يوناني باع كل أملاكه في المدينة وعاد نهائيًّا إلى بلاده، واستطاع عم بركات أن يشتري هذا البيت بأقل من قيمته الحقيقية عنه لو اشتراه من مالك سكندري، عم بركات من مواليد عام ١٩٣٠ وترك زوجته وولدين وابنته صفية التي وصَّى بها زوجته كل خير إلى أن وافته المنية في عام ٢٠٠١".

******

"ليلة فيها الرياح غاضبة"

"لمَّا دخلت أيام الشتاء كنت أشعر ببرودة شديدة في الليل، وكان اللحاف الذي وفرَّته لي السيدة أمينة صاحبة البيت رقيقًا مرقوعًا، ويبدو أنها لا تستطيع أن توفَّر أكثر منه، ولم أكن أقدر على طلب غيره وعليَّ أن أشترى غطاءً ثقيلًا، وكنت أعتبر أنني أسكن وأعيش عيشة مريحة في هذا البيت، خاصة أنني أدفع لها ألف جنيه كاملة الإعاشة من طعام وسكن مفروش وغسيل هدوم في بيت وافر الخدمات، وكان يكفيني عناية السيدة بي وبغرفتي ونظافتها حتى أنها تقوم بكي ملابسي، وكان طالب الطب يتناول طعامه وحده عندما يعود من كليته، وكانت السيدة صاحبة البيت تتناول الطعام معي أحيانًا، لكن غالبًا ما تنتظر ولدها لتأكل معه فأتناول الطعام وحدي في غرفتي فوق منضدة صغيرة، وكانت السيدة أمينة ودودة معي حتى أنهَّا كانت تفضي لي بكثير من أسرار

بيتها وحال أبنائها، وكنت أتناول غدائي بعد الخامسة من كل يوم، بعدها يؤذِّن المغرب فأهُم إلى الوضوء وأصلِّي.. وكنت أسمع الأم كثيرًا تدعو ربَّها بعد كل صلاة، ولمَّا تتأكد أنني خلوت بنفسي واضطجعت في فراشي تأتيني قائلةً:

- أعمل لك شاي يابني..
- يا ريت.. كتَّر خيرك..

ولمَّا تأتيني تحمل كوب الشاي في يدها تقول:

- عايز أي حاجة تانية..
- لأ ربَّنا يخلَّيكِ.. أقعدي معاية شوية..
- هاقعد يا نور إذا ماكنش يضايقك..
- أبدًا والله أنا عايز أتكلَّم مع أي حد..

وتجلس الأم فوق حافة فراشي ثم تتكلَّم من نفسها مسترسلة في حديث يكاد يكون مكررًا من يوم لآخر:

- من يوم ما مات جوزي بقيت غلبانة قوي.. محمود مع مراته في بيتهم وكل فين وفين لمَّا يسأل عنَّي وييجي هوَّ ومراته يباتو ليلة ويمشوا..
- معلش هَّي الدنيا كده.. أهو كل معاك على طول..
- الله يكون في عون كمال طول الليل والنهار مكبوب على دروسه أصل كلية الطب صعبة قوي..
- هيَّ البنت دايمًا حبيبة أمها.. صفية معاك على طول كويس، إنها معاك في البيت..
- لو ماكنتش بنتي معاية كنت هافُكْ نفسي مع مين؟! الحمد لله..

- هيَّ دايمًا البنت حبيبة أمها..
- بنتي مسكينة ولدت مرتين، مرَّة سِقطت والتانية الطفل بعد ما نزل مات..
- ربَّنا هايعَّوضها ماتزعليش..
- مسكينة بنتي.. وهزَّت رأسها وسكتت..
- قولي يا ستي.. سكتَّي ليه..
- أبدًا أصل جوزها بييجي كل فين وفين.. هاتحبل إزَّاي..
- بيشتغل في أيه؟
- في صيانة وتصليح البواخر بيسافر مع السفينة بلاد وبلاد..
- ما هو لازم الرَّاجل يتعب ويشقى علشان بيته..
- وبنتي تروح فين لا منها جابت عيَّل ولا منها عايشة مع راجل؟
- بكرة يجيلها العوض..
- يارب..

.. وتركتني السيدة وقفلت الباب خلفها وكانت الريح تعربد، فأحكمت قفل النافذة، وسحبتُ الغطاء فوقي لكن البرد ينفُذ من خروم مرقوعة، وقررت وأنا أكوَّر جسدي محاولًا القبض على بُلغة دفء أن أشتري غدًا بطانية من سوق المنشية..

*****

"صفية ترى نفسها في الشوارع"

من يوم لآخر تخرج من بيتها هائمةً تجوب أزقة وحارات وميادين الحي، ولمَّا لم تجد ما يشبع شيئًا في نفسها ترغب فيه تقصد وسط المدينة إلى المنشية وسعد زغلول ومحطة الرمل، كانت تشعر بأنها تجري وفي نهاية كل يوم أو ليلة حين تعود إلى شقتها في بيت

أمها تلوذ بفراشها وتبكي، ولم تكن المدينة تعني شيئًا في رأسها ما دامت المدينة تنام غير مبالية بأهلها الباحثين عن أي شيء يسعدهم، وكانت تعتقد أن بكاءها سيوقظ أهل المدينة، فتصرخ مناديةً: ناموا ما دمتم سعداء بحياتكم.. لكنهم ينامون أبدًا ويبدو أن يقظّهم عبث، كانت ترى كثيرًا من الأطفال يتسكعون في الشوارع وينامون فوق الأرصفة وتحت عربات النقل المجرَّشْة حول جوانب مظلمة من الحدائق المهجورة، وكانت تعتقد أن أهل هؤلاء البراعم المشردين قد انكسروا وهم يكافحون للعيش، ولمَّا صارت بيوتهم خربةً هرب أطفالهم وشبابهم من الخراب إلى الدنيا الواسعة القاسية الخالية من قلب عطوف يحنو على عيال ضائعة بلا أهل، وكان أغلبهم ينتمون إلى أهل فقراء غير قادرين على أدنى فتات يقدموه لبطونهم الجائعة.. وخرجت الجموع من بيوت مهجورة إلى شوارع أشدُّ خرابًا..

- كانت صفية ترى أنَّ الناس في النهار شيء وفي الليل شيءٌ آخر، وتجد الشيخ والقسيس يدعوان إلى الخير والعدل والمحبة، والناس في خضم الحياة غير ذلك بالمرَّة، لأنهم لا يتذكرون أي دعوة سمعوها، ولكنهم يجدون أمامهم صراعًا في الحياة، فينقسم الخير ويتجزأ العدل وتذهب المحبة، مثل أي كلمة تلوك بها ألسنة الناس كأن الحب والمحبة بصقة على قارعة طريق..
- تخرَّجت من كلية الحقوق وكانت تحفظ مواد القانون، ولمَّا تخرَّجت وجدت أن الحياة أوسع من أي قانون، وأنَّها لابد أن تهرب من القانون ومن كل الدنيا الكبيرة عليها وتدخل دائرة البيت حتى زوَّجها أبوها من قريب له، فلم تحب هذا الزوج ولم تنجب منه، وكان هذا البعل يعمل مهاجرًا ويتركني في فراشي وحدي، وبمرور الأيام أيقنت أن زوجي يبحث عن شيء واحد وهو كيف يحصل على

القرش في أي خطوة من حياته، يملأ حقيبته بملابس ومنتجات جلبها في رحلته ويذهب بها إلى الأسواق يبيعها، ليس في رأسه شيء عن المرأة أو عن زوجته، رجل بلا مشاعر وأحاسيس، وتم دفني في بيت الزوجية بلا زوج وأطفال، دون أي شيء يشعرني بأنني أنثى، وكان عليّ أيها السادة أن أبحث في الدنيا الواسعة عن ملتقى لمشاعري وحاجة جسدي العطشة إلى رجل، ولو كان التيه يوصَّلني إلى رشدي.. فأين هذا التيه؟ ولو كان هناك خلف الجبال والتلال والبحر ملاذي لذهبت إليه طالما أن المدينة فقيرة إلى هذا الحد.. وبعد كل هذا العناء في البحث ألوذ مسرعةً إلى بيتي وأظل أبكي في فراشي حتى أنام نومًا يضنيه القهر..

******

"ولماذا أذهب بعيدًا وفي بيتي رجل؟"

ولمَّا كانت الريح تهب من ليلة لأخرى تحمل في طيَّاتها برودة قاسية فيشعل بعض الناس مواقدهم الكهربية ويتلفحون بأغطية ثقيلة، ولم يكن في بيت أمي غطاءً ثقيلًا يدفئ الغريب، قمت إلى دولابي وسحبت منه بطانية سميكة وتدثَّرتُ بعباءة فوق جلبابي واحتضنت الغطاء فوق صدري ونزلت الدَّرج إلى شقة أمي وفتحت بابها دون جلبة حتى لا أوقظ أمي وأخي من نومهما..

.. كانت أمي تحكي.. عندما يشتد البرد في الليل وتزمجر الريح وتصفع أسطح البيوت وتقع أشياء من فوق إلى تحت.. كنت أخاف وأرتعد وكأن بيتنا سيسقط فألوذ بحضن أبيك وأدعوه يلقاني ولمَّا ننتهي أنام نومًا عميقًا هانئًا في أحضانه.. لكن ماذا أفعل بعد موت أبيك يا صفية؟ من ألوذ إليه ومن يلقاني؟..

.. كانت العاصفة شديدة في تلك الليلة فخافت أمي وظل جسدها يرتعش وكأن مسًّا أصابها كالسهم، واندفعت يجرُّها شيطان من أبناء العاصفة.. كان مثل رجل طيب يسحبها إلى غرفة نور، فتحت بابه فوجدته نائمًا يتكوَّع تحت غطائه الرقيق فدخلت معه واحتضنته فلمَّا شعر بها وهي تعتصره بقوة قال:

- إنت بردانة؟
- قوي قوي يانور..
- طيِّب دفيِّني..
- غصب عنِّي يابني أحضني حاسه إن الريح هاتوقَّع كل البيوت..
- ماليش غيرك يامَّه..
- ماتكسفتيش بقى.. ماتقولشي يامَّه تاني..
- أمَّال أقولك أيه؟
- قول ياحبيبتي.. ياروح قلبي..

من الثانية عشرة حتى الثانية لقاها، بعدها نامت معه في دفء لم تشعر به منذ موت زوجها..

ذُهلت وكانت صدمتي لا توصف فوقفت جامدة أكاد أقع وأرتعش جسدي وأمسكت بضلفة الباب ونزلت رأسي فوق صدري ووقعت البطانية من يدي فأغنتني عن السقوط، رُحُت أرجع بظهري للوراء حتى باب الشقة وأمسكتُ رأسي بيدي ثم سحبت الباب، وصعدت إلى شقتي بالدور الثاني وكأني أطلع جبلًا بجسد ثقيل خائف وصرخت.. يالهوي.. ياخرابي يامَّه.. وكانت الرياح فوق السطح تزمجر فازداد خوفي وداخلني إحساس بأن هذه العاصفة في أول الليل كانت تنذرني بما هو أشد، وأن

هناك عاصفة في بيتي هبَّت في داخلي تمزقني قبل فجر اليوم، كانت أمي في حضن نور الذي يصغُرها بثلاثين عامًا، وكم كان ذهولي يمزُق رأسي وأنا المجنونة تصوَّرت أن في نور رجلًا أبحث عنه، ولم أكن أعرف أنني في عالم مملوء بالوحوش وكان الوحش في داخل بيتي أعتى من كل حيوانات الغابة المفترسة.

.. دخلت في فراشي وكنت أتمنى دفن رأسي وجسدي تحت كيس المخدَّة فأصوات صمَّاء تدوي في أرجائي وتمزَّق نفسي، وكانت غرفتي تعبق بريح فيها رائحة تخنقني لولا عواء كلبنا فوق سطحنا، كان نباحه أقوى من صوت العاصفة، وتهيَّأ لي أن الريح قد هدأت وبدأت الكلاب فوق أسطح الجيران تشارك كلبنا نباحه، وكنت أسمع الكلاب تعوي كل ليلة في الهزيع الأخير من الليل، ولم أكن أعرف لماذا تنبح.. فهل كانت الكلاب ترى ما لا أراه؟ وهل كانت أمي تسمع الكلاب كل ليلة تذهب فيها إلى فراش نور؟

******

"سجنتُ نفسي في شقتي كي لا أرى أمي"

وهل تستطيع ابنة أن تقاطع أمها أبدًا حتى ولو كانت مثل أمي؟ وهل من الأخلاق أن أغفر لأمي أم أن الله وحده يغفر؟ دعوني أقول: إنني مثل كل البنات يعرفن عن أمهاتهن كل شيء حتى الخجل منها لكنهن يتودَّدن إلى أمهاتهن فالأم لا تقاطَع حتى تدعو لك، وهل يقبل الله دعاء الأمهات الزانيات؟ لا أعرف.. لا أعرف أي شيء ولن يدلني أحد على أدنى إجابة..

.. وكنت أريد أن أثق في أحد بعد هذا الذي حدث، ذهبت إلى شيخ يقولون عنه أنه يفتي الناس ويدلُّهم، ذهبت إليه في مكتبه الذي يقابل فيه كل سائل.. حكيتُ له مصيبتي.. وقال لي كثيرًا من الأمثلة فيها لم أصل إلى حل، وتابعني كثيرًا في الهاتف

وحاورته أكثر، وفي نهاية اتصالي به للوصول إلى حل نصحني بأنني في حاجة إلى علاج:

- علاج أيه يا شيخ عبد الصبور؟!!
- ربما يكون هناك مس..
- مس!! وهاتعالجني إزَّاي؟
- جلسات..
- فين؟
- في البيت..
- مراتك في البيت؟
- لأ..
- ممكن تحكيلي تفاصيل الجلسات..
- رقوة وبخور وقراءة وأدعية..
- بدون لمس؟
- لمس روحي..
- بإيدك على الهدوم؟
- على جسمك..
- يعني هاقلع؟
- أيوه علشان تخفِّي ببركة إيدي وببركه إيد اللي معايا..
- هوَّ فيه حد معاك؟
- مش هاتشوفي حد منهم..

- لابسين طاقية الإخفا؟
- دول مش ناس..
- شياطين؟
- جن صالح..
- كام جلسة؟
- لغاية ما تخفِّي..
- بكام؟
- لوجه الله..
- هوَّ وجه الله لعبة ياشيخ عبدالصبور؟!
- أقصد من غير فلوس..
- ربِّنا ياخدك.. دا إنت نصَّاب البعيد..
- استغفري الله.. عيب أحسن الجماعة يؤذوكِ..
- جماعة مين يا ابن الكلب لو كنت قدَّامي دلوقتي لضربتك بالشبشب..
- خلاص كفاية مش قلت لك استغفري..
- بكره ها أبلَّغ عنك الشرطة يا ابن الكلب..
- روحي الله يسامحك..

*****

.. لم أكن أستطيع أن أجرِّب شيئا مع شيخ، سمعت عنهم الكثير من الحكايات أثناء دراستي في الجامعة، وبعد حصولي على الليسانس قبل زواجي وبعده من صديقاتي وجيراني من البنات والنساء..

.. المدينة يتغلغل فيها كثير من التيه والطرقات فيها متنوعة ومختلفة فيها تروح النساء وتعود ولا تصل إلى شيء، وكنت أندهش عندما يأتيني زوجي كل ثلاثة شهور أرتدي له أجمل الثياب حتى يقترب منِّي ويشتهيني كما يفعل الرجال.. وعندما أجده لا يعيش معي ولا يهتم بي وإذا لقاني كأن قرويًّا ساذجًا يركب حمارة الرَّتش، كنت ألطم حظي وأضرب رأسي بكفي يدي وأحكي لأمي التي لا تفعل أي شيء سوى قولها استحملي.. معلهش يا بنتي.. وأكلِّم نفسي فتسمعني حيطان بيتي: هيَّ دي الحياة؟! هوَّ دا الجواز!! هيَّ الرجالة كلها كده ولاَّ أنا بس دون الستات؟!! هيَّ فين الرجالة التي بتحب الستات وتعشقها؟! هوَّ مافيش رجَّالة ولا أيه؟! نفسي ألاقي راجل بجد..

.. حكمتُ على نفسي بالسجن في بيتي أيامًا طويلة وحاولت بعدها أن أخرج فخرجت إلى الشيخ عبد الصبور ولمَّا قابلته مرتين في مكتبه لأعرض عليه مشكلتي داخلني إحساس في داخلي بأنه لن يوصلِّني إلى شيء، وأن الموضوع كله لف ودوران حول الستات، ودارت محادثات بيني وبينه في الموبايل كان نهايتها لو كان أمامي لبصقت في وجهه وضربته بالشبشب، بعدها عدتُ مرَّة ثانية لأسجن نفسي في بيتي إلى أن يحلِّها الحلاَّل..

******

"أمي تحكي الحكاية"

وكان يلوح لي أن كل شيء حولي عرف سر أمي، وأن نور الصغير كان نافذة فكرت فيها أن تكون طريقًا إلى حياة رجل أبحث عنه في مدينة عقمت بالرجال، كنت أولى به لكن سبقتني أمي وعشقته، أمي التي ولدت ابنًا يعمل مهندسًا في الحي وآخر يرتدي نظارة طبية لا يعرف في حياته غير استذكار دروسه وأعتقد أنه يشعر بعلاقة أمه مع نور، لكن أخي هذا متبلِّد الإحساس بأي شيء حوله وغير مبالي بأية أحداث مهما كان مبلغها، فهل من غيث ولو من خُرم إبرة يأتيني ليأخذني إلى بيت آخر، ومن أدارني أن في هذه البيوت حولنا ما هو أبشع مما حدث في بيت أمي، ولمَّا كانت هواجس كثيرة تقبض على رأسي، فلماذا لا أدع الأمر للأيام، وأن كل واحد في بيتنا حرٌّ فيما يذهب إليه.. وأن تلك الأمور وغيرها علينا أن ندعها تمر دون وجع أو ألم.. ولكن لماذا لا أفاتح أمي فيما رأيته؟

.. ومَّرت أيام وليالٍ أخرى لم أرَ فيها أمي، إنَّها تستحي كيف تقابلني بعد أن رأيتها في أحضان ساكن بيتها، والدليل أنَّها حملت بطانيتي إلى فراشه، ولم يكن لي من بديل أن أنزل إليها لأراها، أتفحَّص أمي بعد العشق وبعد موت أبي الذي نعيش جميعًا في بيته وتعيش هي من معاشه وما تركه لنا من خير، أليس من الأجدى لها أن تنشغل بأبنائها وحياتهم ومشاكلهم أم أنَّ أمومتها انقطعت عند هذا الحد وطاوعت شيطان جسدها..

.. تجلس أمام التسريحة تمشط شعرها المجعَّد بعد أن دهنته بزيت الشعر الذي اشترته من بوتيك خلف بيتنا، رأتني أدخل عليها فلم تنبس بكلمة ولكنها واصلت تسليك خصلاتها بأسنان المشط، فقلت وأنا أجلس بحافة سريرها:

- إزَّيك يامَّه..

- إزيَّك يا بنتي.. فين كل ده مابتنزليش لأمك ليه؟
- إنت إحلوِّيتي يامَّه..
- صحيح؟
- جبت لك بطانية..
- إديتها لنور..
- مش كده برضه واجب..
- واجب يابنتي..
- ليلتها مالقتكيش في قوضتك..
- المسكين كان ضهره بيوجعه اضطريت يابنتي أحُط له كريم موف..
- وبعدين نمت جنبُه..
- النوم أخذني ونمت معاه غصب عنِّي.. زي ابني يابنتي..
- بس إنت كنت نايمة على صدره..
- هوَّ أنا دريت بحاجة بعد تعب طول النهار في البيت..
- ولسَّه بتدَّعكي ضهره؟
- لأ خلاص..
- خف..
- خلاص بقى هيَّ مرَّه أخذت الثواب وخلاص..
- بعد كده تبقي خلّي أخويًا يعملُّه ضهره أهو راجل زيُّه..
- قلت له مارضيش وقال لي إعملي إنت يامَّه ينوبك ثواب..
- ماعندوش دم..

- هوَّ مين عنده دم؟! أخوك الكبير خدته مراته وبنشوفه كل فين وفين ولا يعرف عننا حاجة، وأخوك كمال لو الدنيا اتهدت مالوش دعوه بحد..
- وانت في بيتك مشغولة بحالك..
- هوَّ فين حالي يامَّه.. جوِّزتوني لواحد مش موجود ولما بييجي أجازة طول النهار بَّره بيسرح بالبضاعة.. لا عشرة ولا حب ولا ولاد..
- إلبسي واتزوَّقي شدِّيه..
- عملت كل البدع.. واحد ماعندوش أي رجولة.. وصلَّني كأنِّي حمارة وهوَّ أصلًا البعيد حمار في الزريبة..
- والحل يابنتي؟
- حياتي كلها صفر من كل حاجة..
- أيه اللي بإيدي أعمله؟
- أنا عارفة مش هاتقدري تعملي حاجة..
- شوف حالك بنفسك..
- هوَّ كده؟ يعني أشوف حالي؟!
- أيوه.. اشتغلي إطلعي فسَّحي نفسك.. روحي السوق..
- إشتغل أيه يامَّه بقى لي عشر سنين اللي زيِّي دلوقتي بقت محامية، بعد ما شاب ودُّوه الكُتَّاب!!
- بلاش محامية السوق مليان شُغل تاني..
- يامَّه أنا عايزة حب، عايزة أتحب.. عايزة أعيش.. عايزة راجل..
- إذا كان الضغط عندك عالي شوفي واحد حبِّيه..

- أجيبه منين.. أمشي في الشوارع وأدوَّر عليه..
- يابنتي إتعلمِّي حاجة.. مش إنت مظلومة وجعانة حب وجوزك زي عدمه، خلاص شوفي حالك زي ستات كتير.. روحي النوادي والبارات ومن غير كده الشوارع مليانة رجَّالة بتدوَّر على ستات..
- كده يامَّه.. هي دي الحكاية..

******

"لماذا لا أتخذ من نور رجلًا لي؟"

.. طلعت إلى بيتها مترنحة وكادت تسقط فوق الدرج، أغلقت باب غرفة نومها وخلعت جلبابها وارتدت قميصًا عاريًا كأنها تلتقي برجل، توسَّدت الفراش وراحت في أفكار بثتَّها لها أمها، وقد أحزنها اعترافها ضمنًا بعلاقتها بساكنها نور، ولابد لها من تدبير أفكارها وترتيبها.. فمن أين تبدأ؟ وبدأ ضميرها ينزاح من نفسها وكأنها تشهق زفيرًا ينفذ بصعوبة من صدرها المكنوز الذي مازال يحتفظ بعذريته..

.. حتى تنطلق إلى رحب الحياة في مدينة لا يعرف أحد فيها أسرار الآخر، فلابد لي أن أنسى أمي.. وأن أمي امرأة بلغت الستين عامًا وبدأت ربيع عمر تبدأه النساء في صغرها وتعشق شابًا لم يبلغ الثلاثين عامًا بعد.. وجدت غيِّها في بيتها ولم تبحث عنه في الشوارع والبارات والنوادي، يابختها الدور والباق عليَّ.. لم أجد سبيلي حتى أشبع نفسي وروحي وجسدي، لماذا لا أحرمها من هذا الساكن؟ لماذا لا ينقلب الأمر في أعلى ويهجر بيت أبي الذي تتحكَّم فيه أمي من بعده ويأتيني أنا؟ لماذا لا أواجه نور بحقيقة علاقته مع أمي؟ ولماذا يرضخ لامرأة عجوز ويترك شابة مثلي لا يعرف أنها مازالت مثل فتاة عذراء؟..

.. أنا امرأة لكن بدون مخالب، وامرأة فقدت الأنثى وضاعت رائحتها، أنا لست امرأة.. هكذا قررت حتى هذه الليلة.. لن أتعثَّر من الغد، تعبتُ مما ألمَّ بي وأثقلتُ على نفسي من همومي ورحت في نوم رحمني من هواجسي..

.. ما أجهلني حين كنت أتوهَّم وأنا صغيرة أن ما بين أبي وأمي من وئام لا ينتهي، ولا يعرف الناس أنهَّ بعد الموت تتغيَّر النساء وترتدي امرأة مثل أمي رداءً آخر ويهون عليها عشرة أبي وتسقط كأم في داخل نفسي ولو عرف أخي الأكبر سر أمي ماذا يفعل؟ وأخي هذا العبيط الذي لا يريد أن يفهم من الحياة إلاَّ علوم الطب لا يهمه ماذا تفعل أمُّه مع ساكنها، إن لم يراهما فهو يسمعهما، وأمه لا تبالي به لأنه قد بلغ قمة السلبية من صغره حتى كبُر من خلال أحداث كثيرة تعرَّض لها ورأيناه فيها لا يبالي ويدع الأشياء تمر، نشأ كمال من طفولته ولم تنمُ في داخله مشاعر النخوة والغيرة، ولن أنسى في يوم قلت له:

- يا كمال إن رجلًا لاحقني اليوم بسيارته وأنا أعود من الكلية فقال لي:
- عايزاني أعملّك أيه؟
- يعني لو شفته مش توقَّفه وتوّبخه..
- أنا.. ليه هوَّ أنا أتدخل في حياتك إزَّاي؟!
- أقصد تدافع عن أختك..
- لأ الحاجات الخايبة دي مش عندي..
- أُمَّال عندك أيه؟ طيِّب قولِّي كنت أعمل أيه؟
- إذا كان عاجبك اركبي معاه..
- كده في منتهى البساطة؟!!

- أيوه.. ماعنديش عُقد يا صفية.. المفروض تبقى سعيدة لأن الرجَّالة عايزاكِ..
- أفهم إن ماعندكش مانع أمشي أجرَّب مع الرجَّالة؟!!
- وليه لأ.. إنت حرَّة في حياتك يا صفية..

.. من هذا اليوم عرفت أنني بدون إخوة أشداء ليس لهم نخوة، إخوة في شارعي كادوا يقتلون شابًا تعرَّض لأختهم وهي تعود إلى منزلهم، وفي صباح اليوم التالي حاولت أن أنسى ماضي حياتي الذي كان فيه أبي يحمي بيتنا، لكن لن أنسى كياني الذي من خلاله أشمئذ من حياة زوجي معي، ومن انحراف العاشقة أمي مع نور..

.. ارتديت أشيك الملابس في دولابي ونزعت طرحة حجابي فانطرح شعري منثورًا فوق كتفي، وحزَّمت وسطي بحزام يعلو بنطالي الجينز الذي يبرز معالم جسدي ويلف أردافي بحركة ترقص يمنةً ويسرةً وكأنني امرأة مثل راقصة تهتز أجزاء جسدها دون أن تتعرى، كل شيء في جسدي عندما أخذت طريقي في الشارع إلى محطة الرمل يهتز ويلتوي في روعة امرأة عذراء لم ينهز جسدها ويرتعش مع رجل كما تتمتع النساء مع رجال يعرفون كيف يسعدون امرأة، وكأنني أقول لمن يراني من الرجال: من هو جدير بي؟ من يقدر على هذا الجسد الذي بات سنين ساكنًا غافلًا عن كونه امرأة، ولم أبالِ بنداءات الشباب والرجال حتى وصلت إلى ترام محطة الرمَّل، وكنت أنشد أنه على أقل تقدير سوف يتبعني رجل جدير بي حتى آخر رحلتي في ترام الرمل..

.. وعندما جلست في عربة امتلأت بالرجال والنساء جالسين فوق مقاعدهم وواقفين، أغمضت أجفاني وبان على شفتي القرمزيتين خيال رغبة جامحة، وكانت الدنيا في داخلي مبتهجة حتى أنني شعرت بثقة بأن في أعماق نفسي ما هو أعمق من باطن البحر من أسرار، وأن ما في من طموح أقوى من شيء قوى قد يأتيني في أي وقت مثل

الموت، وأن الزمن القاسي الذي طواني تحته لماذا لا أحسبه كأنه كابوس مضى إلى الأبد، وأن أمنية كانت في نفسي تدفعني إلى الحصول على عاشق أمي أصبح رغبة ضعيفة في داخلي، وأن حصولي على رجل يستحقني أقوى من ذلك بكثير لأنه في خارج بيتي مساحات لا حدود لها من الحياة التي تشتاقها نفسي..

*****

"ترام الرمل ورجل يأخذني"

كان يتبعني منذ ركبت الترام، رجلُ في الأربعين عامًا.. طويل أبيض وجهه مليح هزَّ رأسه في أدب عندما رنت عيناي إلى وجهه، خلا المقعد مقابلتي فجلس وهو يبتسم ونبست شفتاه هامسة:

- أهلًا بك يا سيدتي..

تنهدَّت في رضا وفرشت ابتسامة أخرى وجهي وهمست:

- إنت مين؟ تعرفني؟
- أنا غريب أسكن مدينة غريبة..
- ولماذا تغترب؟
- أعمل هنا منذ عشر سنين..
- وماذا تريد مِّنى؟
- التعرَّف عليك..
- أنا سيدة متزوجة..
- وأين تذهبين؟
- إلى أبي قير..

- هناك أحد ينتظرك..
- أبدًا لا أحد.. سوف أعود ثانية إلى محطة الرمل..
- اسمك أيه؟
- صفية..
- على فكرة أبي قير ننزل المحطة الجاية علشان نغيَّر..
- مرَّ الوقت بسرعة..
- لأنك معي..
- هل أنت سارق للوقت؟
- أنا سارق للجمال..
- وماذا تسرق مني؟
- كأن قمرًا طلع اليوم في ترام الرمل..
- ياه أد كده بتجاملني؟
- أبدًا.. كل اللي جوَّايا بيقول عايز أعرفك أكتر..
- امرأة تمتلئ حياتها بالشوك.. بلاش علشان ماتتعبش..
- أنا عايز أتعب معاك..
- طيب إنزل.. أنا هارجع تاني..
- ممكن تيجي نقعد شوية في أبي قير؟
- نقعد فين..
- الأماكن كتير..
- خلاص طالما إنت مُصر نروح أبي قير..

- إتفضلي..

.. ولمَّا وصلنا أبي قير سرنا قليلًا حتى خرجنا من مبنى المحطة، وأخذني إلى مقهى مقفل قرب شارع يؤدي إلى شاطئ البحر.. كانت دموعي في داخلي تفيض من قلب كان يبكي، وقلبي الآن يسكت عن بكائه عندما قال وكلانا ينعدل فوق مقعده:

- إسمك حلو.. وانت كلِّك حلوة على بعضك..
- إسمع هاقولَّك بلاش الكلام الحلو قوي.. أنا مش صغيَّرة هاتضحك عليَّ، خلّى كلامك على الأد.. ياريت تبقى معايا واحد زائد واحد.. اسمك أيه؟
- هشام..
- بتشتغل أيه؟
- في التجارة..
- مابحِّبش التجار والفلوس والشرا والبيع..
- اللي تحبيه هاعمله..
- مش المقصود كده.. أنا عايزة أعرف إنسان يحسِّسني ولو مَّرة واحدة إنِّى ست..
- ممكن تحكيلي حكايتك مع الدنيا؟
- حكايتي طويلة..
- هاسمعك للصبح..
- أخاف حد يسمعني.. الناس كترت حوالينا..
- ممكن تتفضلي في بيتي..
- كده مَّرة واحدة..
- ماتخافيش منِّى أنا راجل مش صغيَّر وإنتِ في عيني..

- يعني إنت راجل جنتل؟
- هاتشوفي..
- بيتك فين؟
- قرِّيب من هنا..
- خلاص.. كده أحسن.. أنا بخاف من الناس..
- خافي من الناس كلَّها.. لكن أنا لأ..
- هاشوف.. طيِّب نقوم علشان الوقت..

.. وفي البيت حكيت له عن حياتي وأنا صغيرة وفي الجامعة إلى أن تزوَّجت من عبد الشكور زوجي، ولمَّا تعبت من حكاياتي قرابة ساعتين قال لي:

- ممكن أنزل أجيب أكل؟
- إنزل بس ماتغيبش عليَّ..
- تاكلى سمك مشوي؟
- اللي تجيبه..
- ممكن بدون تكلفة تيجي معايا المطبخ تعملي السلطة والطحينة والخضرة؟ تعالى أورِّيكِ الحاجة..
- أيه ياهشام إنت خدت عليَّ قوي..
- معلهش سامحيني..
- لا ولا يهمَّك أنا بحب شغل المطبخ..
- ربِّنا يخلِّيك.. ممكن أجيب لك حاجة على أدِّك تلبسيها وتقلعي هدومك..
- هاقلع كمان.. وضحكت صفية ملء فيها..

- ماقصدش والله.. على العموم تعال شوف الدولاب والبسي أي حاجة على أدِّك علشان تبقى براحتك..
- طيب خلاص روح إنت وهاتصرَّف ماتخافشي عليَّ..

*****

"ثلاثة أيام وليال لم أذقها في حياتي"

مضى جانب كبير من النهار بعد تناول طعام الغداء، واستأذن هشام من صفية لينام كما تعوَّد كل يوم حتى بعد العصر، وترك الضيفة تمُّر بها خيالات وقد استراحت فوق متن كنبة مقابلته ثم راحت في نوم، واستغرقا في نعاسهما حتى صدح أذان العشاء فهبَّت من نومها تناديه:

- هشام معقولة أنا عايزة أروَّح..

وأفاق على صوتها وفتح عينيه فرآها ممتدة بجسدها الفارع تحتضن الغطاء فتثاءب قائلًا:

- وأيه يعني ماانت قاعدة لوحدك!
- ياه أد كده فاكرني صايعة؟
- لأ العفو.. تشربي شاي؟
- أشرب..
- تعال نقعد في الصالة..

.. ومرَّت ثلاث ساعات وهشام يلفُّ سجائر ويحشوها بالحشيش بعد فركه بأصابعه، ولم ترفض صفية مشاركته في تدخينها حتى ثقلت رأسها ونزلت من جواره واستلقت بالأرض وكانت ترفع عينيها إلى سقف البيت كمن تبحث عن شيء، وناولها مخدة صغيرة لتلقى

برأسها الثقيلة فوقها وغرست أصابعها في شعرها المنكوش حول عنقها، وترقرقت الدموع في عينيها وقالت:

- هات كمان..
- عجبك..
- قوي..
- كفاية كده تعال ندخل جُوَّه الدنيا بَّردت..
- أنا اتأخرت عايزة أمشي..
- تمشي إزَّاي دلوقتِ الترام خلاص..
- أركب تاكسي..

.. وقام إليها ومدَّ يديه فأمسكت بهما وقامت إليه فأخذها في حضنه وضمَّها في رفق وأخذ كف يدها وقبَّله فسكنت إليه ووضعت رأسها على صدره فحملها إلى فراشه ولم تتفوه بنبت شفه، وراح يقبِّل جبينها وحضن برأسه شعرها المنثور على وجهها وكتفيها، وشد الغطاء فوقهما وأخذها في حنان دفئ إلى جسده الملتهب.. واستسلمت صفية لجسده حتى طلع الصبح، وأعطته مالم تعطه لزوجها طيلة عشر سنين مضت على زواجها..

.. كنت أشمئز من الرجال ولكن عندما وجدت في هشام مالم أجده في حياتي من رجل، وكنت أكره عاطفتي لأن زوجي لا يمنحها شيئًا، وارتجفت طيلة أيام عمري الفائتة وخجلت من مشاعري وأحاسيسي، لكن لمَّا ارتوى جسدي واستمتع من مياه جرت في جوانبه الجائعة، عرفت أن للرجال معنى كبير، وأن الدنيا تمتلئ برجال أكفاء كما تمتلئ

بمثلهم أندال ومؤسفين، الحب يجري في عروقي والعشق يحضنني كأن شيئًا يدور حولي مثل الأرض في دورانها حول الشمس، وكما يلف القمر الأرض بنوره طول الليل.

.. ومكثت في بيته ثلاثة أيام بلياليها فيها تعوَّدت على تدخين السجائر بالحشيش، عشت في بيته كأنني زوجة تعوَّدت على بيت زوجها.. أطبخ له وأنظف بيته وأنظمُّه، وأتهيأ له كما تفعل أي امرأة تحب رجلًا، لم أكن أحبه مثل الفتيات الصغيرات وعشقته كما تفعل النساء الخبيرات في العشق..

******

"العاشقة أمينة تغنيه حتى ولو أصبح عاطلًا"

في وسط الغرفة منضدة قديمة فوقها زهرية ورد صناعي، جلست السيدة أمام نور وهي ترتدي جلبابًا رقيقًا ليظهر ساقيها الثائرين دائمًا وقالت له وهو ينظر إليها تائها:

- مالك النهارده مش مركِّز معايا؟
- أبدًا أنا زى مانا..
- آجى جنبك؟
- أنا تعبان النهارده شوية..
- قولِّى تعبان من أيه؟
- الشغل فيه شوية مشاكل..
- أي شغل فيه مشاكل..
- المشكلة تخصُّني..
- فسَّر.. مش فاهمة..
- فيه مهندس جديد بيقولوا إنه قريب مدير عام الشركة..

- وبعدين..
- بدأ يتدخل في شغلي وفيه إشاعة بين العاملين بيقولوا إنه جاي مكاني..
- ليه.. إنت قصَّرت في شغلك؟
- أبدا والله..
- أمَّال تاعب نفسك ليه..
- فرضًا إن دا هايحصل فين وفين على ما ألاقي شُغل تاني..
- مش فيه قانون عمل وتأمينات مشترك فيها ولك أوراق في الشركة؟
- على بال ما نروح للقانون تكون الدنيا وقعت..
- طيِّب طوِّل بالك ماتقدرشي البلاء قبل وقوعه..
- فرضًا إن دا حصل هابدأ من الصفر تاني وممكن أقعد سنة على ما ألاقي شغل..
- إنت مهندس أد الدنيا ميت شركة تعوزك..
- دا كلام نظري فيه آلاف من المهندسين زيِّى ومش لاقيين شُغل..
- طيِّب طوِّل بالك ماتشيلش هم..
- ماشيلش هم إزَّاي.. إذا كنت يدوبك عايش ومرتبي بيتصرف أول بأول.. هاجيب منين أعيش لو حصل..
- إسمع يانور.. إنت عارف غلاوتك عندي أد أيه..
- الغلاوة حاجة والموضوع دا حاجة..
- ياسيدي ولا يهمَّك.. إنت عايل هم أيه.. الألف جنيه إللى باخدها منك مش عايزاها لغاية ما ربِّنا يرزقك بشُغل تاني.. دا لو حصل..
- تفتكري ممكن أقبل على نفسي؟

- ماتخدشي الموضوع بحساسية.. إحنا بقينا واحد وانت عارف ماقدرشي استغنى عنك.. إنت بقيت كل حياتي.. إعتبر البيت بيتك وأنا حبيبتك وعندي معاشي ومش هاتتأثر حياتي بأي شيء لغاية ما ربِّنا يسهِّل لك.. برضه دا لو حصل..
- إنت عارفه.. كلامك ليه معاني كبيرة أنا سعيد إن فيه حد هايقف جنبي ومتمسك بَّي زيِّك.. بس..
- بس أيه.. هوَّ كده وخلاص..

.. وألقت بنفسها إلى جواره تقبِّله وتحتضنه حتى اندمج معها وخلع سرواله وانحنى فوقها فشدَّت الغطاء عليهما وقالت وهي ترتعش:

- إنت بردان ياحبيبي؟
- لأ دلوقت دفيت..
- إنسى أي حاجة تضايقك طول مانا موجودة على وش الدنيا..
- خلاص يا أمينة بلاش كلام دلوقت..
- قول لنفسك.. إنسى كل حاجة في الدنيا إلاَّ أنا..
- نسيت كل حاجة من يوم ما جيت بيتك..
- نسيت اسمك؟
- لأ..
- الليلة هانسِّيك إنت مين..

******

"وبدأت حكايات النساء تثور"

عُدت إلى بيتي في المنشية بعد أن وعدت هشام بالرجوع إلى بيته بعد يوم أو اثنين على الأكثر، واحتفظ كل منَّا بهاتف الآخر، ومكثت يومًا بليلة في شقتها ساكنة آمنة وهي لا تدري إن سألت أمها عنها فمن تسأل، وهل طرقت بابها، أم أن الأم كانت حريصة على أن تبعد عن ابنتها حتى تفصلها تمامًا عن خاصة حياتها مع نور، ولمَّا مَّر اليوم الثاني وجدت صفية أن لها أن تجرِّب طرق باب أمها لتسأل عنها في ظاهر الأمر وتتأكد من سؤال أمها عنها في الأيام الثلاثة التي هجرت فيها البيت، كانت تشعر أن كل شيء حولها هُسْ هُسْ، إلاَّ أنها فضَّلت أن تركن إلى سريرها وتستغرق في هواجسها وما حصل لها مع هشام، وأن عليها أن تتأهب لأيام أخرى معه كي تستمتع بالحياة التي غابت عنها طيلة عقود ثلاثة ويزيد، وقضت كثيرًا من الوقت تلتقط شعرة في ساقيها أو في بطنها أو في صدرها حتى عاد جسدها أملسًا ناعمًا، وأزالت كثيرًا منها في حاجبيها حتى عادا كخطي قلم، صبغت شعرها باللون الكستنائي ونثرته فوق ظهرها ووجهها، وطلت أظافر يدها وقدميها وبعد كل شوط من التزين تدخل الحمام وتستحم وترتدي طقمًا مختلفًا في لونه وموديله إلى أن كادت تنهبل على نفسها وهي تتأمل جسدها في المرأة، حتى أنها فُتنت بنفسها وكانت تهمس، أين الحب والعشق من هذا الجسد.. عايزة أحب على طول.. عايزة أعشقك يا هشام كل عمري، جيَّالك بكرة وجايبة كل اللبس ده علشان أجننك وتشوفني في كل طقم حلوة أد أيه.. رائعة إزَّاي..

"حتى ترام الرمل أحببته فيه أخذني هشام إلى بيته، حتى ونحن ننتقل من محطة ترام فيكتوريا إلى محطة قطار أبو قير كنت لا أريد أن أصدِّق أننا تركنا ترام الرمل الجميل لنركب قطار أبي قير الموحش.

" ولو كان الأمر بيدي لطرقت باب كل صديقة لي هجرها زوجها إلى البحر أو إلى بلاد الخليج، لأطلعتها كيف الوسيلة إلى عاشق يأخذها إلى بيته ليفتح لها باب العشق، وأن عليها أن تركب ترام الرمل وسوف تجد حظَّها فيه، وكان حول بيتنا في شوارع المنشية وقرب محطة الرمل ومن بحري عشرات كن صديقات وزميلات في كلية الحقوق، ولَّما قابلتهن فرادي وجماعات حكت كل واحدة منهن نفس حكايتي، هجرة الأزواج إلى كل أنحاء الدنيا لجلب لقمه العيش، وكأن ضيق الأرزاق في مدينتي سجنت النساء في بيوت خالية من الرجال خربة من ممارسة الحياة الطبيعية، وكأن رجال مدينتي عليهم أن يهاجروا من أجل العيش ويتركوا زوجاتهم، كل واحدة منهن تبحث عن الحياة والحب في رجل آخر غير زوجها، وعندما تنزل المرأة منهن إلى الشوارع والنوادي والحانات وأي مكان في مدينتي بحثًا عما تطمح إليه نفسها لا تجد ما تتمناه لقلة الرجال فيها، وكنت أعشق كلام وحكايات صديقاتي اللائي لهن مثل حالتي، ولَّما وجدت سبيلي إلى عاشق تمنيته عاشقًا لكل واحدة منهن، وزادت همومي أكثر بغيري من النساء عندما أخذت طريقي خارج بيتي، ولكن أين الوقت لكي أفعل ذلك، وتمنيت بيني وبين نفسي أن تصل كل واحدة منهن إلى مبغاها، وأقنعت نفسي بأن كل واحدة منهن سوف تجد حلًا لحياتها، ولسن في حاجة إلى توعيتهن وإرشادهن، والدليل الذي وجدته في أم عيني أن الشوارع والحانات والنوادي تمتلئ بالنساء والفتيات الباحثات عن الهوى مثلي قبل أن تذهب بهن الدنيا إلى الموت، وقالت واحدة منهن كانت تحكي لي حكايتها.. ليس من المعقول أن نموت ونحن نعيش وأنه في نهاية كل منا لابد أن نموت... فلماذا لا ننقذ حياتنا من موت تلك الحياة؟

"وكانت الأم قد أوصدت باب شقتها بترباس حتى لا تدخل عليها ابنتها وتراها في أحضان نور، وكانت في كل ليلة تشعل عود بخور قبل أن تذهب إلى غرفة نور حتى لا يدخل بينهما شيطان يعكرَّ صفوها، وبلغها إحساس بأن ابنتها تحسدها على علاقتها في هذه السن مع ساكنها، وقررَّت مع نفسها أن تقاطع ابنتها ولا تطلع إليها شقتها كي تفهم من قطيعتها هذه أنها مكسوفة منها أو غاضبة عليها لمكاشفتها لها بسَّرها وما كان ينبغي لها أن تتبجح معها في مواجهتها وأنها بأم عينها وجدتها في أحضانه".

"كان هشام حريصًا على مهاتفتي في كل يوم مَّرات وفي كل مرة يستعجلني في العودة، وكان ذلك يسعدني وشعرت بأنني بدون رجل وبدون أم وبدون إخوة، وأن كل واحد منا ينصرف إلى حاله، وأن عاشقي هذا هو الحل الوحيد في حياتي حتى يومي هذا، وكانت لي صديقة من رأس التين تدعى عبير عرفت سرها بعد أن أفضت لي به منذ أن كنا طلبة في كلية الحقوق، وكانت تدعوني دائمًا بأن أصحبها في ذهابها إلى شقق يدعوها أصحابها بأن تزورهم من وقت لآخر، وكانت عبير تعيش مع أبيها من صغرها بعد موت أمها".

"هاتفت عبير وأنا في شوق أن أراها وأحكي لها حكايتي كما حكت لي من قبل، وكانت زميلتي هذه تفضى لي بأحداثها يومًا بعد يوم، وكان المساء جميلًا وهادئًا فهبطت درج بيتي إلى شارعي الذي أراه ساكنًا على غير العادة إلا أنني عندما اقتربت من الميدان الصغير الذي يلف في محيطة عدة شوارع ويتجمع فيه باعة السوق الذين ينادون بصوت عالٍ معلنون عن بضاعتهم، وكانت روائح الخضار والفاكهة تختلط بروائح الأرانب والدجاج والأوز، إلا أن رائحة السمك الفائحة تغلب كل الروائح، ومنذ صغري تعودت أنا وأمي على شراء حاجياتنا من هذا السوق، وكنت أستمتع بالتسوق فيه ومقهى

عنبر التي تقع في منتصفه من أهم معالم الميدان، وفي كل ذهاب وعودة كانت عيون الرجال تلاحقني وكلمات تناديني "ياجميل" "ياجميل، ياوزة، يا بيضة، خرابي على دلعك... هكذا كنت أستمتع من سوق الحي ولما كنت أعود إلى البيت أحكي لأمي ونضحك معًا، غير أنها في يوم زعقت في قائلة: هاتوجعي دماغي يا صفية "مانا برضه بيزفوني في الرايحة والجاية"، هي دي حاجة كبيرة قوي، ما كل الستات بتتعاكس في الرايحة والجاية، رجالة فاضية وعيون فارغة، هو دا حال الأسواق والقهاوي في كل حته في مصر كلها، ومنذ تأنيب أمي لي لم أعد أحكي لها أي شيء يخصَّني خاصة معاكسات الرجال، عرفت أن أمي ست بتغير من الهوا الطاير، وأم مش صدر حنين لبنتها، انطويت على نفسي وفي السنة الثانية في كلية الحقوق أقتربت منِّي عبير.. بنت عميقة قوي حنينة ودودة، ويوم بعد يوم بقينا سر بعض وفي يوم قالت تعالي نروُّح سوا بيتنا، وفي بيت عبير أفضت لي بكل أسرارها:

- هي المشكلة بتيجي إزاي يا صفية؟
- قولي إنت.
- إن الواحدة مننا ما بتلاقيش اهتمام من أي حد حواليها.. شوفي لما أبوكِ مع حاله، وأمك شافت نفسها مع واحد، وإنت الدنيا خالية عليك من كل ناحية.. وسكتت..
- قولي كملي يا عبير سكتِّي لية؟
- رحت الدنيا الواسعة "في كل مكان أروح فيه لقيت الرجالة بتتمنى رضاي، كل واحد عايزني أصاحبه حتى الرجالة الكبيرة في السن "لقيت نفسي أقدر أبيع

واشتري فيهم" كوني إني بنت حلوة لقيت نفسي ممكن ألعب لعبة كبيرة قوي مع كل واحد عايزني..

- تقصدي حنيِّن وبيديك حب "عايزين يتجوزوكي يعني"؟
- للأسف الراجل في بلدنا قليل الحب والحنان، الراجل في بلدنا يلعب وبس، وبيفكر إن البنت لعبة".
- وبعدين؟
- كان لازم أنتقم وأثور على هذا المجتمع القاسي.
- يبقى الواحدة مننا تتجوز وتقصَّر السكة.
- هي البنت بكيفها تتجوز.. ياريت كان كل البنات اتجوزت.
- إحنا في مجتمع حتى الجواز البنت ما بتلاقيش.
- هي المشكلة إن الشباب ماعندهاش أي إمكانيات للجواز.
- وعلشان كدة بيهربوا.
- مش بيهربوا وبس.. دول بيصيعوا كل واحد حسب ظروفه.
- طيب الوضع بالشكل ده يخلي البنات تبور.
- هي لسه هاتبور.. البنات بارت من زمان.
- وليه الرجالة ما بتغيرش أحوال البلد؟
- الرجالة تايهة بتشوف الأول إزاي تاكل عيش.
- وبعدين؟
- لازم من ثورة.. والثورة في إيد الرجِّالة.. لكن الناس كلها خايفه..
- تقوم بيها الستات..

- الستات بتقوم بالثورة من زمان.
- إزاي؟
- البنات والستات لما تلاقي حال البلد مأسوف بهذا الشكل بتقوم بثورة داخلية، ثورة على قد كل ست.. بتثور على مجتمع قاسي وما بتلاقيش قدامها غير الراجل تطلع همها فيه وهو أغلب من الغلب.
- كلام كبير قوى يا عبير.. طيب إزاي؟
- أنا اختصرت طريقي.. مش هانتظر شاب ييجي يخطبني ويتجوزني لأن أصلًا مافيش شباب عنده إمكانيات، لما شفت الحال قدَّامي لقيت إني هاموت من المعاناة ومش هايجي حد يأخذني بشكل طبيعي وإذا جه حد هايجي بمشاكله ماعندوش إمكانيات، يعني يخطبني يومين يتسلى شوية ويمشي.. والناس كلها غصب عنها مافيش حد عنده حاجة علشان يقيم حياة بشكل طبيعي زي كل الدنيا ما بتعمل..
- كل كلامك ده يمكن أنا حاسة بيه، لكن أنا عايزة أفهم الثورة اللي تقوم بيها الستات إزاي.. وإنت اختصرت طريقك بأي شكل؟
- إنت غبية يا صفية لغاية دلوقت مافهمتيش؟
- فهِّميني يا عبير.

****

" كان ذلك المساء جميلًا في نفسي، وكان الطريق إلى عبير مثل نسيم لطيف ينعش قلبي، وكان مرمى بصري أمواج البحر اللامعة من ضوء مصابيح شارع الكورنيش، بيت عبير كما هو "البيت القديم العتيق هو نفس البيت الذي دخلته في أول زيارة لها منذ عام

١٩٩٨، كنا في الثالثة جامعة وحصلنا على الليسانس معًا في العام التالي، في هذه السنة خطبت إلى عبد الشكور وكنت سعيدة لأنني أتخذ الطريق الطبيعي لحياة أي بنت، في خمس سنين مضت معه حتى آخر عام ٢٠٠٤ واليوم الذي أذهب فيه إلى عبير أبدا في السنة السادسة لزواجي، وأظنكم عرفتم ما الذي حنينه في نصف عقد من الزمان خلا من كل شيء طيب تطمح إليه أي بنت وأي رجل، وهأنذا أذهب إلى عبير بعد سنين طويلة انقطعت كل منا عن الأخرى.

"كان لقاءًا حارًّا وممتعًا فيه حكيت لها حكايتي من بدايتها إلى نهايتها حتى التقيت بهشام في ترام الرمل، وحكاية أمي مع ساكنها، ولم تندهش لحكاياتي إلا أنها راحت تضحك وتقبِّلني قائلة:

- وأيه يعني حاجة جامدة قوي.. حكاية أمك هي حكاية ستات كتير بتسكِّن مفروش.
- بس مش عيب بعد موت أبويا وليها ثلاث أبناء وفي السن دي تعمل كده؟
- عيبك إنك بتقفشي وتيجي في العقدة وتتصدري.. يا بنتي سبيها تمشي زي ما تمشي.
- يانهار اسود بكل بساطة كده!! طيب وحكايتي.. مش عيب أعمل كده وأنا ست متجوزة؟
- ومش عيب عليه عبد الشكور ما عبَّركيش لا برة ولا جوة؟
- بس ده كانت طبيعة شُغله.
- برضه لما بييجي البيت هوَّ معاكِ صفر.
- يعني مش غلطانة؟

- لو دوَّرتِ على الغلط هاتلاقي كل الناس غلطانة في حق بعضها.
- مش فاهمة!
- غلط الناس شيء وغلط البلد شيء فظيع.
- البلد؟
- يعني لما خدوا من الناس حياتهم وبقت الشوارع والبيوت والقهاوي كلها عاطلين بلا عمل ناس في البحر زي جوزك أو في بلاد الخليج كلهم طالعين برَّه علشان يأكَّلوا أولادهم وبيوتهم، وسيبين نسوانهم تضرب تقلب في كل حتة..
- يعني بقت سداح مداح.
- سداح مداح؟
- يعني مافيش حد عارف حاجة وكل واحد مكتِّف حياته مع نفسه.
- مفيش مجتمع.. اللي ما سكين البلد بيلهفوا فيها بالشكل ده وخلُّوا الدنيا ماشية اللِّي بيطول حاجة يلهفها.
- واحنا بنلهف أيه؟
- أحنا بناخذ حقنا بطريقتنا.
- وإنت بتاخدي حقك يا عبير؟
- كل اللي باقدر أعمله أقلع هدومي للرجالة ولما آجي ألبسها آخذ فلوسي وأمشي..
- باعمل ده من إتناشر سنة ويدوبك عايشة، لو مرضت النهارده مش هقدر أقلع ولا ألبس.
- ولما تكبري محدِّش ها يعَّبرك.

- عارفه "وعلشان كده لازم ثورة.. ثورة للرجَّالة ونحن النساء نساعدهم نثور معاهم وكل واحدة تدخل مع الثوار دول في الليل والنهار حتى تنهز البلد ويتغير حالها لأن دي أوضاع مش ممكن تستمر، لازم كل واحد في البلد يكون له عمل شريف..
- أنا احترت يا عبير، أكمل مع هشام ولا أعمل أيه؟!!
- هو إنت لاقيه حاجة ثانية؟! ما هو عبد الشكور واحد من الرجالة اللِّي لازم الثورة تخلَّص عليهم.
- يعني أكمِّل؟
- كملي لغاية ما نشوف الدنيا ها توصلنا لأيه.. وعمر الوضع المؤسف ده ما يستمر.. لا يمكن يستمر..

****

"نور يُفصل من عمله وأمينة تحميه"

خرج نور من مصنعه الذي عين فيه منذ قرابة العام، غادر عمله وترك صوت المكن وزملاءه الذين عاشرهم بالحب والمزاج، وودعوه آسفين على ما يحدث من إدارة المصنع تجاه العاملين، جمع كل أوراقه في دوسيه ودخل بين المارة في الشوارع، وكانت عيناه لا ترى إلا ظلمة حالكة، ورأى الناس حوله وقد توسخوا بغبار أسود فوق رؤوسهم، ولم يكن يعرف إلى أين، وعاد إلى شارعه في المنشية، وطرق الباب على غير العادة في الثالثة عصرًا وعادةً يعود من عمله يوميًّا في السادسة قبل أذان العشاء، واضطربت أمينة وزعقت بالداخل:

- مين؟ مين؟

- نور.. افتحي يا ست أمينة.
- نور.. نور.
- أيوة يا حبيبي دقيقة.

وشدت الترباس ولفت بالمفتاح تكة واحدة وشرعت الباب:

- ياحبيبي خير؟! جيت بدري النهارده!
- مش قلت لك ها يحصل.
- يا نهار اسود عليهم عملوها؟!!
- ولسه ها نشوف كتير.

"دخل غرفته وهرولت إليه بعد أن أطفأت النار من تحت الحلة، ألقت بجسدها بجواره واحتضنته بذراعيها وراحت تقول وكأنها تهتف:

- ولا يهمك طظ فيهم كلُّهم.. طول مانا موجودة ما تشيلش هم..
- وأطلق زفيرًا عميقًا من صدره وقال مُبديًا دهشته:
- كنت أحسن مهندس في القسم بشهادة المهندس الكبير، طيب يا صاحب المصنع يا محترم عيِّن قريبك أو معرفتك وخلِّيني برضه.
- لأ مينفعش أنا عارفه الناس دي وياما سمعت قصص عن الفصل التعسفي".
- همَّ عايزين ياخدوا الرغيف كله مفيش حد يزاحمهم فيه؟!!
- هوَّ يعني لو فيه شويه عدل في البلد بكفاية قوي صاحب العمل يأخذ ربع الرغيف وياريت على كده بيدي حق البلد" دا متهرَّب من الضرائب بقاله عشر سنين..
- إذا كنت ماسك عليه حاجة بمستندات بلِّغ عنه مصلحة الضرائب.

- أبلغ أيه؟! لو كنت محاسب كان يبقى معايا مستندات وأعمل الكلام ده.
- ما تسيبش حقك يا نور.
- حسبي الله ونعم الوكيل، شوفي كل اللي أقدر عليه أروح اشتكيه في مكتب العمل.
- مش فاهمة!
- أعمل محضر في المكتب وأقدم المستندات اللي تثبت عملي في المصنع حتى فُصلت.
- ودا ياخد كتير؟
- ممكن ياخد سنه سنتين، أنا مش هستنا حكم المحكمة لكن خلِّي دا يمشي في طريقه وأنا أشوف نفسي.
- ياعين العقل يانور.
- على العموم خدي بقية حسابي.. ومد يده في حقيبته.
- أقسم بالله ما تجيب لي سيرة فلوس تاني، ومش هاخد منك مليم دلوقتي.. لما ربنا يكرمك آخد منك.
- والله يا ست أنا خدت كل مستحقاتي ومعايا فلوس كتير.
- أسكت يا نور فلوسك خليها معاك.
- وبعدين؟
- ولا قبلين.
- أنا دماغي ها تنفجر من اللي بيحصل.
- هو إنت بس.. دا البلد مليانة حالات زي دي ماليها أول من آخر.

- نقول يارب بقى.
- نقول يارب ونكافح ونسعى.
- آه.. يا ست أمينة.
- ما تقولش آة يا نور.. ما تقولش يا ست.. قول يا أمينة.
- حاضر.
- إنت مؤدب قوي يا نور.
- عايز أدخل استحمى يمكن أفوق شويه.
- يا حبيبي ممكن أدخل معاك أحميك بإيدي؟
- زي ما إنتِ عايزة.

****

"قسوة تخرج من الأرض والسماء ترى"

وتدور المقدَّرات التي يحكيها الناس وتساعدهم نفوسهم على ظلم الناس حتى تخرج شريحة بعد أخرى من الحياة.. ولمَّا غادرت صفية بيت عبير عادت إلى بيتها في المنشية وهي تفكَّر في حالها حتى أنها أدركت أن عبير تذهب إلى عدد من الرجال، يختلفون ويتغيَّرون من سنة إلى أخرى، يا إلهي اثني عشر عامًا وعبير يتبدَّلها الرجال الذين يشترون الهوى المباع في أحياء وجنبات مدينتي، عبير داعرة مومس، أما أنا.. زوجة منذ سنين ولم أصل إلى أن أكون أمًا ولا زوجة لرجل تحبُّه أو يحبها والبحر يمسك به يروح إلى أبعد مدى في بلاد كثيرة ولمَّا يعود فهو رجل تائه تاجر يدور بتجارته على أسواق البلدة، ولمَّا يعود إلى بيته فلا أجد فيه رجلًا يعتني بامرأة، ليس برجل ولا زوج ولا صديق ولا أي شيء، وهكذا أنا خطوت أولى خطواتي إلى الهوى، ولم

أكن أبغي الهوى المشاع، وكان في رأسي وأنا أركب ترام الرمل أن أصل إلى أي محطة فيها بعض من الهوى المباح.. رجل يحبُّني أو يعشقني، رجلُ لي وحدي، حتى كان هشام الذي علَّمني كيف أعطيه جسدي في شوق، ومن خلاله عرفت أن في مدينتي بعض الرجال تجدهم امرأة مثلي بالصدفة، آه يأيها الناس.. هل تعرفون ما الذي أعشقه الآن في مدينتي؟ إنني أعشق عجلات ترام الرمل التي تدخل بنا محطة بعد أخرى، ومن محطة فيكتوريا أخذني إلى قطار أبي قير الموحش حتى نصل إلى آخر الدنيا في غرب مدينتي، وأخذني والهوى إلى شقته، أنا أيها السادة عاشقة لكن بعد إن اقتربت من نهاية العقد الثالث من عمري، أنا امرأة بريئة من كل ما حدث، وفخورة بأنني أخذت طريقي بعد طول صبر مع عبد الشكور، وأنني إذا ما قورنت بصديقتي عبير فأنا مازلت في منتهى الشرف..

.. أنا في بلد فيها القرار السياسي يخرج كالعصا من يخوَّف الجميع وهو بعيِّد عن الناس ومصلحتهم، وإن أي قرار يؤخذ من أجل رفعة وعزة الحاكم هو قرار أجوف يجب محاكمة من اتخذه، إن في مدينتي تنتشر الفوضى الفقيرة لأنه لم يكن هناك في أي يوم مضى من تجرَّأ وقام يدعو إلى محاكمة الحاكم، تعلَّمنا منذ طفولتنا تقديس الملك وليس تقديس الوطن، وبعد تراكم الفقر أصبحنا في منتهى الضعف فمن يجرؤ على دعوة إقامة محكمة على ما اقترفه من ذنوب سياسية في حق شعبه، لقد مات الملك ولم يكن أحد يتجرأ على مجرد الكلام معه بصوت عالٍ، وكان الناس جميعًا يتكلمَّون خلف الجدران وفي الدكاكين المقفلة، مات الملك فتكلَّم الناس وما فائدة الكلام وما جدوى المحاكمة بعد موت الملك؟! وهل تقوم المحكمة بإعادته إلى الحياة ثم تميته مرَّة ثانية؟ نحن ناس تعوَّدنا على الخوف منذ آلاف السنين، وكل ما نستطيع عمله من ملك إلى ملك هو

الكلام والثرثرة، ولذلك تجد مجتمعًا يغوص من فقر إلى فقر، ولذلك تجدون فسادًا يستشرى بين راقات المجتمع في البيوت والشوارع والمكاتب فساد من نوع غريب هو فساد الفقر، فماذا تفعل لشعب بأكمله قد فسد وفساده لا يمكن محاربته لأنه فساد مد اليد لكي يأكل ويطعم أولاده، فكيف تمنع مجتمعًا يشحذ قوت يومه لكي يعيش، إنهم جميعًا يشحذون من الفقر والفقر لا يسد الرمق، ولذلك تجد أساليب الشحاتة ممتدة ليل نهار فكل يريد أن يعود إلى بيته وفي يده لقمة خبز لأولاده، وإنه من السفالة المدهشة أن هناك جموعًا من الناس ليست بالقليلة تهتف باسم الملك الذي مات وترك لهم الفقر، وقال كثير من مفكّري الغرب عند موته إننا نندهش من ملك مات وفي عين شعبه بطلًا وهو لم يفعل لشعبه شيئًا سوى أنه دمَّر اقتصاد بلده بالدخول في حرب بعد أخرى من أجل أن يكون زعيمًا وبطلًا، نعرة وزعيق وصوت عالٍ مثير أدخل شعبة في درب فقر طويل ومظلم، هو من أكبر فقر في عالم الكرة الأرضية كلُّها..

*****

إنَّ كثيرًا من الناس يندهشون أن حديثًا للنفس يسرى في داخلي من يوم إلى آخر ولا ينتهي، يقول الجهلاء والأغبياء في مدينتي وما شأن هذه المرأة الضعيفة بكل هذا، ومن هي حتى تضعنا في هذا البؤس الذي وصلت إليه، وأقول لهم جميعًا أنتم في غفلة، في مجتمع مدينتي كلهَّ لا يوجد رجل أو امرأة لا تكمن في داخله هذه المعاني والأحاسيس، لقد فاض الناس بهموم بالغة حتى أصبح الناس جميعًا يقولون وما الفائدة في أننا جميعًا قد وصلت إلينا الحقيقة ولا نجد مخرجًا..

.. منذ أربعة عقود اقتربت منها لا أجد شيئًا جديدًا يعُمر جدران بيوتنا، فمَّرة رأيت من يزرع أرضًا يمتلكها، واندفع النهاَّبون بالقانون وما أكثر السارقين الكبار في وطني! الذين

يسرقون ما لذَّ وطاب بالقانون ولا ينطبق عليهم أي قانون؛ لأن من سنَّ القانون سنَّه لكي يسرق هو وأولاده قبل أي شيء، أما الفقير الذي سرق رغيفًا لأنه جائع فهذا ابن كلب حرامي لابد من محاكمته، أسوأ شيء في وطني أن من يملكون الأرض يحصدونها لأنفسهم وما كانت الأرض إلاَّ ملكًا للجميع لأنها الوطن ولكن من يقول ومن يسمع، وكانت جموع الناس في دكاكين القرى وسواقيها وفي مقاهي مدينتي التي تزدحم بالفقراء العاطلين الجائعين، وامرأة مثلي ظلمها زوجها وعشق البحر، وعبير وآلاف مثلها تدَّعر مع من يسمُّون أنفسهم وجهاء المدينة، الرجال الأغنياء الذين يملكون ويحكمون هم أكثر زبائن عبير، إن كل أغنياء مدينتي كرماء وفي منتهى الفخفخة مع كل داعرة وراقصة وكل قرش يدفعه لمتعته هو من حق كل العمال في مصنعه الذين ظلمهم وأكل حقوقهم في كرشه، إنني أبحث عن المعادلة.. أي معادلة في مدينتي، فهل أصبح أنا الأخرى ظالمة وسارقة، لا.. معاذ الله، أنا شريفة مقبلة على بيع شيء لا أمتلك سواه.. من تبيع الشرف مثلي وهو كل ما تبقى من كياني ولم يحافظ عليه الملك الذي مات والملك الذي بعده انشغل بملكوت آخر، وهذا الملك الثالث الدُّغف الذي قفش ما لذَّ وطاب لكي يترك كل ما حوله ليقفشوا، وتركوا لغيري من النساء الشريفات نذهب إلى قفش بتاع الرجَّالة اللي قادرين يدفعوا بعد ما سرقوا ثروة البلد كلها من أرض وسما بالقانون، أين القانون الذي يحكم النساء العرايا الشرفاء؟! إن كل امرأة تتعرَّى من اليوم بعد أن غاب العدل هي أكبر شريفة في هذه البلد بعد أن مات الملك وترك كل الفقر يحكم الجميع.. وتقوللّي فساد.. وفَّر للناس العمل الشريف الأول علشان تقضي على الفساد لأن الفساد الموجود الآن ويسرى في عظم ودم المجتمع هو فساد الفقراء الذين يحتالون على اللقمة لإطعام بيوتهم..

تعالوا معي كي تروني وأنا عاشقة.. على فكرة أنا عاشقة جئت من جوع وفقر وأعرف أنني لن أذهب إلاَّ إلى الفقر ولكن ماذا أفعل؟.....

*****

"حوار لا ينتهي وأمي تبادر بأفكار أخرى"

.. كنت أريد أن أعود إلى هشام لأتمتَّع بلقائه الذي غيَّبني عن واقع لم أستمتع فيه طيلة حياتي بمثل ما متَّعني به هذا الرجل الذي لقيته في ترام الرَّمل، وفي كل مَّرة كان يأتيني زوجي أثناء وجوده معي يفشل في أول كل لقاء، وكنت أحكي لأمي فلا تبالي قائلة:

- يا بنتي استحملي دا قريبنا وأهو بيجري عليكِ.. هوَّ إنت ناقصك حاجة؟!
- ناقصني كل حاجة يامَّه بَلا فقر..
- احمدي ربَّنا يا صفية.. يعني لو قاعد في إسكندرية كان هايعَّيشك كده؟
- يلعن أبو دي عيشة يامَّه..
- إنت مفترية يابنتي..
- شوفي يامَّه يا ريت يبقى شاطر معايا زي ما هو شاطر في التجارة، يعني لا ولاد ولا حياة..
- يا صفية ثلاجتك مليانة وبيتك فيه كل حاجة وعندك هدوم مفيش واحدة في الحتة عندها اللي في دولابك..
- وهيَّ الدنيا خلصت على كده يامَّه؟.. ده كل شيء في حياة أي ست؟!
- هوَّ جوزك مابيخدش فياجرا؟
- بياخد بس ما بتعملش حاجة.. الأساس يامَّه إن الراجل يكون قوى لكن عبد الشكور.. آه أقول أيه يامَّه.. هوَّ ضعيف في الأصل..

- أبوه كان كده.. سمعت عليه من أمه..
- لمَّا إنت عارفة إنه من فرع تعبان ليه بتجوزوني عبد الشكور؟
- يابنتي ماحدَّش يعرف الغيب ومش لازم الابن يطلع زي أبوه..
- خِلْصت ودلوقتي أيه الحل ها تضيع حياتي هدر؟!
- يعني عايزة أيه؟ خلاص دُوري على حل شعرك يا صفية، أبوكِ كان مش قد كده وعشت واستحملت وجبتكوا تلاتة، مفيش حد ميَّه ميَّه يابنتي..
- بعد الراجل ما مات ها تتكلمي عليه يامَّه؟!
- أبدًا يا بنتي الله يرحمه.. أقصد عشت واستحملت وكوَّشت عليكم..
- بعد اللي حصل أعمل أيه دلوقتِ؟
- العمايل عمايل ربَّنا..
- ماتجيبيش سيرة ربَّنا في كلامنا..
- طيَّب يا صفية أيه اللي في إيدي أعمله؟
- ماتعمليش حاجة.. أنا هاتصَّرف..
- يعني أيه يا صفية؟ ها تطلعي الشارع تدوَّري على راجل؟!!
- هيَّ الست في البلد مكتوب عليها الهجر؟.. يعني الراجل لازم يسافر ويجيب رزق بيته من بَّره؟ وليه مفيش أرزاق في البلد؟
- هيَّ الدنيا خربت من شوية.. كتير بيوت ضاعت وعيال انحرفت من هجرة الرجَّالة..
- على فكرة ده منتهى الفقر.. الفقر إن الرجَّالة تطلع بَّره علشان تربَّي ولادها..
- الحال ده من زمان من أول الستينيات والدنيا ماشية على كده..

- دا موضوع كبير قوى مش بتاعنا.. خليَّنا في موضوعي يامَّه..

.. وكان هذا الحوار مكرَّر ومعاد، وفي آخر كل حديث مع أمي تقوم وتقبَّل رأسي وتربت على كتفي قائلة:

- معلهش يا بنتي استحملي وطوِّلي بالك شوية..

.. وأغادر بيت أمي إلى شقتي وأرتمي على فراشي وأبكي.. بعدها أنام نومًا ثقيلًا يطبق على رأسي كأن أحجارًا تقع فوق جسدي كلَّه.. وتتوالى الأيام والليالي وليس في وسعي عمل أي شيء حتى أن الدموع جَّفت في عيوني، ونشأت في نفسي قسوة أتقبلَّها غصبًا عني، وبدأت أشعر في أعماقي أن المشكلة تخصُّني وحدى وعليَّ أن أبدأ في عمل أي شيء يخرجني منها.. ومَّرت أيام طويلة فيها تغيَّر الحوار مع أمي لأنها راحت تشركني في أمور أخرى تخصُّها، وداخلني إحساس بأن أمي تبحث عن حلول تغيَّر فيها حياتها.. وأنها في النهاية تبحث عن رجل يسري عنها حياة الوحدة ولكن بشكل مستور.. وهكذا بدأت حكاية أمي في تسكين غرفة في بيتها وبدأت الحكاية..

****

ومرَّت أيام أخرى كان في وسعي تقرير شيء لتغيير حياتي لأنه لا أمي ولا إخوتي لن يقررَّوا شيئًا لي، ويبدو أننا في زمن كل واحد ينصرف مع نفسه ليجد سبيلًا لها.. لكنَّ أمي طلعت إليَّ في شقتي ولم تكن هذه عادتها.. ولمَّا دخلت آوت إلى غرفة نومي وراحت تحملق في كل شيء فيها وتركتها تفعل ولم أنبس بكلمة، ولمَّا انتهت من إمعان النظر في كل قطعة أثاث وأغراض ملقية في أركان الغرفة قلت لها:

- بتدوَّري على أيه يامَّه؟

- ماعرفشي.. حاجة وغوشتني عليك من ساعة كلامك معايا.

- ماتقومي تفتحي الدولاب أحسن يكون فيه راجل ولاَّ حاجة..
- تفيَّ من بقك يا صفية ماوصلتش لكده.. أنا بس خايفة عليك..
- لأ ماتخافيش على بنتك ناقص تمشي ورايا لمَّا أخرج يامَّه..
- شوف يابنتي أنا عايزة أكلمَّك في موضوع يخصُّني.... وسكتت..
- قولي يامَّه سامعاك..
- المعاش مش مقضَّى والدنيا غليت وأخوك كمال كل يوم يشتري كتاب وكتبه غالية قوى ومابقتش ملاحقة على المصاريف..
- وبعدين عايزة تعملي أيه.. معاشك ألفين جنيه ومفيش غيرك وأخويا، ولو عايزة فلوس خدي مني.. أهى فلوس عبد الشكور قريبكم..
- خلّي فلوسك معاك يلعن أبو دي قرابة اللـيَّ هاتذليني بيها في كل مرَّة أتكلمَّ معاكِ..
- خلاص مش هاجيب السيرة دي تاني..
- شوقي يا صفية أنا هأجَّر قوضة مفروش..
- يانهار اسود يامَّه هوَّ إنت محتاجة للدرجة دي..
- يابنتي البحر بيحب الزيادة ودا شيء عادي كل الستات اللـيَّ زيَّي مأجَّرة قوضة واتنين..
- بس دي مش عادتنا يامَّه إنت برضه من الريَّف مش سكندرية، دي حاجات بتعملها ستات من إسكندرية أصلًا.. وبعدين هاتحبسي نفسك ومش هاتبقي براحتك في بيتك، دخلك والحمد لله كويس..
- أنا ست كبيرة يا بنتي راحتي أيه وبتاع أيه هوَّ أنا لوحدي في البيت ومفيش غير الجلابية الحشمة في عز الصيف..
- وكمال موافق على حد يسكن معاكم؟

- قلت له قال إنت حرَّة يامَّه.. أنا ليَّ قوضتي وبس وقلت له كل ده ياحبيبي علشان تصرف براحتك..
- إنت صاحبة الشأن في حياتك وبيتك إنت حرَّة تعملي الليَّ يريحَّك..
- أنا كلمَّت السمسار يجيب لي حد..
- لمَّا خلَّصتِ كل حاجة بتشاوريني ليه؟!!
- برضه تبقى عارفه يا صفية..
- شوفي يامَّه هاقولكَّ حاجة بعد موت أبويا كل واحد في بيتنا راح لحاله..
- ودا حال الدنيا اللي مات مات الله يرحمه لكن الدنيا لازم تمشي..
- صح.. كلامك والله صحيح كل واحد يعمل اللي عايزة..
- وإنت يا صفية حرَّة في حياتك..
- خلاص يامَّه كل واحد حر إنت قلتيها بنفسك..

"أبحث عن طريق جديد يتناسب معي"

مكثتُ في بيتي أيامًا فيها استغرقت في ذكريات أيَّام حياتي الفائتة رغم أنني أشعر بشوق يجُّرني بقوة للذهاب إلى هشام عشيقي في ترام الرَّمل، صورته وجهه جسده دفئه، حفر في ذهني وفي جسدي أشياءً مثل التي تشعر بها كل أنثى تتمنَّى رجلًا يروى ظمأها، كانت جذوري تشُدني إلى جوانب لا يمكن أن أنساها في حياتي، تلك الجذور التي ترسَّبت في نفسي ولم أستطع حتى الآن انتزاعها من أعماقي حين انتقلت من بيت أبي إلى بيت عائلة عبد الشكور في إمبروزو، لم يتغيَّر حالي من بيت أبي إلى بيت عبد الشكور، لم أشعر أنني امرأة ولا أستطيع تفسير لماذا كانت أم زوجي تتنصَّت علينا أثناء نومنا في الغرفة، ولمَّا أردت التأكد من أن أحدًا يقف خلف باب غرفة نومنا، فلمَّا قمت وفتحت الباب لأرى من تحفُّ قدميه عند الباب فإذا بأم زوجي تتقلب داخل غرفتي لأنها كانت تسند برأسها وجسدها فوق الباب، ولمَّا وقعت في بحراية الغرفة لطمت وجهي بكفي يدي زاعقةً في وجهها:

- يالهوى إنتِ بتتصنتي علينا؟!!
- أبدًا يا بنتي كنت لسَّه هاخبَّط عليكم، كنت عايزة عبد الشكور أقوله حاجة..
- كل ليلة يا خالة باسمع رجلك ورا الباب.. طيَّب بالله عليك سمعت حاجة؟ مفيش غير شْخير ابنك من أول الليل لآخره.. تعرفي ياخالة تاخديه يبات في حضنك أنا مش عايزاه..
- يالهوي يا بنتي إنتِ بتقولي أيه!!
- بقولك اللي سمعتيه.. شوفتي بنفسك كل الزعيق ده وابنك رايح في سابع نومه.. صحَّيه يا خالة وخديه يمكن يفوق في حضنك..

- بكفاية يا بنتي شبعتيني تنغيص..
- ياحسرة عليَّ وعلى أمَّي وأبويا الليَّ رموني مع ابنك، تعرفي يا خالة لو اتجوزت حمار كان يمكن يحس بإن فيه واحدة معاه طول الليل.. ياريتني كنت حمارة..
- بكفاية يا بنتي إنتِ فهمتي غلط..
- يا ريتك تكوني سمعتِ حاجة، كنت أتمَّنى تقعي في بحراية القوضة بصحيح وتكوني سمعتِ راجل ومراته بحق في غرفة نومهم.. للأسف سمعتِ شخير ابنك وكنت بتفكري إنه شخيري.. يا لهوي ياحسرتي من دون عرايس إسكندرية.. خشيَّ نامي مع ابنك خديه اشبعي من حمارك خشيَّ..

.. بعدها هلعت خالتي إلى غرفتها صارخةً، ولمَّا رزعت بابها خلفها قعدتُ على حافة سريري ورحُت في نوبة نحيب لا تنتهي.. والفراش من تحت جسدي يرتعش، كل هذا والحمار عبد الشكور يشخرَّ، وكل ما فعله أنهَّ انقلب على جنبه وشدَّ الغطاء عليه حتى غطى جمجمته..

*****

ولمَّا انتقلنا إلى بيت أبي كانت أمي تطمئن منَّى على حالي، ولمَّا كنت أحكي لها تهزُّ رأسها قائلة:

- ياحسرتي يابنتي هاتحبلي منين؟!!
- شوفي يامَّه دوَّري على حد بيعمل أي عمل.. كتابة أو سحر يعدل حال الرجَّالة..
- ودا حال يا صفية يابختك.. إذا كانت الفياجرا مش نافعة!!
- دوَّرى على شيخ..
- سمعت حكايات عنهم كتير. كلهَّا نصب واحتيال وفيه اغتصاب..

- نجرَّب يامَّه..

.. ودخلت مع أمي في حارة الشيوخ، ولم تفيد بي أحجبة ولا كتابة ولا قراءة في ورق يكتبونه الشيوخ في كلمات ليس لها معنى، حتى وصفت لنا سيدة أن شيخًا يحبَّل النساء فذهبنا إليه:

.. وفي غرفة مظلمة دخلت أنا وأمي فقال زاعقًا وكأنَّ شيئًا ضغط على رأسه:

- خليَّك ياست ورا.. الست الكبيرة ورا.. ورا الستارة..

.. ورجعت أمي للخلف ولم تدخل معي نصف الظلام الداخلي الداكن في سواده وكأن ركنًا آخر من الجدران تلف مرتبة تغطيَّها ملاءة بيضاء.. وقال ثانية في صوت خفيض:

- نامي.. شايفة الملاية البيضة.. أرقدى فوقها..

رقدت وقال:

- هات دراعك.. عرَّيه.. حاسة بحاجة؟

- الملاية سخنة قوى.. حاسة إن ضهرى اتلهلب..

- معلهش استحملي..

وضغط على ذراعي فانزعجت عروق رسغي وكدتُ أصرخ لكنني كتمتها وقلت له:

- بالراحة شوية إنت بتعمل أيه؟!

- ماتسألنيش.. اسكتي خالص.. سامعة حاجة؟

- سامعة.. أيه ده زي ما يكون عيَّل صغير بيتكلم..

- بيقولكَّ أيه.. اسمعيه جاوبيه بس ماتكدبيش..

- اسأل..

- اسمه أيه؟

- مين؟ جوزي؟
- أيوه بسرعة..
- قولي أشكرك يا رب..
- أشكرك يا رب..
- طيب اسمعي الصوت الصغيَّر بس جاوبيه كأنك بتوشوشي حد..

.. وطفق الصغير كأن أرنبًا يسوسو..

- اسمك؟
- صفية..
- عرفت اسم جوزك..
- عجبك اسمه؟
- من أسماء الله.. قولي حي.. قولي بصوت عال تلات مرَّات..
- حي.. حي.. حي..
- خلاص أسكتي شوية.. إنتِ لابسة حاجة تحت الهدوم..
- أيوه..
- إقلعي ملط علشان العلاج..

وبعد ما قلعت بالجيبه على العري.. قال:

- خدى دي..

ومدَّ يده.. رأيتها يد صغيرة تمتد نحوي من خلف ساتر خشبي وهمس:

- خدي.. اشربي الميَّه دي..
- فيها أيه؟

- فيها عندليب بتاعي مش عندليب بتاعكو..
- مُرَّة..
- شوية.. أبلعيها مَّرة واحدة..

وتجرَّعت ما فيها من حساء ممزوجة بشيء مثل الدقيق.. مثل طعم الحلبة بالدقيق.. وفي آخر بلعة فيها شعرت بأن شيئًا كالعلقم بقي في حلقي فقلت بصوت خفيض:

- وحشه قوي.. مُرَّة زي ما يكون فيها لبان ضكر..
- أمضغي الليِّ في بقك..

ومضغته.. مضغت ما علق في بقي بعدها بقليل نبس الطفل أو همس الصوت الهامس:

- حاسة بأيه..
- حاسة.. ولم أكمل..

ورحت في غيبوبة طويلة فيها كنت أشعر بأن جسدًا ثقيلًا ينام فوق جسدي وأن شيئًا مثل فرع شجرة طري مرق في عين سُفليَ وراح يستمر في ولوجه داخلي حتى ارتميت برأسي فوق جسدي وذهبت في نوم عميق ولم أدرِ بنفسي إلاَّ وأمي توقظني وتناولني ملابسي لأرتديها قطعة بعد أخرى، وأكملت ارتداء ملابسي ولمّا أفقت قليلًا قلت لأمي:

- هوَّ أيه الليِّ حصل؟
- بتسأليني؟.. إنت الليِّ تقولي حصلَّك أيه..
- ولا دريت بحاجة.. شربت دوا بعدها رُحت في دنيا غير الدنيا.

- على فكرة أنا رحت في النوم ورا الستارة، واحد جاب لي كوباية وقال لي خدي شوية شاي ولمّا شربتها.. بعدها.. رحت في نوم ما بعده نوم.. وقمت على صوت الشيخ بيقول قومي خدي بنتك.. فقلت له:
- خلاص؟
- خلاص.. بس هات ألف جنيه زي ما اتفقنا في الأول.
- يعني خلاص بنتي هاتحبل؟
- الدوا اللي خدته هايخليِّها تلقط من جوزها من على بعد متر..
- يا نهار إسود صحيح؟!!
- قولي بركاتك يا شيخ.. وإن ما حصلش وحبلت بعد شهر تعالي تاني.. قولي بركاتك يا عبد المعبود..
- اسمك عبد المعبود؟
- دا إسم اللي طلع..
- يعني أيه؟.. مين اللي طلع وطلع مين..
- الطور.. الطور في بلدكم بيقولوا عليه أيه؟
- مش عارفة..
- بيقولوا عليه طلوقة..
- طلوقة.. يعني أيه؟
- اللي بيطلع القلعة.
- قلعة الكبش؟
- قلعة اللي عايزة تحبل..

****

"قسوة نزلت عليَّ فقسوت"

..عرفت بعد هذه الواقعة أنني وأمي من ضحايا النصب والسحر في مدينتي، ولمّا حكيت لصاحبة لي لها نفس ظروفي فأخبرتني أنها ذهبت لشيخ غيره يسكن في حي آخر وما حدث لي حصل معها بكل تفصيل ما جرى، وكأن شيوخًا قد انتشروا في كل مكان لتقديم خدماتهم لمن تريد أن تحبل، وأن هناك رجالًا يتمتعون بالفحولة يعملون كطلوقة عند هؤلاء الشيوخ، وقالت لي صاحبتي:

- هؤلاء يا صفية في كل مكان في الإسكندرية ولهم اجتماعات تتم بينهم للاتفاق والابتكار وحل أي مشاكل تعترض أعمالهم..
- وهل حملت؟
- حَملت وسقطت بعد ثلاث شهور..
- علشان زنا..
- ربِّنا ماردش لأنه يعرف قبلنا أننا حملنا من زنا..
- ويا ترى هاعمل أيه إذا حملت؟
- ماتسبقيش الأحداث..
- يا ريت أسقط زِّيك..
- وإذا كمل الحمل ونزل الطفل في ميعاده.. هاعمل أيه؟
- حاولي تنزِّليه قبل ثلاث شهور..
- لازم أعمل كده.. لا الدنيا ولا أنا ناقصين ولاد حرام..
- العيب على أمهاتنا اللي خدتنا لأوكار زي دي..

- لو كانوا يعرفوا المصايب دي أعتقد ماكنوش خدونا هناك..
- علـى فكـرة فيـه سـتات بيكمـل حملهـا وبتولـد والـدنيا بتمشـي معـاهم ورجـالّتهم بيلبسوها.
- هيَّ دي البلاوي..
- وعلى فكرة فيه ستات بتروح تاني وبتبقى زباين مستديمة وبتحلى لهم العملية من أولها لآخرها..

****

وكان خلف البيت جراج مثل الإصطبل تجرِّج فيه أنواع من الحيوانات أغلبها من الخيل التي تجر الحناطير، والبغال والحمير التي تعلَّق في عربات الكارو، وفي جوانب أخرى من الإصطبل معيز ونعاج وقليل من الإبل، منها من يخدم المدينة وأخرى تشحن آخر كل نهار لتباع في سوق للحيوانات صباح اليوم التالي، ولم يكن يزعجني أصوات ونعير ومأمأة ونهيق هذه المخلوقات لأنني تعوَّدت على دوشتها منذ صغري، بل كانت هذه الدوشة خلف جدران بيتنا تسلِّيني وفي أحيان أخرى تجعلني ألتهي مع أشياء أخرى تحيا معنا ربما تكون أفضل من فعل البني آدمين في بلدي.

.. ولا أخفي أنه في ليلة من الليالي ارتديت ملابس خليعة ونزلت من بيتي قاصدة شوارع المدينة في أحياء أخرى بعيدةً عن حي المنشية، وكنت في هذه الأيام أشعر بأن الأحياء المليئة بالسكان تخنقني والعادات التقاليد فيها ملأت رأسي بأشياء مثل عفن أصاب الجبن الأبيض، وكان يكفيني ما حدث لي أنا وأمي في مكتب الطلوقة، وكم كانت معاناتي وألمي لمّا أسقطت ما في بطني بعلم أمي عند طبيبة توليد، بعدها كنت أحقد على كل حُبلى من زوجها، لقد خصَّني القدر بزوج مهاجر فكيف تتم السيطرة على

نفسي وأنا امرأة جميلة، نشأت الدنيا والبيوت يحكمها رجال، فأين رجلي ليحكم بيتي كما تعوَّد مجتمعي منذ قرون، أنا من بيت بلا حاكم ولم أجد رجلًا يحكمني وخاصة أن أمي لم يعد يحكمها أبي فلمَّا مات إنحلت كثيرًا من الأمور وتفككت..

.. ركبتُ عربة أجرة وقصدت حيًّا هادئًا ساكنًا هو حي رشدي، نزلت في وسط شارع كورنيش الحي، ولمَّا مشيت كانت قوة سحرية تهزُ جسدي وكنت أتمايل يمنةً ويسرةً فتهتز أردافي وتصطك ساقي في بعضها، وهمت بوجهي في المدى البعيد فشعرت أن رصيف الكورنيش يأخذني إلى حي آخر بعد رشدي واندهشتُ لسكون موج البحر وأيقنت أن كل قطرة في البحر تسكن خشوعًا واحترامًا لقاطني الأحياء الراقية، ويبدو أن الأمواج تعصف عند شواطئ الأحياء الشعبية لأن أهلها مشاغبين وفيهم كل العبر من عنف وفوضى وجنوح وضعف من فقرهم، وأن البحر يهيج في شواطئ تلك الأحياء ليخيف أهلها فيخشعون في بيوتهم وحتى لا يقترفون مزيدًا من أعمالهم المسيئة، فالبحر يقسو على من يظلم وينصب وكأنه يحكم المدينة بميزان يملكه، وأدركت حقائق كثيرة كانت تموج بها أفكاري ولم أجد لها حلًا أو إجابة، ليتني أنسى وأهرب من كل حياتي الماضية، أغادر هذا البحر الهادئ إلى بيت تشمله السكينة، إن قسوة في نفسي مثل الحقد على كل امرأة حُبلى من زوجها. قسوة تعتريني على كل ما ذهب من عمري، فهل آخذ ما في داخلي من معان لأجد فيها نجاة لتلك النفس المعقدة، من يأخذني إلى أي بيت أم يجب أن أعود إلى بيتي إنقاذًا لما يعتريني من تيه.. زعقت عربة خلفي ثلاث مرَّات فالتفتُ خلفي منزعجة وأمسكتُ بحقيبتي على صدري فإذا بالسيارة تحف بعجلاتها الأرض فخفق قلبي والتقطت أنفاسي وكأنني ألهث من شيء نزل بي، تقف السيارة وينزل منها رجل في العقد الخامس من عمره ويقترب منِّي قائلًا في أدب:

- يا سيدتي تحت أمرك..

ولما تفحَّصت وجهه لحظة لم ألمح فيه شيء أخافني بل جذبتني ملامحه وفي لحظة ثانية قلت وجسدي يرتجف:

- عايز أيه؟
- يا سيدتي لست برجل عابث.
- كلَّمني بالبلدي..
- حاضر.. ممكن تركبي معايا شوية صغيرين علشان الدنيا برد.
- أركب معاك بتاع أيه؟!!
- يا ستي والله أنا قاصد خير..
- خير أيه إنت بتعترض طريقي!!
- طيِّب ريحه فين أوصَّلك؟
- ريحة بلاد غير البلد دي..
- مش بالسهولة تنتقلي من بلد لبلد وأنت ماشية في كورنيش رشدي.
- ياه.. إنتَ عايز تزهَّقني بقى.
- والله أبدًا هاتشوفي.. إتفضلي.. إتفضلَّي.. وأشار بيده إلى العربة..

.. وفتح باب السيارة وهو ينحني فابتسمت من بالغ أدبه، أهو زي أي راجل يبان في الأول مؤدب وبعدين الوساخة تطلع.. هكذا حدثت نفسي في اللحظة التي فيها جلست بجانبه، انطلق بالسيارة في شارع الكورنيش، وجلتُ بعيني إلى وجهه ثانية فلاحظت هدوءًا يكسو ملامحه فبادرني هامسًا:

- سعادتك رايحه فين؟

- قلت لك إلى بلاد الله..
- ياه قد كده زهقانة من البلد؟!
- والله ما كنت عارفه هاروح فين..
- طيِّب عايزة تروحي فين.. تحت أمرك؟
- رجَّعني بيتي.
- بيتك قدَّام ولاَّ ورا؟
- إرجع.. لف.. أروح المنشية.
- ممكن نقعد شوية في أي مكان..
- لأ أنا متجوزة.. حد يشوفني.
- على فكرة اسمي سمير.
- وأنا صفية.
- جوزك في البيت؟
- يا ريت ماكنتش شوفتني.
- أمَّال جوزك فين؟
- في البحر.. كل كام شهر ييجي ويرجع تاني للبحر..
- ياه.. أكل العيش مر.. وأنت أيه الليِّ مضايقك؟
- حياتي كلِّها.
- ممكن أقدر أساعدك.
- إنت بتشتغل أيه؟
- باشتغل مهندس بس مش هنا..

- فين؟
- في فينا.
- عايش هناك من تلاتين سنة.
- متجوِّز؟
- اتجوزت واحدة فينوية قعدت معاها عشر سنين.
- وبعدين.
- ما استمريناش مع بعض بس خلَّفت منها ولد عايش معاها.
- خدت الجنسية النمسوية؟
- لمّا اتجوزتها خدت الجنسية.
- هاتروح تاني فينا؟
- قاعد هنا شوية وهارجع تاني.. كل مصالحي هناك..
- ليك بيت في إسكندرية؟
- أيوه.. بيت بتاع أبويا.. شقة في الشاطبي..
- أبوك عايش؟
- أبويا مات وأمي ماتت.
- ليك إخوات؟
- ماليش حد دلوقت.. كان ليَّ أخت وماتت.
- يعني عايش لوحدك هنا وهناك..
- هنا لوحدي.. لكن هناك الواحد مابيحسش إنُّه لوحده..
- ياه.. واخدني ورايح على فين؟

- إنت مش دارية.. إحنا لفّينا وراجعين قرَّبنا من الشاطبي..
- ياه كإنها دقيقة..
- علشان إنت ست حلوة والكلام معاكِ أحلى..
- إنت غريب قوي.. ليه وقفت لي..
- دا شيء عادي في فينا لكن الأمور هنا بتاخد مسارات تانية، يعني هيَّ العلاقة بين الست والراجل.. معاكسة.. رزالة.. قلة أدب.. مافيش حُسن نية أبدًا فيه دايمًا سوء نية.. مافيش حاجة اسمها إنسانية؟!!
- بتقول كلام غريب.. إنت متحضِّر قوي..
- أبدًا باقول اللي شفته في الدنيا.. اتعلِّمت حاجات إنسانية حلوة ماكنتش أعرفها قبل كده.
- إنت هاتوصَّلني وترجع؟
- طبعًا زي ما انت عايزة..
- نقعد شوية نتكلم في العربية..
- وليه في العربية؟
- تعال معايا شوية وأنت تعرفيني أكتر..
- آجي فين؟
- البيت..
- مش كتير كده؟
- أبدًا هاتشوفي أنا جنتل قوي..

- يعني مش زي الرجَّالة هنا. لمّا الواحدة تروح مع راجل البيت تبقى عايزة حاجة واحدة.
- الراجل هنا غلبان عمره ما شاف راحة في حياته وعلشان كده عنيف مع المرأة وهيَّ المنفذ الوحيد ويحط فيها هَّمه، لكن في فينا مفيش النوع ده من السلوك وكل واحد وواحدة بيعمل أي شيء بالرضا..
- يعني هاشوف راجل من نوع جديد.
- هاتشوْف.. هاندخّل العربية الجراج ونطلع.
- خلاص يا سمير بيه..
- كفاية سمير.. بلاش بيه وباشا..

****

"تعلَّمت كل أنواع الرقص ومعان للحب لا تنتهي"

عشرون يوم وليلة أذهب إلى سمير في شقته بالشاطبي، في أيام أقضي معه اليوم من أوله إلى آخره، وفي أحيان أخرى أذهب إليه حين يظلم الليل، وأخرى أذهب إليه قبل منتصف الليل لمّا ينتهي من أشغاله ومصالحه، وتوصلت إلى أن الشاطئ الطويل الذي يلفُّه شارع الكورنيش في مدينتي يولد رجلًا من نوع آخر، وأن ترام الرمل يولد رجالًا مصريين خالصي الجنسية، أما شارع الكورنيش ولأنه يطل امتداده نحو بلاد أوربا فإنه يولد رجالًا مثل سمير، ولولا أن ثلاثين عامًا عاشها في فينا ما عرفت نوعًا آخر من الرجال يجيدون الرقص ويتمتعون بكثير من أساليب الرومانسية ولهم طرق كثيرة في الحب ودهاليز وعراقيب لا يعرفها الرجل السكندري الخالص في مضاجعة المرأة، فالرجال في مدينتي لهم عالم يخُّصهم أكثر ما فيه العنف والبوهيمية مع أي ست كأنت

زوجـة أو عاشـقة أو بنـت ليـل، وخلُصـتَ أن همـوم الرجـال فـي مـدينتي جعلهـم بهـذه الصـفات التـي لا تريح ولا تعجب أي امرأة، وأن انعدام الرومانسية وممارسة الحب في تسرُّع ولهبجة يسيء إلى نفسية المرأة، كنت وقت أن ذهبت إلى سمير أتجاوز الخامسة والثلاثين عامًا بقليل، ذُقت في ثلاثة أسابيع معه المعنى الجميل للقبلة وكيف تكون ومتى تأتي، وفيها علَّمني كيف يكون الجنس بين الرجل والمرأة، وكيف يأتي الرجل المرأة وهي مُهيأة وراضية بكل نفس، وأن النفس المطمئنة في هذه الدنيا أن تكون علاقة الرجل بالمرأة كما علَّمني سمير، ذلك الرجل الخليط بين الإسكندرية وفينا، وأنه لولا ذهابه إلى النمسا ما كان هذا الرجل، وأن اختلاطه بالمجتمع الفينوي بعد حياته الأولى في الإسكندرية جعل فيه كل الرجال، رجل يعطي المرأة الجذور والفروع، وبعد هذه الأيام والليالي التي قضيتها في بيته لم أعد أحقد على كل امرأة حُبْلى من زوجها، ونسيت فيها زوج يدعى عبد الشكور، وتمَّردت على هشام رجل ترام الرمل، شهران ولم أذهب إلى هشام.. أنستني أمي وحياتها الخاصة ذلك الرجل الذي معه تصورت أنه ليس هناك رجلًا فيه كل الرجولة مثله، وكان ذهابي إلى شاطئ رشدي في تلك الليلة ليأخذني سمير إلى بيته فكان عالمًا آخر من الرجال، أيها السادة صرت امرأة بعد الشيخ الطلوقة امرأة تتردَّى بين آمالها في الحمل ومع عراقيب مظلمة من السحر والنصب على المرأة مثلي، وتخلَّصت من هذه الدائرة التي تعيشها النساء في مدينتي إلى أن لقاني هشام، واعتبرت أن حياتي في بيت أبي وأمي إلى أن تزوجت بعبد الشكور أسود أيام في حياتي ولم أكن أعرف غيرها، خرجت من بيت أبي وأمي وبيت زوجي إلى شوارع المدينة الحرة حيث كان لقائي بهشام.. هشام الذي سقاني العشق السكندري الخالص والذي فيه تعلَّمت شُرْب الحشيش كما يفعل كل رجل في مدينتي حين يقيم علاقة مع امرأة غير زوجته، وكانت

ليلتي التي ذهبت فيها إلى شاطئ رشدي والذي أخذني فيها رجل عاش في كنف شواطئ أخرى في فينا رغم أن فينا ليس لها منفذ على البحر، إن مدنًا كثيرة في عالمي لها منافذ على البحر الأحمر والأبيض لكن رجالها لا يعرفون أساليب الحب التي يحترفها سمير رغم أنه يعيش في النمسا بلد ليس لها شاطئ على البحرين، هذه المدن التي ليس لها شواطئ على البحرين لهم شواطئ أخرى في الحب تتوق إليها كل امرأة تعيش في عالم فقير وجاهل لهذه الأساليب الضرورية والجميلة والممتعة ولازمة لأي امرأة تبحث عن الحب الحقيقي الذي يتمتع به قليل من الرجال في هذا العالم، وأنه يجب على كل رجل سكندري أن يذهب إلى بلاد أخرى ليس لها شواطئ على البحرين ليتعلم أشياءً ساحرة لعالم كله تفيض حياته بالحب الحقيقي، وليعود هؤلاء الرجال إلى بلادهم ليؤدوا طموح نساء مدينتهم في الحب..

****

كل ماضي حياتي الذي هيَّأني لأن أذهب إلى رجال غير زوجي، وأم تركت حياتها مع أبنائها لتعشق ساكن بيتها الشاب الصغير الذي يصغرها بأكثر من ثلاثين عامًا، امرأة بلا زوج وبلا حب ولم ترزق بطفل تضع فيه مشاعرها وحبها.. الأمومة أقوى عاطفة لدى كل امرأة، جرَّدتني الحياة من كل شيء أشحن فيه أحاسيسي كامرأة تزوجت، رجل نطع وأم عاشقة رغم أنها عجوز، وإخوة كل ينصرف إلى حياته ولا أحد منهم ينحني على أخته ويقول لها.. مالك ياختي؟ لا شيء من هذا البتة، وكان ما تبقى لي جسدي ووجهي الجميل وحاجتي كامرأة إلى رجل.. امرأة في العقد الرابع من عمرها ماذا تفعل بعد هذه القسوة التي وقعت فوق رأسها.. قسوة بعد قسوة هي التي قادتني إلى ترام الرمل وإلى شاطئ رشدي، وقبلها الحياة والعادات التي تعوَّدت عليها كل امرأة تريد أن تحمل،

طريق السحر والشعوذة وهو طريق في حقيقة باطنه دعاة ونساء تحبل من رجل طلوقة وينسب إلى زوج لا يعرف ماذا حدث لامرأته في دار المشعوذين الذي يملؤون أركان مدينتي.. إن بلدتي فيها كل شيء..

.. وكان من الخطر الكبير عندما خرجت من بيتي لأعيش مع نفسي تلك الحياة، وجدت عالمًا كبيرًا من الأحداث لا أستطيع التحكم فيه أو السيطرة عليه ولكن أهناك عالم بديل أخرج إليه؟ إن جمالي الذي اكتشفته مع رجلان وجسدي العذري ولذة اللقاءات التي حدثت لا أستطيع العيش بدونها بعد أن ذقت معنى الرجل الذي يدخل إلى امرأة في هشام وسمير وأن الرجل ومعناه هو الذي يجعل المرأة تحب الحياة حتى ولو كان بوهيميًّا يسقيها الحشيش، وكان سمير شيء آخر.. فهل هناك رجل آخر غير سمير في مدينتي بعد أن سافر إلى فينا وتركني..

.. هل أعود إلى البوهيمية وشُرب الحشيش مع هشام لأحب شيئًا في حياتي أو أتعلَّق بها، وهل هناك غير العشق للنساء لكي يتمتعن ويعشن حياتهن.. أليس هناك غير ترام الرمل وشاطئ رشدي..

.. تمرَّدت على بوهيمية هشام وشُرب الحشيش، هذه الطرق البلدي لا تعجبني ولن أذهب إليها ولن أركب ترام الرمل مرَّة أخرى، وإن رجلًا مثل سمير لا يستمر.. الرومانسية والرقة وحب فينا الذي نثره هذا الرجل فوق جوانحي لن يتكررَّ إلا إذا عاد سمير مرَّة ثانية إلى الإسكندرية، لقد ذهب إلى مدينة كل ما فيها الحب والجمال ونساء فينا بارعات في جمالهن وأقدر مني ومن أي امرأة في مدينتي في إمتاع الرجل، لقد ذهب سمير إلى عوالم الحب الكبير في فينا والتي تغنيه عن أي امرأة مثلي في مدينته

القديمة، ولابد أن أعترف.. ما أنا إلاَّ نقطة في بحر إذا ما قورنت بعالم فينا الكبير الذي فيه تعلَّم سمير كل فنون الحب والعشق الذي لا ينتهي..

****

"بنات وستات ولاد ناس في مصنع المعيز"

.. أنساني سمير الذي ذهب ما كان بيني وبين هشام، وكان فضاء حياتي وفراغه كبيرًا أكبر منِّي كواحدة تعيش في هذا العالم الذي لا أعرف له نهاية، أماَّ عبد الشكور فلقد فقدت ذاكرتي أي شيء يخصُّه، ولم يكن هناك أي أمر أو حدث حفر في أعماقي أثرًا له، ونسيت هذا الزوج ولم يعد له في بيتي غير ملابسه التي أكره رائحتها ويقشعر بدني من لمسها، وبدأت أشعر بأن لي حجم في هذا المجتمع في علاقتي التي أخذتني مع رجلين، وتمنيتُ بيني وبين نفسي أن يعود سمير ولو كل شهر مرَّة، لكن سمير لم يتصل بي مرَّة واحدة، وفهمتُ أنني كنت امرأة عابرة قضى معها وقتًا جميلًا لأنه لم يكن يعرف امرأة في بلده ووجدني في طريقه بالصدفة، رجل تركني وربما لم يعد وأتمنى أن يأتيني ويعود إلى مدينتي، ورجل هو زوجي يغادر بلده دائمًا من أجل ماذا وعندما يأتي أجازته فهو الغريب عني حتى إذا لقاني أثارني وتركني فألعنه وأشتمه فيأخذ حقيبة بضائعه ويغادر البيت.. ليته ما يأتي، ليت عبد الشكور لا يعود إنني أمقته، وهذا الهشام ابن تاجر السمك، هو ابن بلد يعيش في حي أبي قير.. رجل بتاع مزاج ولم يتزوج حتى بلغ الخامسة والأربعين عامًا، ولكن الغريب في ليلة عندما ذهبت إليه ليروي جسدي سألته عن عمله وحياته فأجابني:

- أهو محل السمك موجود وواحد بيشغَّله وأحاسبه كل يوم.
- هوَّا دا شغلك الوحيد؟

- عندي مصنع بعيد عن أبو قير بشوية..
- مصنع أيه؟
- مصنع مزاج.. حاجة كدة زي المعسَّل.
- يعني إنت راجل مزاج في مزاج ماوركش غير تكيَّف نفسك طايح كده في البلد.
- شوفي أنا مش باغصب حد على حاجة، على فكرة أنا معايا بكالوريوس زراعة.. اشتغلت بيه شوية وسبت الزراعة..
- ليه؟
- دي حكاية طويلة..
- والمصنع له علاقة بدراستك.
- أكيد.. ليَّ علاقة بالمعيز وزبل المعيز الصغيَّرة اللـيِّ لسه مولودة وليَّ علاقة بالزراعة عندي حتة أرض جنب المصنع بازرعها برسيم ودراية.
- يعني أيه دراية؟
- هي أنثى الدرة علشان المعيز تأكل..
- غريبة مش فاهمة حاجة!
- بكرة تفهمي لو حبِّيتي.
- كام واحد بيشتغل في المصنع؟
- تقريبًا عشرين واحد وواحدة.
- فيه ستات كمان؟
- الستات بتشتغل في التوزيع.. توزيع البضاعة.
- ستات من أي نوع؟

- فيه ستات وبنات ولاد ناس قوي.
- وبتلاقيهم فين؟
- أقولّك وماتزعليش؟
- قول وهازعل ليه؟
- كل واحدة ليها حكاية زي حكايتك..
- وبعدين؟
- إذا كانت محتاجة فلوس بتشتغل وبتكسب..
- كلُّهم شربوا معاك حشيش وناموا معاك؟
- معظمهم.. الحاجات دي كلِّها مزاج.. مافيش حد عندي بيعمل حاجة غصب عنه.
- فيه منهم مومسات؟
- مفيش واحدة عندي مومس.. فيه بنات في الجامعة وفيه ستات متجوزين جوازات محترمة وعندهم مشاكل.. وفيه اللي جوزها بيشتغل بَره..
- مشاكل في أيه؟
- في الفلوس وحاجات تانية..
- زي أيه؟
- فيه ستات علاقتها مع جوزها معدومة مفيش معاشرة خالص.
- بييجوا للمفتري هشام علشان يدّيهم مزاجهم مش كده؟!
- ماعرفش قلت لك كل واحد وواحدة عندي مابيعملش حاجة غصب عنه.
- وبتجيبهم منين يا هشام؟ من ترام الرمل برضه؟

- من أي حتة.. من الترام.. من الكورنيش.. من محطة الرمل..
- والشوارع مليانة.
- إنت صيادَّ دهلاز..
- يعني أيه دهلاز؟
- بتجرجر الست واحدة واحدة بأدب وذوق وشوية حنان وحركات الست بتتشد.
- شوفي الليَّ مساعدني الفلوس كتير وعندي كذا شقة في أبو قير..
- والشقق ملك ولاَّ إيجار؟
- كلهاَّ ملك من أبويا..
- نفسي أعرف تفاصيل أكتر عن المصنع والشغل..
- في أي وقت يعجبك.. بس إنت بتقطعي معايا كتير، غبتِ عليَّ بعد المرَّة الأولانية..
- غصب عنِّي كنت مشغولة بحاجات..
- فيه حد تاني في حياتك؟
- أول راجل أعرفه بعد جوزي إنت يا هشام.
- ليَّ الشرف يا صفية.. المهم تكوني مبسوطة معايا..
- ماكنتش جيت لك تاني.. عايزة أطلب منَّك حاجة بس مكسوفة..
- أطلبي عينيه ليكي.. هوَّ فيه واحدة تتكسف من راجل بينكشف عليها.. قولي عايزة أيه؟
- عايزة فلوس.. جوزي اتأخَّر قوي كان المفروض ييجي من شهر ماجاش وماعرفش عنه حاجة..

- ياه.. إنت غالية والطلب رخيص.. عايزة كام؟
- هات ألف.. بس على شرط سلفْ..
- عيب كده.. ألفين ولمّا تخلص أطلبي الليِّ إنت عايزاه.
- أنا مكسوفة منك قوي..
- إعتبريني زي جوزك طول ما هو غايب..
- ولو هوَّ موجود ماقدرش أستغنى عنك..
- ولمّا ييجي هاتقدري تيجي..
- يا رب ما ييجي يا هشام..
- ماتدعيش عليه يا صفية دا راجل في الغربة..
- غُربة تاخده من حياتي كلِّها.
- معلهش يا صفية استحملي.
- أستحمل لغاية إمتى؟!
- في كل الأحوال أنا معاك.
- عايز حاجة تاني.. عايزة أقوم ألبس.
- على فين.. هوَّ إحنا لسه بنقول يا هادي.
- ماشبعتش منيِّ يا مفتري.
- ماينشبعش مِّنك أبدًا..
- خلِّيكِ معايا للصبح علشان خاطري..
- عمري ما شفت راجل مفتري أدَّك.
- شربت حشيش كتير هاودِّيه فين.

- يخرب بيت الحشيش واللـيِّ جابوه.
- بيعمَّر الطاسة.. بذمتك مش حلو..
- حلو.. وأي حلو.. ملعون أبوك وسلسفيله..
- أحلى حاجة فيك إنكِّ بتشتمي وعلى فكرة لمّا بتشتمي بأعرف إنك وصلتي للقمة..
- آي وحياتك يابن الوسـ دا فضل الحشيش علينا..
- ورِّبنا إنت أغلى واحدة في حياتي.
- بلاش تجيب سيرة رَّبنا واحنا كده.. حرام عليك..
- واللـيِّ بنعمله ده مش حرام..
- حرام أيه يابن القحـ....

.. وضربته على صدره العار بكف يدي.. بعدها رُحتُ معه في دنيا غير الدنيا حتى بذغت شمس الصباح فأخذنا نوم عميق خشية أن يكشفنا سطوع النهار ويرانا أحد.. وكنت حريصة على ألاَّ تراني أمي.. هكذا تهيَّأ لي، وسحبت الغطاء فوق جسدي العار حتى تدارى وجهي..

.. وكنت أكذب على نفسي ويتهيأ لي بعد لقائه أنني امرأة شريفة قست عليها الدنيا فأنتقم من كل ما مضى في حياتي وقد أنتقم مما تأتيني به الأيام..

****

"جميعهم يدفعوني إلى الخروج ولمّا رأيت أمي جنَّ جنوني"

.. أي ذكريات تأخذني وأنا مازلت زوجة وكأن الترام وشاطئ رشدي وأبي قير هي أول إطلالاتي إلى البحث عن حياة لقلبي وجسدي، كنت كإناء فارغ يذهب إلى هناك لكي

يمتلئ ولكنه سرعان ما يفرغ، فهل هذا لهو ومجون، وما معنى أن يشبع جسدي وقلبي لا ينبض، ولماذا يفرغ الإناء بسرعة فأبحث من جديد على من يملأه، كنت مثل امرأة ظُلمت عقدًا حبيسة في بيتها، ولمّا خرجت من قمقمها كان رصيف الأحياء وشوارعها يشملها ويأخذها من رجل إلى آخر، وكانت أشياء جمَّة تتعارك في داخلي، ولمّا كانت هذه التباريح تثور في نفسي أرتدي ملابسي الخليعة وأخرج إلى شوارع ومحلات وملاهي يباع فيها الهوى..

.. ومرَّت الأيام وتنقطع أخبار زوجي فلا يهاتفني ولا يرسل خبرًا مع أحد بيوم وصوله كما كان يفعل، وشحَّت الفلوس في دولابي وحقيبتي خلت حتى من العملة المعدنية القليلة القيمة، وفي هذا الحال الذي بلغني لم يكن قد دخل جيبي مال من أحد إلاَّ مبلغ الألفين جنيه التي أخذتها من هشام على سبيل السلفة، ولم يكن معي شيء حتى أسدُّده، وعندما يهاتفني يدعوني إلى لقائه أقول له:

- مكسوفة منَّك من ساعة ما خدت الفلوس.
- عيب إنسي الكلام ده.. تعالي وخدي اللي إنتِ عايزاه..
- مش عارفة أعمل أيه يا هشام.
- جوزك برضه ماجاش.
- ولا أي خبر عنه.
- تعالي عايزك يا صفية.
- كإني باشتغل عندك..
- كفاية وجودك معايا.. إنت مخصوص حماني من أي ست ماعرفشي عنها حاجة.. وعلى فكرة بمناسبة الشغل ما تشتغلي معايا..

- هااشتغل بياعة في محل السمك.
- لأ.. تشتغلي معايا في المصنع.
- لغاية دلوقتي ماعرفش معسل أيه الليِّ بتعمله، مابحبِّش المصانع ودوشتها..
- هاتشتغلي برَّة المصنع.. بتعرفي تسوقي..
- باعرف لكن ماشترتش عربية أسوقها..
- بسيطة تعالي وهاجيب لك العربية ونبتدي شغل مع بعض..

وراح يسألني في الهاتف كثيرًا:

- ليه المرَّة دي مش عايزة.. هوَّ إنتِ عملة صعبة؟
- لا والله تعبانة شوية بالكتير أسبوع هاجيلك.
- أجيلك آخدك بالعربية؟
- لأ لسه باحب أركب ترام الرمل.
- ما تتأخريش أكتر من كده..
- إنت عارف ماليش غيرك وماقدرش أستغنى عنك.
- يا ريت..

****

.. وكنت في هذه الأيام أبحث عن أي شيء آخر يلهيني عن هشام وذهابي إليه، رغم أنني في وجودي معه أغمس كل أوساخ جسدي وأشبع من وسخ هذه الدنيا الذي لا غنى عنه في حياة كل امرأة ورجل، كانت أعمال هشام معي كأنني أغطس في برميل نصفه عسل وبقية البرميل أكمله من دموع نحيبي وحزني على نفسي ولكنني كنت أعشق ما كنتُ محرومة منه وكأنني أملأ وعائي من ماء البرك الذي تملأ به النساء حرمانها من الذي حرمت منه مع زوجها..

.. وقلت لنفسي في يوم:

.. لماذا أتروَّى ألم أكن جائعة إلى رجل يكسُّر ضلوعي ووجدته، وهل هناك فضيلة بعد الحرمان، أي نقاء في داخلي تبقى بعد أن شربت الحشيش مع معلِّم السمك وصاحب مصنع المعسِّل، أنا امرأة يملأني جنون دائم يتغير كل شيء في حياتها، وما الذي تستطيعه امرأة مثلي صنعت لها ظروفها حرية من نوع خاص.. أخ كبير يعمل في حي من أحياء المدينة وتلهيه مشاغله في جمع المال من كل ما له علاقة بالبناء والهدم وكل ما يجمعه من مال تفتيح المخ وتسليك الأمور يملأ به حقيبة زوجته الجائعة إلى كثير من المال وهي ابنة رجل فقير كان يعمل عاملًا بسيطًا في جمرك الإسكندرية.. ولم يكن محمود أخي الكبير إلاَّ ابن عامل بسيط في نفس الجمرك وكان صديقًا لوالد زوجته، ماذا يمنع عيال ذاقوا معاناة الحياة في بيوت آبائهم من شراهة جمع المال بكل أشكاله وهم يُيسرون لأهالي الحي مصالحهم، إن شريحة أبناء العمال أيًا كانت مواقعهم عندما يتولون وظائف في مصالح الضرائب والجمارك فإنهم يستغلونها أعتى استغلال، وكل همهم جمع المال أيًا كان نوعه، إن أخي لم يكن يعرف أي سبيل في حياته غير هبر المال من صاحب كل مصلحة، ولن أنسى في يوم قال لي:

- إنتِ ياختي جميلة وفاتنة.. ليه حابسة نفسك في البيت تستنِّي فلوس عبد الشكور كل فين وفين؟! ليه بتحبي تبقي شْحاَّتة؟!
- مش جوزي يا محمود ملزومة منه!
- أيوه ماقلتش حاجة.. برضه يبقى ليكِ قرش خاص بيكِ وعندك وقت فراغ.. اطلعي شوفي الدنيا وأعملي كيان لنفسك.. أي صاحب عمل أو تاجر يتمنى واحدة زيك تشتغل معاه.

- إنت شايف كده يا محمود.
- هوَّ فيه غير كده.
- وماتخافشي على أختك من الرجَّالة.
- أخاف ليه؟!! هوَّ إنت صغيَّرة؟! استغلِّي مؤهلاتك.. دا الوحشات شافت مصالحها..
- أفكَّر يا محمود..

****

.. كانت نفسي شديدة الحركة والصراع في داخلي وقبل أن ألبِّي النداء الذي مازال ساكنًا، في ليلة دفعني شوق من نوع خاص لأن أنزل إليها في بيتها.. لم يكن هذا الشوق حبًّا لها ولا حنانًا، لكن يا ترى ما أخبارها؟ وهل هذا الشاب نور مازال ساكنًا معها؟ والذي كان يدهشني كيف لولد مثله يعشق أمي العجوز، ماذا تفعل له هذه الأم حتى تكفيه على نفسه في بيتها ويكون لها وحدها ويرضى بهذا الواقع الغريب؟!! ولماذا أندهش؟!.. أنا دائمًا عبيطة لأنني أندهش على كل صغيرة وكبيرة أجدها حولي.. وأوصلتني هذه التساؤلات.. ماذا يفعل الشاب الفقير الذي لا يملك بيتًا أو دخلًا يكفيه؟.. ما الذي يجده الشباب في مجتمع لا يعطيه شيئًا؟ إن ما يملكه نور شبابه.. يبيع فحولته لأمي التي تداريه في بيتها وترعاه من مأكل وغسيل وملبس، ولن يجد بيتًا آخر يأويه ويأخذ منه مالًا قليلًا ليقيم وضع حياته الضعيف، أمي في حاجة لتروي ظمأها وكما تأكل وتتنفس تلقي بجسدها في أحضان هذا الشاب الغريب.. ولم يكن الفقير في مدينتي يملك شيئًا غير الجنس، ونور هو ذلك الفصيل من آلاف الشباب يسكن المدينة.. ولم تكن أمي العجوز تجد رجلًا في شوارع المدينة إذا خرجت إليها، ولن يقف لها رجل

بسيارته أو يدعوها رجال متسكعون إلى بيوتهم، كانت أمي مثل مئات من النساء يملكن غرفة في بيوتهن يسكنها رجل مثل نور وغيره ويحققن من خلالها مآربهن..

.. أمي جذور تفرَّعتُ منها وفي قمة ظنوني وانشغالي بعالمي قررتُّ طرق بابها لاستطلاع ما الذي وصلت إليه في حياتها.. نزلت درجات السلم إلى شقتها وأخرجت المفتاح من جيبي وأدرته في كالونه القديم، كانت تكة واحدة فانفتح الباب وأمسكته بيدي وبالأخرى أخبأت ميدالية المفاتيح في جيبي، ولم تكن أمي من تلك الليلة قد أحكمت قفل بابها كما تفعل كل ليلة..

.. خلعتُ حذائي وكتمت أنفاسي وقرب غرفة كمال أخي جلست فوق كنبة صغيرة.. ولمّا سمعت صوت أمي ينبعث من داخل غرفة نور دفعني ذلك إلى التنصتُّ.. ما الذي يجري بينهما:

- ما تقولشي إنك عملت جُرم..
- ربِّنا انتقم منيِّ يا عمة أمينة.
- عمة.. أنا عمتك يا نور بعد دا كله؟!
- طيِّب يا خالة أمينة..
- ولا خالة يا نور.. إنت فايق ولاَّ بتتريق عليَّ.
- مش عارف أقولك أيه.
- قول يا أمينة.
- خربت حياتي يا أمينة.
- يا نهارك اسود.. أنا!!

- فصلوني من الشغل وماعدش معايا فلوس ومش لاقي شغل.. هوَّ فيه خراب أكتر من كده..
- إنت مش ناقصك حاجة لغاية ما ربِّنا يفرجها عليك.
- من زنا في غربته بيحصل له أيه..
- إنت مش زان.. أنا الليِّ زانية وماتزعلشي قوي كده..
- وهوَّ دا صح.. إنت أو أنا عملنا حاجة واحدة وعلشان كده ربِّنا بينتقم منيِّ.
- ماتقولشي كده.. كل الناس في البلد مش لاقية شُغل وأنت في حال أحسن من غيرك.. احمد ربِّنا إنَّك لاقي واحدة تحبَّك..
- ما نحاول نصلَّح من حالنا..
- إزَّاي أنا معاك في كل حاجة عايزها بس ماتسبنيش..
- نتجوِّز..
- ولادي والناس هايقولوا أمينة إتجننت.. اتجوزت واد أد عيالها..
- علشان رِّبنا يمكن يسهِّل لي وألاقي شغل..
- الجواز لأ..
- إنتِ ست كبيرة ومش خايفة من ربِّنا يا وليه اختشي.
- لأ أنا مش كبيرة تفْ من بقك أنا أحسن من البنت، مش بنتي سنِّها خمسة وثلاثين سنة أنا أحسن منها.. ولو عايز تجرَّب روح لها أهي فوق مش لاقية جوزها من يوم ما اتجوزت..
- حرام عليك وصل الحال بيكي أروح لبنتك علشان أحكم عليكي!!

- ما إنت هاتجنني بقى بعد ما دقت حلاوتك هاتمسك في الحرام والزنا والجواز.. سيبها ماشية زي ما هي ماشية..
- طيِّب نتجوِّز عرفي.
- هات ورقة اكتبها وأنا أوقعَّهالك..
- لازم حد يعرف من أهلك وأهلي.. العلن ضروري والشهود.
- يا نهار اسود أقول لأولادي أيه؟!! هايكرهوني ويقاطعوني..
- يعني دا أحسن ولاَّ اللي حاصل ده؟
- مش فاهمة.
- لماّ هَّم ولادك بصحيح وبيحاسبوا ويخافوا عليكِ، يعني همَّ مغمضين عينيهم، بالله عليك واحد شاب زيِّ عايش مع أمهم في بيت وبيتقفل عليهم باب واحد، مفيش حد فيهم خايف عليكِ من وجودي معاكِ!!
- ما هو كمال ابني معانا.. هوَّ دا الليِّ مطمنِّهم.
- كمال مالوش غير المذاكرة ولو شافك في حضني هايعمل إنه مش شايف..
- يعني الطيِّب نتكلم ونتنقور عليه.. الحمد لله إنه هادي وفي حاله، يعني لو ابن نحرور شوية أكيد كان هايلاحظ ويعمل معايا مشاكل..
- طيب أيه رأيك كمال داري بكل حاجة..
- داري وساكت وساتر على أمه يبقى بار بيَّ ربِّنا يكرمه، بس أنا متأكدة إنه مش داري بحاجة.. عايش مع نفسه قوي..
- علشان كده هاقولك كمال في يوم قعد معايا وكنت يومها في السوق.
- دا طبيعي يقعد معاك.

- يقعد معايا طبيعي.. يومها قال لي أيه..
- خير يا رب؟
- إنت غالي عندي قوي يا أبيه نور.. قلت له ياه بتحبِّني يا كمال؟
- بحبَّك قوي.. علشان مراعي أمي..
- إزَّاي يا كمال؟
- يعني أمي كانت هاتروح لمين إنت ستر وغطى علينا.. على فكرة أنا بحب أمي قوي لكن من غير كلام وتعبير عن حبي ليها.. إوعى تيجي في يوم وتسيبنا، أمي بتحبك زي ابنها.. دا أنا بشوف حاجات على النت عرفتني حاجات كتير ودا طبيعي إن أمي تبقى معاك.. هيَّ محتاجة ده في السن دي..
- بتشوفها يا نور لما ساعات تيجي تنام معايا في السرير؟
- باشوفها وفي مرَّة غطيتكم بالبطانية لمّا لقيتكم عريانين على الآخر..
- يعوَّض علينا ربنا يا كمال.
- هوَّ فيه أكتر من كده عوض.. وجودك معانا يا نور عوض مفيش بعده عوض..

****

"ميدان وسوق وبيوت تداري عوراتها الحيطان"

خرجتُ من بيت أمي إلى بيتي بعد أن قفلت بابها دون أن تدري بشيء هي وعشيقها، وما أذهلني مدى حب كمال أخي طالب كلية الطب لأمه إلى هذه الدرجة التي يعتبرها معظم الناس شذوذًا نفسيًّا أو فعلًا فظيعًا، لكن إلى هذه الدرجة وصلت أمي مع عاشقها الذي بدأ ضميره يستيقظ، وهذا الكمال أخي ليس فيه من الكمال شيء، غير أنه اتخذ من استخدامه للنت قيمًا جديدة، ولماذا لا يكون كمال قد اكتمل عقله، وهل من العلوم ما

يجعل مثل كمال يحب أمه بشكل يختلف تمامًا مع الذين يحبون أمهاتهم في مدينتي، وهل حالة كمال مع أمي منتشرة في مدينتي وهناك حالات مثلها كثيرة؟ ياه ما هذه الجنتلة التي وصل إليها أهل مدينتي، صحيح من قال.. الحيطان مداريَّة بلاوي.. وهل يعتبر السلوك الإنساني من أفعال خاصة بحاجتنا إلى الجوع والجنس فعلًا خاطئًا، وهل كان كثير من الناس في هذه الأرض لم يستطيعوا إتباع تعاليم أديانهم داخل بيوتهم وأنهم يفعلون ما يخالف الأديان خلف الجدران ناسين أن هناك جبَّارًا يراهم جميعًا، أم أننا جميعًا نتشدَّق بتعاليم الدين خارج بيوتنا وفي لحظات وأوقات نتدارى لنفعل ما يمكننا فعله ظانين أن أحدًا لا يرانا..

.. مساحات تغطي بيوت مدينتي مثل أشجار كثيفة الظل لو طلعت عليها نور الشمس اتكشف ما فوق الأرض وتعرَّى ورأى الناس جميعًا فضائح لا تعد ولا تُحصى.. ولماذا لا نعتبر كل هذه الفضائح فعلًا إنسانيًّا عاديًّا، وشيدَّ الناس جدران منازلهم حتى لا يراهم أحد إلاَّ جبار هذا العالم، إن جبَّار هذا العالم لا يفضح خلقه لكن الناس يفضحون الناس رغم أنهم يقترفون ما أفظع، إننا جميعًا نضحك على بعضنا ونكذب، وكل منا يداري ما يقترفه ويلعن به غيره.. فهل نحن جميعًا خلقنا من ضعف ولم نجعل لهذا الضعف حدودًا؟ أنا واحدة من فضائح مدينتي أخذتُ طريقي مثل بعض النساء اللائي أخذن طريقهنَ، ولكن هناك الكثير جدًّا من النساء في مدينتي لهن مثل ظروفي ومازلن فاضلات قانتات وليتني مثلهن، وساعد هؤلاء القانتات على الفضيلة أنهن ولدن أطفالًا ولم يجدن أمهاتهن مثل ما رأيت أمي..

****

.. كان بجوار سوق الحي ميدان صغير يتجمعَّ فيه عمَّال يرصُّون أمامهم عددًا وفئوس ومقاطف، يصطفون في شكل دائري مبحلقين في أي عربة تدخل في حِّيزهم تطلب عمالًا باليومية فإذا بعدد منهم يقذف بنفسه فوق صندوق العربة، عربات نصف نقل ونقل وأخرى كارو وغيرها ملاكي، يغرف ما يحتاجه من هؤلاء العمال ويذهب إلى حيث يقضي حاجته من هدم وبناء وشيل وحط، وكان عمي عثمان أحد شيوخ الحارة المجاورة لبيتي يجلس في المقهى المقابل لهذه الساحة التي يتجمع فيها هؤلاء المكافحون من صعيد مصر، ويبتسم كلمّا قلَّ عدد العمال في الميدان ذاهبون إلى أرزاقهم، يسحب نَفَسًا عميقًا من حجر شيشته وينفخه في الهواء ويزعق يا مسهل يا رزَّاق.. العربية الليِّ تودِّي، وكلمّا نادى زفر دخان جوزته يمنةً ويسرةً وعلا بضحكته وشاركه من حوله أصحاب الطواقي واللاسات والكلاسين والجلاليب المزركشة بألوانها الزاهية وجميعهم من تجار الملابس الداخلية والشرابات والسداير التي يرتديها كل تاجر صغير أو كبير حيث يضع محفظة نقوده في جيبها الواسع من تحت جلبابه.. وكلمّا امتلأت الساحة بعمال اليومية تمرُّ دقائق وتفرغ ما فيها من عمالة ثم تمتلئ مرَّة أخرى وكأن عم عثمان بابتسامته وضحكته الرنانة تدفع الدخان متطايرًا فوق رأسه في دوائر سرعان ما تندمج مع دوائر أخرى لرجال من عامة الشعب لا يمتلكون في صباح كل يوم غير دخان سجائرهم وشاي سادة ثُقيل دردي يوزن الدماغ.. وروَّاد المقهى أناس من شريحة أعلى من الذين يقعدون في الميدان على أطراف مؤخراتهم أو يفترشون الأرض، وكلما منَّ الله على أحد منهم اشترى عربة نصف كارو وجرَّها بيديه ولف الشوارع حول الميدان مناديًا على بضاعة، وكلمّا أراد أن يستريح جلس في المقهى ليتناول مزاجه وكأنه أصبح من علية

قوم أولاد بلده، ونسي أنه كان مثل هؤلاء يجلس القرفصاء ساعات حتى يأتيه رزقه من صاحب الأرزاق..

****

.. فجأة دار شيء في رأسي واختلطت في داخلي صراعات بين الواقع وما ينبغي أن نكون نحن فيه، ورغم أنِّي عاشقة وخُنْتُ عبد الشكور الذي أظلم كل حياتي وهو خائن كبير لأنه دفعني إلى الخيانة، أنا أعشق ترام محطة الرمل الذي يوصلني إلى فيكتوريا ثم إلى أبي قير حيث بيت هشام الذي أذاقني من رجولته كثيرًا وأيقنت أنه على الرجل تكسير عظام المرأة وضلوعها، ولمّا كان شاطئ رشدي عند منتهاه أخذني سمير الفينوي إلى بيته وذقتُ معه لونًا آخر من معاني الرجال، وكانت حركاته معي وأسلوبه المهذَّب شيء آخر يختلف عن طريقة هشام في الوصول إلى مبغاه، وسمير هذا وعدني بأنه لن يمسني بشيء لكن بطريقته أوقعني في شركه وسلمت له نفسي، ويبدو أن الرجال في كل أنحاء العالم يلفُّون ويدورون حول المرأة بأساليب مختلفة بهدف الوصول إلى شيء واحد يريدون الحصول عليه منها..

.. ما وصلتُ إليه في النصف الأول من النهار كان يدفعني إلى قرار مع أمي وأنه يجب عليَّ أن أفاتحها في إنهاء علاقتها مع نور بالزواج منه، ورغم خيانتها لأبي الذي مات وأولادها الذين مازالوا يعيشون حولها فإنني سوف أغفر لها إذا تزوجت من ساكن بيتها، ولا أعرف من أنا حتى أغفر، فلست بالمرأة الشريفة وإنني في حاجة إلى من يغفر لي، وكان يحفُر في نفسي شيء يؤلمني وهل هو صحيح أسلكه أم أن ذلك كذب على صاحب الغفران، أنا امرأة أعشق كل رجل يهواني مثل سمير الذي ذهب، أما هشام فهو الرجل الذي يدعوني دائمًا إلى بيته وأذهب إليه في شوق يجعلني في لقائه أموت في

علاقتي به، كل ذلك اخترق حياتي وفي نفس الوقت أصلِّي وأقيم سجودي في بيت عاشقي بعد كل لقاء معه، أدخل أتطهَّر وأستحم لأصليَّ ثم أرقد له طواعية.. فكيف تنفعني صلاتي وأتوب؟ فهل أنا امرأة لن تتوب؟ إنني أذهب إلى الصلاة كشيء ينير طريق حياتي وكما تعوَّدت منذ طفولتي على ذلك، ولمَّا كبرتُ كانت صلاتي لا تنقطع عنِّي وأضيف إلى تلك الحياة شراهة شديدة تدفعني إلى أي رجل يعجبني، أنا مثل أمي مازالت تصلِّي وتعشق ساكن بيتها الشاب الصغير، أكان ذلكُ حكم القوي على الضعيف، وأن كل شاب في مدينتي فقير لا يجد قليل من المال يحفظ به نفسه ويكون له بيته، فكانت في بيتها تحكم شابًّا فقير المال قوي الفحولة، تقدُّم له غرفة وطعام وتغسل ملابسه وتكويها وتعمل له مساج من وقت لآخر، وفي النهاية تمنح له جسدها في أي وقت من ليلها ونهارها، إن مدينتي تمتلئ بالعاشقات العجائز من أصحاب الشقق والغرف المسكونة، وشابات عاشقات متزوجات وبنات في عمر الزهور يعشقن أيضًا بمنح أجسادهن للرجال في درجات من الهوى، وكثير من البنات في بيوت بلدي كل ليلة يتحوَّلن إلى نساء عاشقات صغيرات السن، وكأن العشق يجمع في دائرته كل أنواع العاشقات عجائز وصغيرات تحت رغبات رجال أغنياء وفقراء..

****

.. كانت أمي تجلس في استرخاء على الأريكة الصغيرة بالصالة، ترتدي قميص ستان عار الكتفين والصدر،..يشعَّ لمعانًا في وجهها والكحل الأسود يفرش عينيها كأنها سمكة مرسومة تحت حاجبيها، والمثير أنها تمدُّ قدميها العارية فوق مقعد الخيرازن، تمسك بقنينة تغمس فرشة فيها وتطلي أظاهر يديها بعد أن أكملت طلاء أصابع قدميها..

المبرد والمقص والملقاط في حضن جنبها، منهمكة في تجميل جسدها غير مبالية كأن شيئًا يهمها أقوى من دخولي عليها لكنها قالت وهي تعدل من ساقيها فوق الكرسي:

- طربتيني يا صفية مش تخبَّطي قبل ما تفتحي؟
- هو مين الليِّ جوه معاك علشان أخبَّط؟
- برضه.
- فين نور؟
- نزل يدوَّر على شْغل.
- شهور ومش لاقي.. وبعدين يامَّة.. هوَّ بيصرف منين؟ بيدفع لك الإيجار؟
- طبعًا يا صفية مش كان بقى له سنة شغَّال..
- وبعد ما تخلص فلوسه طبعًا هاتصرفي عليه..
- ليه هوَّ كان ابني..
- ما تتجوِّزيه يامَّه.
- يا نهارك إسود.. بعد العمر دا كلُّه اتجوز.
- وأيه الغلط في كده؟!
- دا من سن كمال.. معقولة!!
- بتتزوقي لمين يامَّه؟
- لنفسي يا بت.. هوَّ أنا مش واحدة ولاَّ أيه؟!!
- هاتخرجي؟
- أخرج لمين؟! هاتزوَّق للناس في الشارع؟!!

- أنا مابعملش زيِّك.. يعني بعد الزواق دا كلُّه ورجلك الحلوة دي والروج والمانيكير والقميص اللي يجنِّن.. مش خايفة يدخل نور عليكِ؟
- لأ طبعًا هالبس جلابية وأداري نفسي.
- يمكن..
- إنت مالك يا بت إنت.. إتجرَّأتِ عليَّ قوي؟
- أصل كلامك فيه بْدع.. هوَّ أنا يامَّه عبيطة ولاَّ حاجة؟

.. انعدلت أمي وسحبت قدميها من فوق الكرسي وكشَّرت وأمسكت بالمقص وزعقت في حدة:

- قومي اطلعي بيتك يا قليلة الأدب.. أيه اللـيِّ خلاَّكِ أصلًا تدخلي بيتي.. لو ماقمتيش هاضربك بالمقص في وشِّك..
- هاقوم يامَّه.. إنتِ من بعد النهارده مش أمي.. تعالَ يابه شوف مراتك اللـيِّ أتجننت على آخر الزمن..

.. وهرولت أمي إلى المطبخ وسرعان ما انقلبت نحوي وفي يدها مدية تقطيع اللحوم، واندفعت نحوها أمسك يدها وأرفعها بعيدًا عن وجهي وضغطت بكفي يدي فوق رسغها فوقعت السكين على الأرض وصرخت منهارة بجسدها قُرب الباب وانخرطت في نوبة بكاء وعويل تلطم الأرض بذراعيها وصعدتُ مسرعة إلى شقتي..

****

"صفية ترضى بزواج أمهاِ ونور يهاتفها للاتفاق"

.. وتمضي الأيام وأمي تعلن أمام ساكنها نور كراهيتها لي، وكانت قد حكت له ما حدث وأنها كانت تنوي قتلي، واشمئز ساكنها مما وصلت إليه من حدة وجنون وقال لها وهي نائمة في أحضانه:

- بنتك مش غلطانة يا حبيبتي.. وهوَّ الجواز يزعَّلك؟!!
- صحيح حبيبتك..
- هوَّ أنا لي مين في إسكندرية غيرك؟ بس.. وسكت..
- بس أيه إتكلمِّ.
- لازم نتكلمِّ علشان ربِّنا يسهِّل لي وألاقي شغل.
- إنتَ شايف كده.
- ويسهِّل لك كمان.
- طيب هاقوم أستحمى وأصلِّي استخارة..
- الموضوع دا مش محتاج استخارة.
- برضه خلِّيني أصليِّ وأشوف أيه.
- براحتك.
- لكن لو حصل واتجوزنا هات ناس شهود ما يعرفونيش.. إحنا طبعًا هانتجوِّز عُرفي علشان المعاش وحاجات كتير تانية..
- موافق إنتِ مش ناقصة قطع المعاش خاصة إنِّك هاتتجوِّزي راجل عاطل.
- على فكرة ممكن تشتغل أي شُغل تاني مش لازم مهندس.
- أنا فكرت أشتري مقطف وفاس وكوريك وأقعد مع الصعايدة في الميدان.
- ماتقدرش تشتغل يوم واحد في الفاعل، دول ناس جبابرة واخدين على كده.

- نجرِّب يمكن أقدر..
- لو حصل واشتغلت فواعلي مش هلاقي فيك حاجة بالليل.
- إنت عايلة هم نفسك؟
- شوف اشتغل قهوجي أو بقَّال في سوبر ماركت.. أي شغلانة خفيفة علشان صحتك ومش عايزاك تتعب.. خدت عليك ماتفوتش ليلة واحدة من عمري بدونك..
- شوفي أنا طمران فيَّ عِشرتك وكويس إنتِ بتفكري معايا علشان ربِّنا يجعل لينا مخرج.. طيِّب خلِّينا نتجوِّز الأول..
- طالما إنتَ حريص عليَّ ومش هاتسيب بيتي أبدًا يبقى أنا موافقة على كل حاجة تعملها.. على فكرة المضروبة عايزاني اتجوز برضه..
- تقصدي صفية.. قوليلها..
- مخاصماها ومش هاكلمها تاني.
- أكلِّمها أنا.. إدِّيني تليفونها.
- خد المحمول أهه.. بالمرَّة سجلُّه عندك وكلِّمها من تليفونك..
- الساعة دلوقتي واحدة تلاقيها نايمة.
- كلِّمها يمكن تُرد عليك.

.. كانت صفية في أحضان هشام ولمّا رنَّ هاتفها لم تستطع الردَّ، كان رقمًا غريبًا عليها وقالت وهي تقفل هاتفها:

- هوَّ دا وقته..
- ردّي يمكن أمك.

- لا مش هيَّه.. خلِّيك معايا عايزة أنسى الدنيا معاك..

.. كان هشام مثل أي رجل لديه كثير من المال بالإضافة أنه معلِّم سمك وصاحب مصنع معسِّل، لم يكن في دنياه ما يشغله غير مزاجه، كان لديه من مخدِّر الترامادول الكثير وكل أنواع الفياجرا المستوردة، وكان المخدِّر يتناول منه حبة قبل لقائه بصفية بأربعة أو خمسة ساعات حتى يغيب معها، وكان يعرف أن هذه هي مشكلة كل امرأة متزوجة، فعندما يلتقط أية امرأة من ترام الرمل أو من كازينو أو من الشارع فمعظمهن كنَّ زوجات موظفين، الذين لا يستطيعون شراء الترامادول أو الفياجرا المستوردة، كان يحترف كيف يلتقي بهؤلاء الزوجات حتى أنه لم تأته امرأة متزوجة وذهبت دون أن ترجع إليه وتظل تهاتفه حتى تأخذ منه موعدَ لقاء آخر، وكان هشام يفضلُّ التقاط زبائنه من ترام الرَّمل لما يتمتع به هذا الترام من نقل طبقة متوسطة وفوق المتوسطة، بل وهناك كثير من شرائح راقية في المجتمع تركب هذا الترام، وأن نساء هذه المواصلة زوجات أو بنات موظفين من طبقة عليا، وأنه في ترام الرمل يجد من النساء اللائي يعتنين بنظافتهن وجمالهن، وأن هذه الطبقة من النساء لا تحل حاجتها إلى رجل من كازينو أو ملهى، لكن لا مانع من التعرَّف على رجل من خلال هذه المواصلة النظيفة بعيدًا عن عراقيب ومسالك في المدينة تشبهُ كل امرأة تبحث عن رجل في ملهى أو مرقص..

****

.. قامت صفية من نومها وسط النهار قُرْب العصر، وطلبت الرقم الذي هاتفها في الليل:

- ألو.
- مين معايا؟

- إنتَ مين؟ طلبتني بالليل.
- أيوه إنتِ صفية؟
- أيوه.. إنتَ مين؟
- أنا نور.
- نور مين؟
- نور الليِّ في بيتكم..
- أيوه.. نور.. إذَّيك يا نور خير أول مَّرة تكلِّمني؟!
- كنت عايزك في حاجة مهمة.
- قول فيه أيه.. هاتسيب أمي؟!
- عايز اتجوزها.
- يا نهار منيِّل عليك ما إنت مخلَّص عليها من غير جواز!!
- ياه مش للدرجة دي.. ماتكسفينيش.
- أكسفك ليه.. العيب مش عليك.. العيب على ست قد أمك ماعندهاش دم ولا عرض..
- طيِّب.. خلِّينا ولاد النهارده.
- على فكرة حكاية الجواز عرضتها عليها وهيَّ ولا هنا، والليِّ إنت ماتعرفوش أمي عميت عن ولادها.. أميِّ إتجننت جريت ورايا بالسكينة عايزها تعمل أيه أكتر من كده؟!!
- قالت لي وقلتها لا ما يصحِّش..
- إنتَ السبب يا نور في كل الليِّ حصل لأمي..

- أمِّك إللـيِّ جرَّتني لكده.
- يـا نـور كفايـة.. ليـك حـق الـرَّك علـى السـت.. خـلاص الكـلام دلـوقتي مـالوش لازمة..
- طيب إنزلي نتكلِّم في الموضوع..
- على العموم دلوقتي أنا مش في البيت..
- هاتيجي إمتى؟
- شوف أنا عند صاحبتي عبير ولسه هاقعد معاها يوم كمان.
- يعني بكرة هاتيجي؟
- هاجي علشان خاطرك.. من عادتي باقعد معاها ثلاث أيام لكن الموضوع مهم هاجي بكرة..
- تبقى كلِّميني لمّا تيجي.
- خـلاص يا نور.. بس تبقي اطلع فوق نتكلِّم ماقدرشي أنزل بيتها تاني بعد اللـيِّ حصل منها..
- طيِّب لما تيجي يحلِّها الحلال..

****

"من الحاجة تنبعث روح للخروج من الحضيض"

.. كانـت الطبقـة الـدنيا فـي هـذا المجتمـع تكبـر دائرتهـا كـل يـوم، القطـارات القادمـة مـن صعيد مصر تحمل كل يوم المئات من أبنائه باحثين عن العمل في مدينة الإسكندرية، ولو كان في أقصى شمال المدينة مدينة أخرى لذهبوا إليها، حتى لو كان المشي على البحر أو السباحة فيه ليل نهار يأتي بلقمة عيش لفرق الجميع تحت الموج بحثًا عن

عمل يسد رمقهم، وكان لابد من فعل الروح للخروج من الرذيلة إلى التوبة، وبعد الامتناع عن الأفعال المشينة قد يرزقنا الله بالعمل مهما كان شاقًّا لنحصل على طعام وشراب يشبع بطوننا الجائعة، ولم يكن نور من الصعيد لكنه من القاهرة القديمة وحصل على بكالوريوس الهندسة كي يعمل مهندسًا، لكن قوَّة أخرى في كل مدينة تجعل الطموح يموت يومًا بعد يوم، وتضطره أحوال الدنيا في مدينة يحاول المفسدون دفن أهل مدينتها في تلك الحياة الظالمة التي تجعل الناس جميعًا يجبرون على النزول إلى تحت، ولم يكن نور يستطيع أن يخرج من بيت أمينة ليبحث عن بيت آخر، وكان عشق هذه الأم له سترًا يكفيه، فإذا رفد من عمله وجد من يأويه في مقابل أن يلقاها ويمنحها مزاجها كامرأة تريد رجلًا، وكان على جميع هؤلاء الفقراء أن يبحثوا عن حلول في داخل بيوتهم وشوارعهم، ولابد أن يقبع كل فقير في مكانه التحتي ويبذل كثيرًا من الجهد والعرق للوصول إلى مخرج، ولكن من يجد امرأة لها معاش وزوجها مات عنها فلقد رزق بالخير كله إذا كان عاشقًا لها، ولابد من شيء آخذه وأعطي شيئًا مقابله، فمن تمتلك الجسد حتى ولو كان جسدًا عجوزًا تمنحه لرجل فقير عاطل يتردَّى من عمل إلى آخر وهو في نفس بيت امرأة تتحكم فيه لأنها تملك البيت ولها معاش يكفيها ويكفي عاشقها العاطل، المعاش ستر ونور ستر وأمينة ستر والنزول إلى تحت مع الفواعلية ستر، لا تظنوا أيها السادة أن في حياة هؤلاء المحتاجين لا يوجد ستر، الجنس أهم لعبة لمقايضتها بالمال والطعام، ومن قال إن الزنا غير المستهدف جُرم أو حرام، زنا يأتيني وأنا في طريقي للحصول على الطعام، بين الناس الفقراء جسد امرأة تشركه صاحبته مع جسد رجل.. هوَّ كده عيب ولاَّ حرام؟! شوفوا مين الليِّ فرض كده على الناس وخلاَّهم يقدِّموا أجسادهم بضاعة يقايضون بها من أجل الطعام، ألم يكن من الأجدى ألا نتغنى بالعدل

والكرامة؟.. لا يصل العدل إذا انتظرته إنه لن يأتي أبدًا، في مجتمع الظلمة لن يأتيك أي عدل فلا تنتظر العدل لكن اذهب إليه واقتلعه من جذوره، وإذا كان العدل لا يحمل طعامًا للفقراء فما فائدته، العدل في مدينتي كلام ليس فيه طعام.. العدل طعام الأغنياء ولأنهم يبيعونه كلامًا وشعارًا للفقراء وهم يلتهمون طعام المحتاجين، لابد أن يثور الفقراء ولكن كيف يقومون بثورة وهم ضعفاء؟..

.. وأفاق نور من كلام صفية المتكررِّ لكنه اضطر أن يسمعها إلى النهاية حتى تشفي غلُّها من قسوة الحياة عليها وعليّ وعلى أمها، وكنت أوافق على كل كلمة قالتها وأهزُ رأسي.. صح.. والله كل كلامك جواية، وتوقفت تمامًا عن استرسالها عندما قلت:

- عايز أصالحك مع أمك.
- هوَّ مين الليِّ يروح للتاني يصالحه.
- البنت تروح لأمها حتى لو أمها قطَّعتها..
- زي ما إنت عايز يا نور.. فرحتي بجوازكم تخليِّني أنسى أي إساءة.

.. كانت شقة صفية نظيفة جميلة مثل صاحبتها التي استقبلتني في بيتها بترحاب وتهليل وهتفت بكل حديثها هذا وكأنها تخطب في جمع من الناس لكي يحملوا فئوسهم ويذهبوا إلى القصر ليهدموه، قدمت شايًا وجاتوه وناولتني سيجارة فأخذتها مجاملةً وأشعلتها من سيجارتها وسحبت نفسًا عميقًا فإذا بي أتذكرَّ سيجارة الحشيش التي دخنتها مع زميل لي في الجامعة وقلت وأنا أزفر دخانها الثقيل:

- جايبة الحشيش منين.
- من أي حتة يا نور.
- من زمان بتشربيه.

- من ساعة ما ركبت ترام الرمل.
- مش فاهم.
- ماتدقِّش.. لازم تفهم كل حاجة.
- مين هايشهد على العقد؟
- كمال أخويا وأنا وعبير..
- عبير مين؟
- عبير صاحبتي بتاعت رأس التين..
- أيوه افتكرتها أمك حكت لي عنها.
- قالت لك أيه؟
- كل حاجة.. مالقتيش غير دي؟
- مالها.. أحسن مني ومنك ومن أمي.. على فكرة عبير دي أنضف واحدة شفتها في حياتي..
- يا شيخة تفيِّ من بقك.. هيَّ في الأول والآخر مومس..
- للأسف إنتَ مش عارف حاجة.. تحملت في حياتها مفيش واحدة في إسكندرية كلِّها تتحمله.
- على البركة الدخول في تفاصيل حد مالوش لازمة.
- والنبي إنت وأمي الليِّ عملتوه ماحدِّش عمله، والليِّ زَّيك يا نور يتكسف من نفسه وعلى فكرة أنا باعتبر أمي أكبر قحبة في المنشية والنبي تسكت خلّي الطابق مستور.
- ماكنتش أعرف إنّك ردَّاحة كده..

- لا أبدًا قول وأنا أقول والنبي كل واحد فينا فيه العبر وبيستحرك على التاني بأنه أخلاق وشريف.. هيَّ الحياة الضيقة والفقر اللي إحنا فيه خلَّى كل حاجة فينا على عينك يا تاجر.

.. ووقف نور مبتسمًا وقال:

- والله عاجباني إنتِ جبتي من الآخر..
- مافيش حد أحسن من حد.
- عبير هاتيجي إمتى؟
- بالكتير على المغرب.
- عارفة جاية ليه؟
- عارفة كل حاجة.
- قالت لك أيه؟
- يابختهم بطَّلوا وساخة.. عقبالي..

وانقلب نور نحو الباب وهو يقهقه ثم طفق:

- والله إنت أكبر فُضاحية..
- كلامك صح يا جوز أمي.. إستنَّى هاقولَّك نصيحة قبل ما تشد الباب..

وقف عند الباب والتفت إليها:

- هوَّ لسه فيه كلام..
- والنبي ما تعمل حاجة في أميٍّ لمّا تنزل.
- دا إنت بجحة بجاحة.. عايزة أيه تاني؟!!

- قل لها اصبري أنا عارفة أمي تنك مابيشبعش.. قل لها علشان ربِّنا يسامحك يمكن تعقل..
- الليِّ إنت عايزاه يا صفية.. ما تتأخّريش.

****

"زواج العجوز ونور يقابل الشيخ في المقهى"

.. نزل نور إلى صاحبة البيت فوجدها تصلِّي فدَّق شيء مثل السكون في قلبه وجلس فوق مقعد بجوار سجودها ولمّا انتهت من صلاتها طبَّقت السجادة وقبل أن تضعها على فراشه قالت دون أن تنظر إليه:

- قوم صلِّي يا نور.
- سبحان الله ربِّنا يهديك يا أمينة هاقوم أتوضَّا.
- ويهديك.. أنا حاسة إن النهارده هايبقى بداية خير..

.. ومضى من الوقت ساعة بعد الصلاة كانت أمينة تريد أن تلقاه لكنَّه تجنبها قائلًا:

- بعد ما نكتب كفاية الليِّ فات من ذنوب.. هيَّ الصلاة مابتهدِّيش.
- خلاص يا نور بكفاية عُقد.

.. واضطجع فوق الأريكة ينتظر قدوم صفية وعبير، وقعدت هي قبالته تتأمله دون أن تنبس بكلمة.. لكنه وفي غمرة تفكيره راح يكلمِّ نفسه.. كل ما أتمناه أن يغفر الله لي وأن أجد عملًا.. أي عمل.. المهم أشْتغل.. نفسي أكون حُر نفسي.. مش عايز صاحب مصنع يطردني تاني من عملي، يا رب ارزقني أنا غلطان في كل الليِّ فات من حياتي لكن حكم القوي على الضعيف، صاحب المصنع حكم وصاحبة البيت حكمت، أنا نفسي أحكم نفسي، هيَّ الحرية والعدل مش كل واحد يحكم نفسه وماحدِّش يرغمه يعمل حاجة

مش عايزها.. هوَّ ليه كل واحد في البلد بيعمل حاجات غصب عنه.. هوَّ ليه الظلم والحكم على النفس بالهوان والحرمان.. مش عارف بكرة هايحصل أيه، لكن الليِّ داخل عليَّ دلوقت صفيَّة وعبير.. إتنين يشهدوا من الستات صح لكن شهادة عبير صح؟!! مش عارف.. فيه مشكلة تانية المفروض ييجي واحد يقرا صيغة عقد الزواج، وبترتيب مع صديقتها عرجت عبير على مأذون في رأس التين يُدعى إبراهيم وجاءت به معها ونقدته قبل أن يخرج من بيته مائة جنيه كي يطمئن.. بعض الوقت وطرق الثلاثة باب أمينة.. صفية في المقدمة بعدها عبير ثم الشيخ إبراهيم، جلسوا ثلاثتهم بالصالة ورَّنت عبير زغرودة لكن صفية أثنتها أن تكررها ثانية قائلة لها:

- عارفين شعورك يا حبيبتي بس الموضوع عايزينه في الكتمان ما أنت عارفة وهمست في أذنها: هايقولوا مين بيتجوز نقول لهم أيه؟! العملية هاتبقى مقرعة في الشارع..

.. دخلت صفية المطبخ وفي يدها زجاجة شربات مانجة، العروس في غرفتها تضع بعض المساحيق على وجهها، سرَّحت شعرها الخشن ونثرته حول رقبتها.. بالكاد وصل إلى كتفيها وكان مثل خيمة مثقوبة يغلب عليها اللون الأبيض.. ارتدت أحلى ثياب في دولابها وخرجت إليهم ورحَّبت بهم، وكان الشيخ يتأملها مليًا لكنه كان يداري اندهاشه زاعقًا بين الفينة والأخرى: يا الله.. يا سبحان الله.. يا رب تمم بخير.. مبروك يا عريس مبروك يا عروسة، وكانت عبير تريد أن ترقص فقالت لها صفية: بعد ما نكتب ولمّا الشيخ يمشي.. لكنَّ عبير زغردت مرَّة أخرى فوضعت صفية كف يدها على فمها فخرجت الزغرودة مخنوقة لم تصل إلى باب الشقة، وقدَّمت صفية الشربات وهي تضع الكوب أمام كل منهم.. ووصل كمال متأخرًا فتنهدَّ المأذون معربًا عن ارتياحه لاكتمال

الشهود.. وقام الشيخ إبراهيم بعمل كافة مراسيم العقد ثم وقَّع الشهود وتسلَّم كل من العريس والعروس نسخة من العقد بعدها انصرف الشيخ..

.. فتحت عبير حقيبتها وتناولت منها شريط لمطرب مشهور به أغنيات مبهجة اعتاد عليها أهل الأفراح، وقامت صفية وعبير ترقصان وتشابكت الأيادي واهتزت الأرداف ودقت الأقدام الأرض بقوة وتهلل وجه العروسان فرحًا وغبطة وراحا يصفقان..

****

.. مضت أيام بعدها ببطء وكأن ملَكًا سدَّ طاقة الفرج وكنت أصلِّي وأدعو ثم أخرج أدور في شوارع الإسكندرية بحثًا عن عمل، وركزَّت في أيام متتالية في البحث عن وظيفة بائع في محل، لكن معظم التجار بين المنشية ومحطة الرمل يوظفون البنات والسيدات كوسيلة في جذب الزبون، ومن يوظف ولدًا أو رجلًا فهو قريب له أو ابنه، وبعد فترة من البحث والعناء كانت فيها أمينة زوجتي تضع لي خمسون جنيهًا فوق منضدة في غرفتي، وكانت في ذلك تمنع عنِّي الحرج قائلة في أول ما درجت على هذه العادة:

- شوف أنا عارفة إنكَّ حساس قوي.. كده أحسن أرجوك خُدها كل يوم من غير أي حساسية أنا بقيت مراتك يا نور..

.. وكنت أشعر أنني أتآكل من داخلي، وأن شيئًا في داخلي ينضمر، حاولت مع كل الناس في مدينتي العثور على عمل حتى ولو كان ماسحًا للأحذية فلم أجد لأن هذه الأعمال التحتية كان ينظر إليّ إصحابها قائلين:

- يا فندي ماينفعش عيب.. دا انت ابن ناس إن شاء الله ربِّنا يغنيك..

.. في يوم نزلت من أحضان أمينة إلى ميدان العمل القريب من بيتي وجلست في المقهى قرْب شلة الشيخ عثمان التي تقعد معه كل يوم، أسمع أقوال هذا الرجل وأتأمَّل

حركة الميدان خاصة هجوم الصعايدة الفواعلية على كل طالب عمَّال يدخل الميدان، واقتنعت من اندفاع الناس جميعًا إلى الرزق أن البحث عنه يلزمه قوة واندفاع إليه، وأيقنت أنني فيما مضى فشلت في العثور على أي عمل لأنني أتمادى في الرقة والحساسية وأنا أبحث عنه، ولابد لي من جسارة ولأتعلَّم من هؤلاء الجبابرة في الميدان، واقتربت من مقعد الشيخ عثمان فمدَّ يده وصافحني قائلًا:

- أهلًا.. إنت جديد هنا؟
- أنا زبون جديد في القهوة لكن ساكن هنا.
- أول مرَّة أشوفك.. إنت من هنا؟
- ساكن.. أنا من القاهرة.
- شغلتك أيه؟
- مهندس.
- وأيه الليِّ جابك القهوة.. هنا الناس الغلابة بس؟
- يا ريتني كنت غلبان.
- أيه حكايتك؟! إسمك أيه؟
- نور.

وحكيتُ له حكايتي من طأطأ لسلام عليكم، طبعًا إلاَّ حكايتي مع صاحبة البيت، وأخذ الرجل يهزُّ رأسه ثم قال:

- إسمع يا نور إنت عاوز الجد.
- طبعًا.. إنت ماتنفعش تشتغل مع الفواعلية دولت.. لكن.. وسكت.
- لكن أيه يا عم عثمان..

- لازم تخترق.. تغيَّر نفسك من جوَّه..
- إزَّاي..
- شوف ولاد بحري وإسكندرية بيحبُّوا الأنتكة والفزلكة.. شوف العربيات بتاع الملابس الليِّ حوالين الميدان.. كل حاجة على العربيات ملابس من كل نوع.. العربية زي المحل سوق الواحد أو الواحدة تنزل من بيتها تلاقي كل حاجة لزوم البيت موجودة في الميدان.. هات يا نور عربية وأقف في الميدان زي الناس دي.. إنت ساكت ليه سامع كلامي؟!
- سامع والله.. ودول بيكسبوا في اليوم أد أيه؟
- إنت هاتحسبها قبل ما تبدأ ماينفعش كده يا نور.. أقولَّك أيه.. أقل واحد من دولت بيتحصَّل له على ميَّة في اليوم..
- ياه معقولة!!
- معاك ألفين جنيه؟
- مش فاهم..
- تشتري عربية وبضاعة وتقول يا كريم.. إنت لو عملت زي الناس دي ونسيت إنَّك مهندس ولبست زيُّهم وأتعلِّمت لغتهم في البيع والشرا هاتنجح..
- كلام جديد وجامد قوي يا عم عثمان..
- شوف يا نور أنا جبت لك من الآخر.. هاتبقى صاحب عمل وحر ويمكن تبقى بعدين صاحب محل.. سيبك من الحكومة وبتوع القطاع الخاص دولت سفَّاحين..
- كل كلامك يا عم عثمان دخل دماغي.. ربِّنا يبارك فيك..

- يعني خلاص هاتبتدي..
- ماعنديش غير كده بس أدبَّر المبلغ.
- على البركة.. تبقى تعال وطمنِّي عليك..

.. وصافح نور الشيخ عثمان ممتنًا وذهب إلى بيته، وجد زوجته في مطبخها، توضَّأ وصلى الظهر ودخل غرفته واضطجع في فراشه وراح يفكِّر فيما اقترحه عليه الشيخ..

****

"دخان الشيشة مفيد ومش عيب أبقى بتاع خضار"

.. كلمة قوية دوَّت في رأسه.. سيبك من الحكومة ومن بتوع القطاع الخاص، صحيح هذه أعمال تحتية تحتاج التخلِّي عن شهادة الهندسة وعن ملابسي الشيك وأرتدي ثوبًا آخر ولا ينفع الندم على ما أنفقه أهلي عليّ في سنوات الدراسة دون الاستفادة منها، ويا ليتني ما أكملت هذا التعليم البغيض الذي لا يحقق أدنى كرامة لحاملي الشهادات..

تناولتُ الغداء مع زوجتي ولم أنبس بكلمة، كالعادة أثني على طبيخها، فقالت:

- مالك؟
- أبدًا بافكر في حاجة.
- حاجة أيه؟ هاتخبيِّ عليَّ دلوقت بعد ما بقيت مراتك؟!!
- طيِّب لما نخلَّص أكل..

.. صَّلينا المغرب معًا ثم أويت إلى فراشي كعادتي حين يقبل المساء في هذه الأيام الصعبة التي أودت بي إلى تلك البطالة اللعينة، وأحضرت زوجتي الشاي وامتدت معي في سريري وقالت وهي تحتضنني بذراعها:

- قول بقى فيه أيه؟

وحكيت لها ما دار بيني وبين شيخ المقهى فضمتني إلى أحضانها بشدة وقالت:

- كلامه صحيح لمّا مافيش فايدة تبقى تبتدي من الصفر ولا عيب إلاَّ العيب.
- المشكلة دلوقت ألفين جنيه.
- تمن العربية وعربون بضاعة.
- أنا باقول بلاش الملابس.. باقول أبتدي ببيع الخضار لأنه رخيص شوية.
- أي حاجة تبتدي فيها.. الخضار مشكلته مكان في السوق علشان ماحدِّش يتخانق معاك، سوق الخضار كله معلمين وصعايدة.. أحسن حاجة ابتدي جوَّال في الشوارع.
- كلامك مفيد.. صحيح أمشي في الشوارع وأبقى حر ولا مشاكل السوق.
- امشي الأول في شوارع المنشية وإن ماجتش معاك روح الأحياء الأرقى شوية هناك الناس تشتري منَّك بدون فصال..
- طيِّب.. أنا دلوقت معايا ربع المبلغ هادبَّرلك الباقِ من صفية.
- لأ بلاش.. دا جوزها غايب عنها ومافيش فلوس بتجيلها من ست شهور.
- أنا بعت دهبي كلُّه على كتُب كمال..
- أقولِّك فاتحها إنتَ في الموضوع وأحكي لها الحكاية كأنِّي ماعرفش حاجة وهيَّ جدعة في وقت الشدة أنا عارفة بنتي..
- هيَّ فوق دلوقت؟ كلِّمها في التليفون شوفها موجودة.
- وإذا كانت موجودة؟
- إطلع ليها إنت واحكي لها الحكاية وهيَّ هاتاخد الموضوع عادي، إنت دلوقتي بقيت جوز أمها..

****

.. ومرت علينا أيام أخرى فيها لم تكن صفية موجودة في البيت، وكنت أنزل إلى الشارع أدخل مقهى أخرى قريبة من الميدان أفكرِّ في حالي بعيدًا عن مقهى الشيخ عثمان لأنني لم أفعل شيئًا مما قاله، في هذه الأيام الشديدة والتي آلمتني كثيرًا، تعلَّمت تدخين الشيشة، وكنت أسأل نفسي لو لم تكن هذه الزوجة التي تأويني في بيتها منذ شهور وتطعمني، ماذا كنت أفعل وأنا في مدينة ليس لي فيها مأوى، في هذه الأيام البغيضة على نفسي عرفت أن كل شيء له ثمن، بدأت في هذا البيت ساكنًا ثم عاشقًا بعدها بأكثر من عام كنت لها زوجًا، وتساءلت مع نفسي.. تُرى أين صفية التي تغيب عن بيتها أيامًا وليالٍ، هل تذهب إلى عبير وتسرح معها أينما تذهب؟ وعاتبت ظنوني وقلت ومالي أنا بها؟ على أمها وأخوها كمال أن يبحثوا عما أبحث عنه.. هي بنتهم وليست بنتي أو أختي..

.. وبعد أسبوع من قسوة الأيام التي تمر بطيئة ولا حل.. أصبحت عاطلًا حقيقيًّا، ولكن يبدو أنني في حالة من القنوط جعلتني أهذي وأثرثر مع زوجتي في أي شيء، فقلت لها كالعادة نتكلَّم كثيرًا بعد تناول الفطور:

- هيَّ صفية لسه مجتش؟
- ماعرفشي.
- إنت أمها إسألي عنها.. يا ترى بتروح فين؟!
- وأنت مالك يا نور.. سيب كل واحد يعرف خلاصه في حياته..
- بس دي جوزها مش موجود.. برضه شوفيها بتروح فين..
- إسمع يا نور من زمان مافيش حد منِّي أو منها بيتدخل في حياة التاني.
- يعني إنت مقتنعة بغيابها عن البيت.

- شوف إحنا في زمن مافيش حد له دعوى بحد.. شوف الليِّ كان بيني وبينك لا هيَّ ولاَّ كمال اتدخل في حياتي.. قول فيه حد قال لي تلت التلاتة كام؟
- لأ ماحصلش..
- خلاص سيبها تروح مطرح ما تروح..
- أكلِّمها في المحمول.
- كلِّمها بس إوعى تسألها إنت فين ولاَّ بقى لك أيام مش في بيتك إوعى.. قول لها أنا عايزك في موضوع وبس..
- كلامك صحيح.

****

.. دخل علينا الظهر وكلانا يثرثر مع الآخر، ولمّا تتركني لتقضي حاجات البيت أثرثر مع نفسي، وبعد الصلاة مع زوجتي نزلت كالعادة إلى الشارع لأدخن الشيشة في المقهى الجديد، ووجدت أنه من المناسب هنا أطلب صفية حتى على الأقل أسأل عنها:

- آلو.. صفية.
- أيوه.. مفاجأة إزَّيك يا نور؟
- كويس والله.
- عامل أيه مع أمي؟
- زي الفل.
- أمي دلوقتي أحسن ولاَّ قبل كده؟
- عايزة الجد.. العشق حلاوته أحسن من الجواز بكثير.
- كالعادة الحرام حلو.. أنا برضه جرَّبت الجواز كان بالنسبة لي زي الزفت..
- ودلوقتي.

- أكيد العشق أحسن.
- إوعي تكوني يا بت يا حلوة عشقتِ حد؟
- وليه لأ يا نور.
- يا ستي إنت حرَّة.. شوفي الدنيا دي واسعة علينا مش عارفين بكرة هايحصل أيه ودايمًا إحنا كلِّنا بننسى الليِّ فات.
- لازم ننسى علشان مانموتش.
- في الحقيقة كنت عايزك في موضوع.
- قول عايز أيه؟
- طيِّب لما تيجي.
- لأ قول دلوقتي..
- عايز ألفين جنيه.
- ولا يهمَّك تحت أمرك كويس إنَّك قلت لي قبل ما آجي..
- إحنا عاينينك للعوزة ربِّنا يخلِّيكِ..
- بس قوليِّ بصراحة عايزهم ليك ولاَّ لأمي.
- والله عايزهم ليَّ.. هاعمل مشروع.
- مشروع أيه؟!! ماكنش حد غُلب هوَّ فيه مشروع بألفين جنيه!!
- فيه لمّا تيجي هاحكيلك..
- أنا جاية الليلة.
- لمّا تيجي كلِّميني.
- بس تطلع لي فوق مش عايزة أمي تعرف أي حاجة.

- زي ما انت عايزة.
- باي يا نور.
- باي يا صفية.

****

"بعتُ كل حياتي في المنشية وتفرَّغت لهشام وعملي في المصنع"

.. بعت من جسدي له ما لم أكن أتصورَّه أنَّني أتمتع بهذه الأنوثة الفائقة، ولمّا كان زوجي يأتيني كل ثلاثة شهور بعتُ من نفسي له حبة بعد أخرى على أمل أن يأتي يوم ويكون زوجي مثل الرجال، ولمّا علمت ورأيت بنفسي ما يتناوله هشام من مخدِّر وفياجرا انتويت أن آتي لزوجي بهذه الروشتة عندما يعود في أول أجازة، عسى أن يكون هائلًا وأكتفي به رجلًا بعد معاناة عشر سنين، وأطلب من ربي العفو عن تلك الهفوات التي حدثت في حياتي مع هذا الرجل الذي أخذني من ترام الرمل، ولا أخفي أنني لم أستطع كبح جماح نفسي من التعرُّف على رجال آخرين تتوق إليهم نفسي، ولم أحصل على رجل من هؤلاء لأنني لم أجد في طريقي رجلًا يعجبني غير سمير الذي أخذني من شاطئ رشدي، دعوة في داخلي لا تهدأ أليس لي من رجل آخر يختلف في نوعيته عن هشام معلِّم السمك وصاحب مصنع المعسل، شيء من الانتقام سيطر عليّ لأشبع من نِعمَ الحياة التي حُرمت منها طيلة سنوات مضت، وقبل أن يطلبني نور في حاجته إلى ألفين جنيه كنت قد سحبتُ من هشام أكثر من عشرة آلاف جنيه خاصة أن تلك الشهور الأخيرة لم تعد تصلني أية أموال من زوجي الذي ذهب ولم يعد في حياتي كلِّها، ولم أكن أأسف عن أمنياتي ألاَّ يعود هذا الزوج أبدًا حتى لا يعوقني شيء عن طموحي..

ولم يكن عندي ما أملكه غير جسدي أقدمُّه لهذا المعلِّم الذي يمتعني وآخذ منه المال الذي يكفيني، ولم أنس أيامًا بعد انقطاع زوجي عني كنت أمرُّ على كثير من المكاتب والشركات لأجد عملًا يعولني، ولم يكن سوق العمل في تلك الأماكن يصرف أجرًا لمن هم مثلي بأكثر من ألف جنيه، ولم أكن أجيد العمل على الكمبيوتر ولهذا كان أجري ومن هم مثلي لا يزيد عن ذلك في كافة مكاتب وشركات القطاع الخاص، وماذا تفعل

امرأة مثلي وجدت بنفسها ماذا يقدَّمه لها جسدها من أجر كل يوم، وكنت قد حكيتُ لعبير بأنني أمرُّ بضائقة مالية، وكنت أحكي لها كل ما يحدث في حياتي وفي يومها أعطتني مبلغًا كبيرًا من المال قلت لها:

- أيه رأيك شغِّليني معاكِ يا عبير أحسن كده مش هاينفع.
- سهل تشتغلي معايا بس طريق مالوش نهاية وانت حبيبتي مش عايزاكِ تتهاني زيِّي..
- ليه هوَّ إنت بتتهاني.
- أيوه.. ياريتني أقدر أرجع عبير إلليِّ كانت، وبعد ما شفت بنفسي كل ما في هذا الطريق من فناء إلى فناء عمري ما أختار الطريق ده، واشتغل أي شُغل يأكلَّني دُقه وعيش حاف وأحافظ على نفسي وعلى كياني.. إنت عارفة كيان المرأة أيه يا صفية؟
- عارفة.. بس غصب عنِّي علشان أعيش..
- طيب خلاص، على العموم خلِّيكِ مع هشام بس، راجل واحد يتكشف عليك كفاية، واحده زيِّي يا صفية بعد سنوات قليلة ماحدِّش هايطلبني.
- ليه؟
- هاكون كبرت وطلع ستات وبنات صُغيَّرة ومُزَّة أحسن منِّي بكتير وسوقي يبتدي ينزل وييجي يوم يبقى ماليش سعر خالص.. أبقى رميَّة يا صفية..

.. وراحت عبير تبكي بحُرقة فأخذتها في حضني ورحتُ أربت عليها حتى نامت على صدري، بعدها خرجت من بيتها وأنا حزينة على صديقتي..

****

.. وبعد هذا اليوم مع صديقتي هرولت إلى ترام الرمل لأذهب إلى هشام دون أن أخبره بقدومي، ولمّا وصلت إلى بيته قال مندهشًا:

- ياه.. فيه أيه؟!!
- قلت آجي فجأة يمكن ألاقيك مع واحدة.
- ولو لقيتي؟
- أموِّتك يا هشام.
- والله.. كده بتسعديني قد كده بتحبيني.
- أنا باعشقك بس.. عايزاك ليَّ وحدي..
- خلاص اتفقنا..
- قوليِّ إنتَ عايزني أعملَّك أيه الليلة؟
- عايزك ترقصي.. طلبت منك كتير بتقولي باتكسف..
- دلع منِّي هوَّ إنت عايزني أدِّيك كل اللـيِّ تطلبه مرَّة واحدة؟! لازم أترسم عليك واحدة واحدة.. دا شُغل ستات بقى.
- أنا باحوش عنِّك حاجة؟
- أبدًا بقى عليَّ كام؟
- ماتقوليش كده ولا ملِّيم.
- كنت عايزة منَّك فلوس النهارده.. كده أتكسف أطلب.
- عايزة كام؟
- تلاتة..
- لأ أربعة.. بس باقولِّك أيه.. وسكت..
- قول سكت ليه؟
- اشتغلي معايا في المصنع.

- هاعمل أيه؟
- بكفاية تشرفي على العمال.
- هاتدِّيني كام؟
- الليِّ إنت عايزاه.
- لأ قول كام؟
- خمسة كويس.
- المصنع بس؟
- الشغل حاجة وانت معايا حاجة تانية.
- المشكلة دلوقت المشوار.. مش هاقدر كل يوم أروَّح وآجي الصبح.
- هاوضبِّ شقة في العمارة التانية تبقى خاصة بيكِ..
- ليه ماتخلِّيني معاك.
- مش هايبقى ليك طعم ونزهق من بعض زي المتجوزين..
- عايز تبقى براحتك؟
- أبدًا.. هنا باقابل ناس برضه رجالَّة بخصوص الشغل ماينفعش يبقى حد تاني موجود معايا..
- بتقابل ستَّات غيري..
- علشان الشُغل برضه وتبقى على حريتك في بيت لوحدك.
- إتفقنا يا هشام.. بس أنا عايزة أروَّح النهارده بعد ما أرقص وأبسطك.
- خدي الفلوس وروَّحي إقضي مصالحك وهاتِ هدومك وتعالي.
- جهِّز الشقة الأول..

- الشقة جاهزة مجرَّد واحدة تيجي تنضفَّها وفيها الفرش وكل حاجة..
- كده حلو قوي.. بالكتير يومين أرتِّب حالي وآجي يا هشام.
- قومي أرقصي بقى.. هاتي على الآخر يا صفية.
- إنت كل حاجة في حياتي هاعملَّك البدع.

****

"وتمنح صفية المال أجر جسدها لنور ليشتري عربة"

.. في هذه الليلة عُدتُ إلى بيتي في الحادية عشرة قبل منتصف الليل، وبدأتُ أتهيأ لعملي الجديد، وقبل أن أنتهي من حَّمامي الساخن دق جرس الهاتف ثلاث مرَّات، وبعدها بدقائق كان نداء المحمول الذي لم يسكت حتى خرجت فوجدت رقم نور خمس دقاَّت متتالية، وأكملتُ ارتداء ملابسي في الصالة وارتديت ملابس شفافة تظهر ملامح جسدي رغم أنني سأطلب نور لأنقده المبلغ، وشعرت من هذه الليلة بعد عودتي أنني امرأة تخلَّت عن الخجل غير مبالية بزوج أمي الشاب أن يراني عارية، ولأنني أتوق لإغرائه وليقارن بيني وبين أمي، سوف أقرأ عينيه لأرى، وهاتفته:

- آلو.. تعالَ يا نور خد الفلوس.
- والله ربِّنا يخليكِ.
- ماتعملش تكليف تعالَ بسرعة.
- حاضر دقايق..

.. واربتُ الباب وعُدت إلى غرفتي أسرِّح شعري وأنثره فوق كتفي، سوَّيت حاجبي ومسحت رموش عيني بقطنة، وأعدتُ طلاء شفتي، وداخلني شعورًا بتحدي أمي ولماذا لا أوقع بزوجها لأنتقم منها، وهل أعطه المال بمقابل؟ ولاَّ عيب..

.. ولأفعل قليلًا في إغرائه فإذا جذبه شبابي وجمالي فليكن أي شيء فلم تنفعني أمي بشيء ولا أحدًا من إخوتي عندما غاب زوجي عني أو حتى وهو معي، ولمّا كنتُ أشكو حالي لأي منهم لم يكن يسمعني ولا يشعر بحالي.. وجلستُ على مقعد أسيوطي من جهاز أمي القديم وهو ما تبقى من الطقم الذي كان أبي دائمًا حتى مات حريصا أن تظل قطعة واحدة سليمة من جهاز زواجه، كان المقعد متينًا وثيرًا فلما ارتميت عليه بجسدي ووضعت ساقًا فوق أخرى شعرتُ بأنني أتمدَّد على مقعد تحت مظلة شاطئ البحر، ومما زاد شعوري بأنني أتأمل دخوله من الباب كأن عيني تنظر عبر مدى البحر البعيد فلا أرى حدودًا توقفها، ولمّا طرق الباب ناديته:

- زُق الباب.

.. دفعه وكاد يقع وهو يدخل متلهفًا كالذي كاد يغرق من شدة حاجته إلى النجاة من موج الحياة الذي يضرب الناس حتى يصلوا لنيل لقمة عيش، لكن جسدي العاري والذي تقدِّمه ساقي لزائر بيتي عقد لسانه وغيرَّ ما كان سينطق به من كلمات شكر فقال شيئًا آخر، والذي ينطق به أي رجل يرى امرأة فاتنة تعرَّى جسدها فجأة:

- يا خرابي معقولة.. إنتِ بالجمال ده!!
- أنا.. ولاَّ مراتك؟
- مراتي مين؟
- أمي..
- أمك مين!! ولا أي واحدة في إسكندرية كلِّها.
- أقعد.. أقعد يا نور.. عجَبتك؟
- هأقعد بس ليه كده.

- بس أيه؟
- دلوقتي عرفت إنِّي مش عايش..
- على فكرة أنا جسمي زي ماما وهيَّ صغيرة، مفيش فرق قوي دلوقت.
- لأ.. فيه فرق كبير بين السما والأرض..
- إحنا عايشين فين؟
- في الأرض..
- فاكر أول ما سكنت في بيتنا نزلت تحت علشان أشوفك..
- كنت لابسه بنطلون محزَّق قوي..
- حسيت بيَّ شُفت عيني ليلتها قالت أيه؟
- شُفت..
- وأيه فايدة شوفك.. حصل أيه بعد كده.. رُوحت لأمي.. ساعتها كرهت الدنيا كلِّها لمّا نزلت في ليلة لقيت أمي معاك في السرير..
- لو أي حد غيري ماكنش يقدر يفر من أمك.. على فكرة دي أول مرَّة في حياتي أشوف ست عريانة، أمك نزلت السوق مخصوص علشان تشتري أطقم داخلية مثيرة علشان توقعَّني مرَّة واحدة.. إنت عارفة الإنسان الليِّ محروم من اللحمة لمّا يلاقي اللحمة يعمل أيه.. أنا بصراحة اتجننت لمّا دخلت عليَّ أمك.. حسيت بأني مش عارف أعمل أيه وغرقت معاها من يومها.. هيَّ كانت محرومة قوي..
- وأنت يعني كنت أيه؟
- أول ست أعرفها في حياتي.
- ومن يومها نسيت البنطلون والليِّ كان في عيني ليلتها.

- نسيت أمي وأبويا.. يا ست هيَّ كانت معايا طول النهار والليل وإنتِ فوق أجيبك إزَّاي.. وأناوش عرَّفني إنك كنت عايزاني..
- ليك حق.. تعرف من ساعة الليلة دي كرهت الدنيا كلِّها وزاد كُرهي للدنيا لمّا لقيت نفسي متجوزة واحد نطع ومع ذلك صِبرت.
- ليه ماكلمتنيش في المحمول..
- ماكنش معايا نمرتك..
- العيب عليَّ أنا.. ماكنتش أعرف كل ده.
- وصبرت وكان أملي كبير فيك لمّا سكنت مع أمي وقلت أحسن يا بت ما تهجِّي بَّره أهو واحد في البيت وتعملي الليِّ نفسك فيه معاه.. لكن.. وسكتت..
- لكن أيه؟
- إحنا في زمن الليِّ بيطول حاجة يلهفها مفيش يامَّة ارحميني، وعرفت إن أمي بتسكِّن شاب معاها علشان تفك نفسها معاه وهيَّ ماكنتش محتاجة فلوس..
- مش كل الليِّ نفسنا فيه بيتحقَّق وبعدين عملتِ أيه؟
- دي حكاية طويلة مالكش دعوة بيها.
- مقدَّر لواحد زيِّي إنِّي أعرفكم وأكون واحد منكم..
- أمي هاتتوغوش عليك.. اتأخَّرت عليها.. يا ترى هاتقول أيه؟!
- تقول الليِّ تقوله.
- مش همَّك.. ممكن تبيعها؟!
- لأ دلوقتي ماقدرش بعد ما بقت مراتي.
- شايفاك مبهور بيَّ لو قلت لك تعالى ندخل جوَّة وتجرَّب معايا مرَّة..

- دا تمن الفلوس؟
- اعتبره تجربة مع بنت مراتك.
- لو مشيت في الطريق دا تاني يمكن ربِّنا ينسفني، جرَّبت الزنا مع أمك جالي الفقر وقعدت في البيت وماكنتش لاقي آكل لولا أمك..
- وبعد ما اتجوزتها مش لاقي تاكل من كدَّك برضه؟
- أنا هابتدي أشتغل مع نفسي لمّا تدِّيني الفلوس، ودا هايبقى سلف لازم أردَّهم ليك في أول ما ربِّنا يدِّيني.
- يعني إنت كده توبت توبه نصوحة؟
- يا رب ساعدني على توبتي، ماتزعليش منِّي في أي إساءة حصلت منِّي ليك، والله ماكنش قصدي أسيء ليك لغاية دلوقتي، سامحيني وإذا كنت هاتعملي خير فيَّ اعمليه لوجه الله ورِّبنا أكيد هايكرمك.. وهاتكوني صاحبة فضل عليَّ بعد ربِّنا طبعًا..
- ياه قد كده بقيت صالح!!
- أبدًا والله.. كلمة صالح دي كبيرة عليَّ قوي.. أنا واحد عايز ابتدي من جديد بالحلال.
- يا بخت أمي بيك.
- يا بختي أنا اللِّي لقيت ناس طيبين زيُّكم واقفين معايا من أول ما نزلت إسكندرية..
- هاقوم أجيب الفلوس.
- ربِّنا يخلِّيك.

****

.. قمت إلى دولابي وعدِّيت ألفين جنيه ووضعتها في ظرف وانقلبت إليه وأنا مازلت عارية الجسد فجال بعينيه خاشعًا إلى الأرض متجنبًا النظر إلى فجوري، ومددت يدي بالفلوس فأخذها بأصابع مرتعشة ثم وقفَ قائلًا:

- جميلك عمري ما أنساه وزي ما قلت لك في أول فرج هاسدِّدهم..
- لأ مش عايزة الفلوس دي.
- إزَّاي مش تعبك دا كفاية وقوفك جنبي.
- أنا ماتعبتش فيهم..
- بس السلف سلف.
- خلاص بقى ماتدوشنيش.. يالَّه انزل لمراتك.
- هادعيلك ليل ونهار.. سلام عليكم..
- ربِّنا يسهل لك يا نور..

.. تركني والحقد يملأ قلبي حسدًا على امرأة عجوز أصبح لها زوج مثل نور، وهل يستمر نور هائمًا في حياته معها بلا معنى؟! ولماذا لا يتزوج من فتاة أو سيدة صغيرة تلد له ابنًا؟! وهل يرضى شاب أن يضيِّع عمره بلا عائد مع امرأة مثلها لا تلد؟! ماذا يجري حولي؟!!...

****

"بَّياع في شوارع المنشية أحسن بكتير من مهندس عاطل"

.. كانت الأمواج في هذا اليوم صاخبة والريح الآتية من البحر تمرق بين البنايات وتكاد تكسِّر أي شيء يعترضها، وكان السوق الذي يقع في منتصف الحي قرب ميدان

الفواعلية قد هبَّت عليه بقايا هذه الزعابيب التي تهرب بقاياها إلى تلك الشوارع المحيطة بالسوق، وكان كل بائع يهرب خلف أكوام بضاعته، ولمّا دخل نور يدفع عربته وسط هؤلاء التجار باحثًا عن مكان يقف فيه كانت كل الأنظار من كل جانب ترقبه فلمّا توقف في زاوية بعيدة قريبة من الأقفاص المرصوصة في شكل سور يحجز بين صاحبها وبوفيه للشاي زعق فيه صاحب الأقفاص:

- على فين يا جدع إنتَ؟!
- هاقف بعربيتي هنا.. فيه حاجة؟
- طبعًا فيه حاجات.. إنتَ كده بتزنَّق عليَّ.. أيه اللي جابك السوق من أصله تدخله بلا إذن هوَّ احنا هنا في فوضى؟! فيه معلِّم للسوق أذَن لك بكده؟!
- يا سيدي هوَّ أنا ضرّيتك بشيء؟! سيبني آكل عيش..
- أيوه ضرَّتني.. أطلع من هنا وروح في حتة تانية.
- طيبِّ بس بالراحة.. هوَّ فين معلِّم السوق؟
- روح دوَّر عليه.

رد صاحب عربة ملاصقة زاعقًا:

- أيه فيه أيه اسمع الكلام وأمشي من هنا بلْوة واتحدفت علينا من الصبح..

.. فغر فاه نور وراح يتلَفَّت يمنةً ويسرةً فإذا بهوجة من أصوات التجار تجأر نحوه:

- هيَّ كلمة واحدة روح في داهية من هنا..
- هوَّ سهل تيجي تقف هنا جرى أيه!!
- روح للمعلم وأمشي أحسن لك يشوف لك داهية بعيد عننا..

ملأه الذعر ودفع عربته في اتجاه باب السوق وهرول إليه رجل يدفع معه العربة ويسلِّك طريقها وهمس في أذنه ناصحًا:

- كويس إنَّك طلعت من هنا سليم وخدتها من قاصرها.
- أنا عايز آكل عيش.. طيِّب أروح فين؟!!
- إسمع إمشي في الشوارع.. يمكن ربِّنا يكرمك أحسن من السوق.
- كتَّر خيرك..
- إمشي من هنا أحسن.. خد يمينك الشوارع واسعة بعيد عن الزحمة..

.. وكلَّما دفع العربة وهرول خلفها بعيدًا عن الزحمة كانت الدموع في عينيه قد بدأت تسيل بغزارة فبدأ يمسحها بكف يده وحاول أن يتماسك لكنه انتحب فأوقف العربة وأمسك بوجهه ومال به نحو الأرض حتى لا يرى أحد دموعه الجارفة، وفجأة نادت عليه سيدة من فراندة شقتها بالطابق الثاني من عمارة قديمة:

- إنت يا.. خد الورقة من السبَت وهات الحاجات الليِّ فيها.

.. هرول نحو صوتها وأمسك بيد السَّبت وأخذ الورقة بيده المرتعشة واندفع إلى عربته وراح يزن البطاطس والخيار والطماطم والبصل و.. و.. و..

.. طلبية كبيرة ملأت السبت ثلاثة مرات ولمّا انتهت السيدة من سحب طلبيتها قالت:

- كام؟
- تمانين بس خلّي يا ست..
- خمسة وتمانين في السَّبت.
- أي خدمة يا ستي..

.. وكلَّما مرَّ بشارع دخل فيه حتى منتصفه وراح ينادي:

- الخضار الطازة.. يا مجنونة يا طماطم الأربعة كيلو بخمسة.

نزلت إليه سيدَّات من بيوتهن وجاءه بوابين وعمَّال في مطاعم فول وكشري حتى أذَّن الظهر فدخل وصلَّى في زاوية وترك عربته حرسها بواب عمارة إنسانية لمّا وجده يتركها للصلاة فقال له:

- طالما رايح تصلِّي روح حاجتك في أمان.

وشكره نور كثيرًا لمّا رجع إلى بضاعته.. وتابع سيره حتى اقتربت ساعة العصر وتبقى بضاعة قليلة فقصد شوارع أخرى في العودة حتى وصل إلى بيته وهو في منتهى السعادة وجرَّج العربة في مدخل البيت وربطها بحبل في ماسورة المياه وقفل الباب وصعد الدرج ولمّا طرق الباب علا بصوته:

- يا أمينة.. يا أمينة افتحي..

فتحت له مبتهجة قائلة:

- تعال يا خُضري يا أجمل خُضري في إسكندرية عملت أيه؟ كرمك ربِّنا؟

وقعد على أول كرسي متهدِّج الأنفاس وطفق:

- الحمد لله.. تصوَّري بعت كل الخضار.
- والله.. الله أكبر ربِّنا هايكرمك.. وقابلت حد ضايقك؟
- ياه قابلت كتير ضايقني لو بصيِّت للمضايقة ماكنتش هاشتغل.. استعنت على الشقا بالله.. عيَّطت وحزنت لكن لمّا طلعت من سوق العصبجية ومشيت في الشوارع ربِّنا كرمني وابتديت أفرح قوي وكل ما امشي شوية في الشوارع أبيع وأقابل ناس حلوة وناس نص نص وناس..
- وأيه الليِّ فرَّحك؟

- طيب الأول الحقيني بكوباية مية.

وقامت من جواره وأتت له بكوب عصير جوافة من الثلاجة واقتربت منه قائلة:

- خد يا حبيبي بل ريقك.. دانت النهارده عايز ديك رومي.

- يا ستي بس إحنا ناكل عيش وجبنة وفجل من حلال.. دي شغلانة حلوة قوي..

وأمسكته من يده حتى وصلت بأصابعها إلى كف يده وانحنت في حجره تقبل يده حتى نامت برأسها في حجره.. وتهدَّجت بكلماتها الداعية:

- الله ينصرك.. طول النهار بادعيلك ورجعت لي مجبور الخاطر بكفاية عليَّ كده، آدي إنت طلعت وربِّنا كرمك علشان كنت زعلان قوي من قعادك في البيت..

ورفعت رأسها من حجره بعد أن أشبعت كفَّه بقبلاتها وانعدلت في قعدتها وقالت:

- شوف بقه اللي يعتمد على الحكومة أو حتى على الناس علشان ياكل عيش هايجيله الفقر من بدري.. وكان لازم على الناس كلِّها اللي زيِّنا مالهمش حد يطلعوا للشوارع زي ما انت عملت كده.

- بس الموضوع ده محتاج لشجاعة يا ريتني خدتها من بدري وماكنتش إتعلِّمت خالص وبقيت معلِّم في السوق كان زماني بنيت عمارة.

- معلهش الندم مش هايفيد دلوقتي.. قل لي بقى عملت أيه تاني وأيه اللي فرَّحك؟

- ستات ورجالة كتير اشتروا وكنت باشوف على وشهم الدهشة.. يعني مثلًا قالوا أيه...

.. معاك أيه؟ وليه اخترت كده؟ معلهش يابني إستحمل إنت زي ناس كتير لازم تعمل كده علشان تعيش.. ياه قد كده بقيت بيَّاع!! إنت واخد الموضوع عادي.. مش شكل البياعين.. دا بنت الباشا تتمناك!! يا خبر أبيض الدنيا وصَّلتك لكده!! دا إنت أمُّور قوي

ليه كده خسارة واحد زيَّك يتبهدل كده.. إنت كده صح مفيش شغل مهندس اشتغل أي حاجة ومش عيب.. حد ليه عندك حاجة إنت كده سيِّد نفسك.. تبقى تعال كل يوم علشان أشتري منك.. مش هاشتري من حد تاني بس ماتغيبش علينا..

- ياه كل ده الناس هرتك كلام؟! وكنت بتقول لهم أيه؟
- ولا حاجة كنت باضحك وابتسم وأقول حاجة واحدة.. مش مشكلة دا شيء عادي جدًّا.. أنا مبسوط كده.. ماحدِّش ليه فضل عليَّ غير ربِّنا.. الحمد لله دا طريق الحلال الوحيد الليِّ لقيته..
- برافو عليك يا نور.
- أنا تعبت قوي من الكلام كفاية كده يا حبيبتي.. إنت طابخة أيه النهارده؟
- عدس وبصل أخضر وجبنة قديمة.. أيه رأيك..
- هوَّ أنا ليَّ رأي هوَّ حد طايل عدس وجبنة.. المهم من حلال والإنسان ياكل اللقمة وهوَّ سعيد.
- إنت سعيد يا نور.
- عمري ما شفت السعادة غير النهارده.
- وأنا أسعد واحدة في الدنيا.. قوم بقى ادخل الحمام خدلك دش وفوق.. ادخل اقلع هدومك وهادخلَّك الفوط والغيار.. قوم يا حبيبي..

****

"الثرثرة لا تفيد وكان عليَّ أن أكون معه في المصنع والبيت"

.. وركبتُ ترام الرمل ومعي حقيبة هدومي وذهبت إلى هشام لأعمل في مصنع المعسل وأقيم في شقة وحدي بعيدًا عن بيتي في المنشية، وشعرت بكثير من الراحة وأنا أطلُّ من

النافذة أتأمَّل البنايات والشوارع والمحطات والناس الذين يركبون معنا وآخرون ينزلون، وكانت تدوِّي في رأسي كدقَّات شاكوش.. أسأل نفسي هل أنا على حق مثل كل الناس المحقِّين في اتخاذ طريقهم بمشيئتهم وليس بمشيئة أحد آخر؟ كنت في هذا اليوم من أول ما خرجت من بيتي قاصدة هذه الحياة بعيدة عن بيتي وحي المنشية وأمي وزوجها، وفي وداعي الطريق من محطة لأخرى ومن أحياء تتلاشى حيًّا بعد آخر أنني أنا الوحيدة التي تتحرك من مكان إلى آخر بمشيئتها وأن كل ما بداخلي قوي لاجتياز هذه الرحلة حتى نهايتها، لست مضطرة لأن أفعل وسوف أحصل على شيء لا أعرفه، أذهب إلى سبيلي بإرادتي مغمضة العينين، أوهب ما أملكه من أجل حياة مقبلة، قوة غريبة تأخذني إلى مجهول يتلقفني؛ فهل أنا محاربة في مجتمع لا يعرف فيه النساء الحرب على أي شيء؟! لكن النساء يذهبن إلى طرق أخرى مغايرة لما يحدث لي.. إنهن جميعا يخفن وغالبيتهن يذهبن إلى منتصف الطريق ثم يتوقفن خيفة من فظاظة الرجل وضعفه في مدينتي إلاَّ قليلًا منهم، لا وقت للحلم ولا لأي رومانسية تخيلَّتها وأنا صغيرة، الحلم والتخيل يموت في أول شارع لواقع الحياة في مدينتي التي تصارع منذ عقود طويلة مضت آثار الهدم المجتمعي لانهيار اقتصاد متهرئ نتيجة قرارات سياسية رعناء، أنا وغيري لا ننتظر من الأمراء الذين سرقوا بالقانون كل شيء، هؤلاء لن يصنعوا للعامة لقمة وهم ملايين في البلاد، كل يختار سبيله مثلي، إنني وغيري لا نذاكر دروسنا كي ندخل الامتحان، ليس في حياتنا أية كتب كي نقرأها، وليس في دنيانا إلاَّ أن ندخل الامتحان دون مذاكرة، وفي داخل الحجرات وخلف الجدران ندفع من أجسادنا كي نحصل على مال يعيننا على العيش، لا أحد يبني للكرامة شيئًا ولا غيري يحافظ على أي شرف، كل مع نفسه، هكذا كانت أنانية شرسة لدى الغني والفقير ولا أحد يعرف غيره

إلاَّ بمقابل، والشرف الذي توفرهُ البلاد لأبنائها أن توجد عملًا مناسبًا لكل رجل وامرأة، وعونًا من المرأة التي تعمل في البيت ناهيك عن كونها أم وزوجة، لماذا يذهب الرجال إلى بلاد أخرى لكي يطعموا بيوتهم، هذه هي المصيبة ومن هنا ضاع الشرف ومنهم شرفي، وخرجت المرأة من بيتها تبحث عن لقمة وعن حياة في تلك الشوارع المظلمة وفي شارع ترام محطة الرمل الذي ذهبت إليه.. تفجر الشوق إلى لقائه وكان يجب أن يأتي إلى جواري في الفراش بعد أن خلعت كل ملابسي وتهيَّأت له، ولكنه لم يفعل وظلَّ يسمعني ويرقبني كأنَّه لا يصدِّق حديثي الذي تطرأ إلى كل شيء موجع في بلادي، وسكت هشام كأنه يصمت إلى ما لا نهاية وحتى انتهي من ثرثرتي.. وقطعت سكوته:

- مالك؟! ماتيجي جنبي.
- هوَّ إنتِ خلِّيتي فيَّ نقطة دم.. حرقتي الروقان الليِّ كان في دماغي لمّا جيتي..
- طيِّب أيه الليِّ حصل؟!
- إنت مش دارية عملتي أيه برغيك ده كإنك مسئولة سياسية في البلد دي.
- إوعى تفكرَّ إن فيه حد في البلد ماعندوش الكلام الليِّ قلته، كل واحد وواحدة في البلد بيقولوا كل اللي قلته، إنتَ عارف الناس كلِّها بتقول أكتر من كده والجميع بيتكلِّم عن الوضع المؤسف ده والليِّ عملوه في البلد، الوجع واحد والألم في قلب الصغيَّر قبل الكبير..
- ممكن تبطَّلي كلام.. إنت ناشطة سياسية ومش واخد بالي.
- هوَّ أنا بقول حاجة!! ليَّ صاحبة اسمها عبير تحكيلك عن البلاوي والمهازل الليِّ بتشوفها.
- عبير بتشتغل أيه؟

- مومس.
- يا نهار اسود كده مرَّة واحدة!!!
- على فكرة عبير بنت ناس قوي وكانت زميلتي في الجامعة.. وهي في الجامعة حصل ليها كده..
- يعني هيَّ مومس من الجامعة؟
- ومن قبل كده كمان.
- تبقى إزَّاي بنت ناس؟
- سيبك دلوقتي من بنت ناس.. عبير بقت فيلسوفة..
- مومس وفيلسوفة تيجي إزَّاي دي؟!!
- إذا كنت عايز الخلاصة والحكاوي إللـيِّ تطلع منها البلد ماشية إزَّاي خُدها من مومس زي عبير..
- وكل المومسات كده؟!!
- طبعًا وعبير واحدة منهم.
- يا ريتني أعرف كل المومسات اللـيِّ في البلد.
- هوَّ أنا مش مكفياك يا وسخ..
- قولي كمان اشتمي باموت في شتيمتك.
- طيب تعال بقى أنا زهقت.
- لمّا أعصابي تستريَّح.. قومي ارقصي شوية.
- بس كده.

****

بعد لقائه حتى صباح اليوم التالي نمت نومًا عميقًا معه ورأسي تحت صدره، ولم أستيقظ إلاَّ بعد أذان العصر، قمت إلى الحمَّام واستحميت ثم صليت الصبح والظهر والعصر كما تعوَّدت، وتركني وذهب إلى عمله ثم عاد في العاشرة مساءً، وكنت قد انتهيتُ من إعداد طعام شهي وغرفته في أطباق ووضعته على الترابيزة بالصالة، بعد الطعام أخذني إلى شقتي القريبة في شارع قُرب البحر، شقة صغيرة لكنها جميلة ونظيفة وبها كل سبل الراَّحة التي وفَّرها فيها، وبعد أن فرَّجني على كل شيء في البيت جلسنا في الصالة بعض الوقت ولمّا كان يهمُّ بالانصراف قال:

- بكره هاجي أخدك أورِّيكِ مصنع المعسل.
- كده على طول هاشتغل؟!
- فيه مانع غيَّرتي كلامك؟ إنتِ حرَّة الليَّ إنتِ عايزاه.
- لأ مارجعتش على اتفاقنا عايزة يبقى ليَّ اعتبار واستقلال في حياتي ومش هاييجي إلاَّ بالشغل.
- آجيلك الساعة كام بكره؟
- هاتسيبني لوحدي إزَّاي؟!
- معلهش استحملي الليلة عندي مشوار ضروري لازم أنزل..
- فيه واحدة مستنياك يا هشام؟
- أكدب عليكِ لو قلت لك مافيش غيرك..
- كده بكل بجاحة.. يعني سايبني ورايح لواحدة؟!
- لأ الليلة هاقابل تاجر.
- تاجر أيه؟

- معسِّل..

****

"أميرة أول حب لبائع الطماطم وكازينو الشاطبي ميلاد جديد"

ولمّا كنت أتجوَّل كثيرًا في الشوارع عرفت بعد مرور شهرين إن هناك أماكن متوسطة الموقع يمكن أن أقف بعربتي على ناصيتها وهذه النواصي يكثر فيها الزبائن، في إحدى التجمعات السكنية هذه اتخذت منها مركزًا دائمًا كبائع خضار، وكان الناس في هذا المكان يتمتعون بقوة شرائية تكفي لبيع بضاعتي كلها قبل عصر كل يوم، وعلمت يومًا بعد آخر أن معظم أهالي هذه الحته يعملون في الميناء والجمرك ومشهورين بالميل الحدِّي للاستهلاك وسيِّدات البيوت فيها وأولادهن وبناتهن حتى خدمهن يشترون بأقل الفصال وبدون مناقشة في سعر الكيلو، وكنت سعيدًا من بعض زبائني اللائي يشترين منِّي ويجرُّون معي حوارًا بلطف وحساسية لم أكن أتوقَّعها حتى أنهن طرحن عليَّ أسئلة تخص حياتي وكأنهن يهدفون إلى شيء في داخلهن من كثرة حواراتهن معي:

- إنت سكندري؟
- لأ.
- عايش مع مين هنا؟
- ساكن مفروش مع واحدة ست.
- ست حلوة؟
- ست عجوز طيبة قوي زي أمي.
- إزَّاي مهندس وبتشتغل بيَّاع؟!
- إنت بتكسب أحسن من مهندس؟ إنت مبسوط كده؟

- إنت متجوِّز؟

وكنت دائمًا أجيب عليهن بكثير من التحفظ، إلاَّ أن واحدة منهن كانت تسألني كثيرًا وتنظر إليَّ نظرة يملأها كثير من الحزن وكان في شرائها معي كل يوم ومكوثها معي طويلًا حتى ولو كانت تشتري كيلو واحد من اليوسفي أشعر أنهاَّ تريد أن تقول شيئًا ولكن بعد أيام طويلة من معرفتي بها وبعد أن عرفت أنني مهندس كانت تأسف لي عما أنا فيه.. وكنت دائمًا أقول لها:

- لا عيب ولا حاجة.. مهندس مفيش شُغل.. ماعيب إلاَّ العيب.. بكفاية أنا حر نفسي وباكسب ودخلي في الشهر أحسن من مهندس خبرته عشر سنين..

.. وكانت هذه أميرة سيدة مطلَّقة منذ خمس سنين بدون أبناء، جميلة رشيقة شيك، من هذا الجمال المهذَّب المتحفِّظ والتي كانت تداريه بملابس حشمة وحجاب في منتهى الأناقة، وفي يوم أهدتني قبعَّة لأرتديها فوق رأسي فقبلتها منها، وكان رأيها أن ارتدائي لهذا الغطاء سيعطيني شهرة أكبر وتزداد مبيعاتي من تزاحم الزبائن الذين يأتون من كل شارع ليشتروا من بائع الخضار صاحب القبعة، واقتنعت بفكرتها وزادتني القبَّعة شهرة وإعجابًا من كافة الزبائن نساءً ورجالًا.. ولمّا مرَّت الأيام بمعرفتي بها طلبت منِّي في يوم أن تقابلني في مكان بعيد عن الحي، وقبلت دعوتها ولم تكن أميرة تعرف عن زواجي من العجوز وعلاقتي بها قبل ذلك، وكنت أريد أن أحكي لها كل شيء، لكن ما منعني هو خوفي من أن أفقدها وتذهب بعيدًا عني عندما تعرف زواجي من هذه العجوز، وكان عليَّ في كل الأحوال أن لا أفضي لها بعلاقتي مع هذه السيدة قبل ارتباطي بها، واستحوذت أميرة على تفكيري وأصبحت جزءًا من لقاءاتي اليومية وأنا أبيع حتى أنها كانت في كثير من الأيام تساعدني في بيع البضاعة بكل سرور، وكنت ألتقي

بها في كازينو مشهور بالشاطبي أتبادل معها حديث الحب والعواطف وفي يوم كانت فيه قد قررَّت شيئًا عميقًا في داخلها فبادرتني:

- إنت مستعد تتجوِّز من إسكندرية؟
- ليه لأ.
- فيه ناس كتير من مصر وفي المحافظات بيخافوا يتجوزوا سكندرية.
- ليه.. دي ناس عبيطة.
- يعني إنت مش عبيط يا نور؟
- أبدًا..
- مستعد تتجوز من واحدة اتجوزت قبل كده؟
- إذا كنت باحبها وبتحبِّني أيه المانع! أهم حاجة الحب بس مين يعرفه.
- فعلًا إنت قلت كلمة حلوة قوي.
- إنت اتطلقتي ليه؟
- من العيشة.. مرتبه مابيكفيش لنص الشهر.
- بس ده مش سبب، كل الناس والشباب في البلد مابيكفيش دخلهم العيشة.. لو كان دا السبب كان كل الناس اتطلَّقت!
- والله يا نور مش السبب الوحيد.
- فيه أسباب تانية؟
- شوف الفقر مش عيب والكفاح عند كل الناس في أي حته في مصر أصبح صفة وحاجة عند كل الناس، لكن تبقى فقير وأخلاقك وحشة مابتعرفشي تتعامل مع زوجتك أقرب الناس ليك.. دي المشكلة الكبيرة..

- الفقير تغنيه أخلاقه والمفروض الفقير يبقى أقرب إلى الدين من الغني يعني تبقى معاملاته وكلامه في منتهى الأدب لأن ده رأس ماله الوحيد..
- تقول لمين يا نور.. لدرجة إنيِّ في يوم كنت عايزة أجيب ميكروفون وأقف في ميدان الرمل وأقول يا ناس ياهوه اسمعوني..
- وطبعًا ماعملتيش كده؟
- لو عملت الناس هاتقول عليَّ مجنونة، لكن والله ليَّ زميلات وصديقات كتير اتجوزوا وبعد سنة واحدة تم الطلاق، وكل واحدة من دول مشكلتها مشكلتي.. دا غير.. وسكتت..
- دا غير أيه؟
- بلاش يا نور كفاية كده ماتكسفنيش..
- لأ والله قوليِّ هوَّ إحنا هانتكسف من بعض.. أحلِّفك تقولي..
- شوف هاقولَّك بطريقة تانية.. الراجل في البلد للأسف مابيعرفش يتعامل مع زوجته في الفراش.. على فكرة أجيب من الآخر الواحدة بتتجوز علشان تعيش براجل يحميها ويدَّيها الليِّ عايزاه ومن الأساسيات في الدنيا دي المعاملة الجميلة، بعد المعاملة والذوق والكلام الحلو ييجي الجنس.. لمّا تبقى الواحدة مننا بتتصدم من كل حاجة لا أكل ولا فلوس ولا معاملة.. أقول أيه يا نور.. ولا.. ولا.. تبقى مصيبة وحطت على كل بنت اتجوزت ومايكونش فيه بعد كده إلاَّ الطلاق طول مفيش حاجة بتتحقَّق..
- إنت قلت كل حاجة بس هيَّ المشكلة الراجل مننا معذور برضه.
- يبقى مايتجوزش.

- دا حكم قاسي جدًّا.. الناس لازم تجرَّب وتحاول تعيش..
- يعني الرجالَّة تبهدل البنات والستات وتقوليِّ تجرَّب، الشاب الليِّ مش قد التجربة مايتجوزش..
- على فِكرة الرجالَّة دي غلبانة قوي يمكن من الهم والفقر بتموت كل حاجة فيه.
- إنت دخلتني في حاجة تانية خالص.. إسمع يا نور خلِّينا بعيد عن مشاكل الناس خلِّينا في حالنا.
- على فكرة دا حال كل الشباب والناس.. إحنا طلعنا من الجامعة مالقناش حاجة خالص.. يعني أنا جيت من عابدين إلى إسكندرية ليه، مالقيتش حاجة في القاهرة ودُخت السبع دوخات، إنتِ عارفة جابني أيه.. جابني إعلان معمول بطريقة مغرية جيت إسكندرية ومن ساعتها رجعت مصر مرتين في موت أبويا مرَّة وموت أمي مرَّة..
- ولمّا الدنيا لطَّشت معاك كده في إسكندرية مارجعتش مصر ليه؟
- هافضل رايح جاي بقى هنا زي هناك وبرضه لقيت نفسي أحسن على الأقل لمّا اشتغلت بيَّاع في إسكندرية عارفني..
- وأيه كمان الليِّ ربطك في إسكندرية؟
- الحياة كانت رخيصة عليَّ من مصر.
- أبدًا الحياة هنا أغلى من مصر متهيألك..
- أبدًا أنا عشت في البيت ده.. سكن وأكل وشُرب وغسيل هدوم كل ده بألف جنيه.
- إزَّاي الكلام ده؟!.. معقولة؟!! تبقى بتاكل عيش حاف.
- أبدًا والله الست بتأكلَّني أحسن أكل من يوم ما سكنت في بيتها..

- لأ بقى الموضوع فيه سر.. هيَّ الست صغيَّرة يا نور؟ حلوة؟ بالله عليك قولِّلي..
- ست فوق الستين بس مش وحشة.. هيَّ في الآخر ست.
- مش فاهمة.. يعني أيه كلامك.
- مش نقوم نمشي الساعة عشرة بالليل.
- إنت بتهرب يا نور قولِّلي كل حاجة ريِّحني.. أنا قلت لك كل حاجة في حياتي ولازم تقولِّلي.. يا نور.. أنا.. أنا..
- إنت أيه يا أميرة.
- لسه لغاية دلوقت مش عارف الليِّ فيَّه.. أنا بحبك يا نور.. بحبَّك قد العالم.. شايف البحر.. بحبَّك قد البحر..

وأمسكتها من يدها إلى خارج الكازينو وكانت تسند برأسها فوق كتفي وتترنَّح يمنةً ويسرةً فأمسكتها من وسطها في شوق فتهدَّجت قائلة:

- خدني.. خدني في أي حته.. بعيد عن الدنيا دي.. أنا عايزاك يا نور.. خدني في أي مكان ماتسيبنيش الليلة..
- عايز آخدك نفس شعوري وحاجتي ليكِ.. أنا زيِّك بالضبط وأكتر..
- أقولَّك أيه أكتر من كده..
- والله يا حبيبتي لو كان ليَّ بيت في إسكندرية عمري ما كنت هاسيبك الليلة..
- تعال معايا..
- إزَّاي وماما.

وراحت أميرة تبكي بصوت مسموع ولم تهدأ فأخذتها في أحضاني فارتكنت بجسدها فوق سور البحر.. وضممتها بجسدي ورفعت وجهها لأعلى فإذا بها تسقط من أحضاني فجأة وتقع على سور البحر وقالت ومازالت الدموع تسيل من مقلتيها:

- ماينفعش ننزل البحر؟
- نموت.
- نموت سوا.
- طيب يألّه نمشي.
- هاتودِّيني فين؟
- أروَّحك.
- هاتيجي معايا؟
- طبعًا لأ علشان ماما..
- والحل أيه؟ عايزاك يا نور ماتسيبنيش.
- معلهش.. تعالي على نفسك.. قومي.
- آه يا نور آه.. تعرف لمّا خدِّتني في حضنك حسيت بأيه..
- بأيه.
- كأنِّي باحضن الدنيا كلِّها.. لأول مرَّة في حياتي أحس براجل.. اتجوزني يا نور.
- من بكرة لو عايزة.
- بتتكلِّم جد؟!
- هوَّ أنا أطول واحدة زيِّك بنت ناس.. ماتنسيش إني بياع طماطم.
- ليه بتقول كده؟

- مش هيَّ دي الحقيقة.
- والحقيقة إنك مهندس ولو كنت بيَّاع طماطم.. المهم إنت راجل دا كل الستات اليومين دولت عايزين راجل زيَّك..

وراحت تهدأ لمّا جلست إلى جوارها فوق سور الشاطبي وكنت أقبِّل يدها قبلات لا تنتهي وأهمس:

- شوفي أنا بحبك قد أيه؟
- يا ريت يا نور.. بموت فيك وبس.
- طيِّب نقوم بقى ناس كتير بتبص علينا..
- يلعن أبوهم كلُّهم.. الناس دي عملت أيه لمّا كنت بانزل الشوارع وأتوه فيها.. تعرف عيبنا أيه يا نور؟
- أيه؟
- الناس بتتكلِّم.. الناس بتبص.. الناس والناس لمّا اتخرب بيوت الناس كلِّها.
- هيَّ بلدنا كده.
- مانقدرش نغيرَّ فيها.
- لمّا الناس تتغيِّر.
- هاتيجي بكرة صحيح؟
- كلمة راجل أنا عارف البيت.
- إنت كده هاتبقى أحسن راجل في الدنيا.
- بكفاية عليَّ كده.
- وهانتجوِّز بسرعة.

- زي ما انتِ عايزة.
- مش عايزة أكتر من الجواز..
- لمّا نتجوِّز هانكون أول ناس تغيرَّ حاجة في البلد.
- يا ريت الناس تعمل حاجة كويسة علشان الدنيا تفك شوية وتتحل العقد..
- تعالي بقى نقوم.
- خد إيدي.
- .. تاكسي.. تاكسي.. شارع المنارة بالمنشية..

****

"كنت بوهيمية لكن بموت في الفلسفة وذهبت إلى مصنع المعسِّل"

صعب عليَّ نفسي أن أكون وحدي في هذه الشقة عند هذا الرجل، لكن ما جعلني في هذا المصير أن الذي كانت فيه حياتي أشياء صعبة لا تحتمل، لم أكن بريئة في يوم حتى تلك أيام الدراسة في كلية الحقوق كانت عبير تغويني أن أذهب معها إلى الشقق المفروشة، وعندما كانت تحكي عن تفاصيل لقائها بالرجال من مختلف الأعمار كنت جد صاغية، أريد أن أذهب معها فأنا في حاجة إلى المتعة التي تصبو إليها أي فتاة جميلة مثلي لكنِّي كنت أخاف من أمي وأبي، ولمّا تمت خطبتي إلى عبد الشكور شكرت قدري بهذا القريب ورحت أحلم بيوم زواجي منه، الخوف والحلم في حياتي لم يوصِّلاني إلى شيء، وليس هناك في الدنيا من يعرف ما تداريه الأقدار، مات أبي وكان رجلًا طيبًا، ترك لنا بيتًا نعيش خلف جدرانه، ولولا أنه كان يعمل في الجمرك ما استطاع شراء هذا المنزل، اشتراه من الإكراميات التي كان يحصل عليها في عمله، ولم أكن أدري بعد

موته أن أمي لها طموحات وأنها في حاجة إلى رجل يروي حرمانها طيلة حياتها مع أبي، فلم أنس في يوم قالت لي في لحظات فضفضة:

- أبوك غلبان في الحاجات دي.. والله يا بنتي هلكش بلكش والسلام.
- مش فاهمة يامَّه.
- بكرة تفهمي وتكبري وتخلَّصي جامعة.. لمّا تتجوزي عبد الشكور..

.. فهمت من يومها ما تقصده أمي وصبرت على حاجتي إلى رجل يكسرُّ ضلوعي وترددتُّ في الذهاب مع عبير، وانتظرت كل هذه السنين حتى تزوجت من عبد الشكور، حوَّلني زواجي هذا من بنت إلى سيدة، أتاري عبد الشكور ضايع مثل بعض الرجال ضعيفي الأعصاب فإذا أتاني تقع أحماله في أول الطريق، كالحمار الذي تقع منه نقلة الرتش قبل أن يصل إلى الزريبة، وصبرت على زوجي وفي الآخر لم أحصل على بلْغة متعة، ودفعني ذلك أن أخرج مشتاقة لمعرفة رجل يشعرني بحياتي كأنثى، إن الرجال في بلادي يذهبون إلى بلاد أخرى لكي يرسلوا النقود إلى أسرهم أو زوجاتهم ليعيشوا، وسألت نفسي كثيرًا: لماذا لا يوفِّر المسئولون لقمة العيش في داخل البلاد حتى لا يذهب الرجال إلى بلاد غريبة ويتركون نساءهم يتهِن كما أقبلت أنا على التيه، السِّت تصبر وتصبر على ما ييجي جوزها يدِّيها الحب والمتعة.. يِّديها جرعة من الدواء تسكن ضلوعها من رجل قادر على ري ما بها من شوق، وكانت المشكلة عندي مشكلتين؛ أن زوجي مثل كل الأزواج يسافر ليوفِّر لي أسباب الحياة.. لكنه عندما يعود فهو ظِل رجل لا يمنحني أي شيء.. لا عواطف ولا مشاعر ولا أحاسيس ولا تكسير ضلوع، السِّت بتبقى على نار ومستنية جوزها لمّا يرجع علشان يطفِّي النار، أنا بقى أيها السادة جوزي موجود مش موجود أنا ضايعة.. جائعة.. محرومة.. أشتاق إلى رجل.. ولم يُوصلني حلم أو خوف

إلى أدنى شيء، وكان الواقع المفزع أمي التي أجرَّت غرفة في شقتها لمغترب وعندما نزلتُ في تلك الليلة أجد أمي في أحضان الساكن الشاب، أمي بعد الستين عامًا ولها ثلاثة أبناء تصبح عاشقة.. وأنا التي لم تصل بعد إلى نهاية العقد الرابع من عمرها.. أنا الآن لست آنسة ولست زوجة وليس لي أبناء.. من أين يأتي الأبناء، فقدت كل شيء وكان لابد لي من الخروج.. لم أدرِ بنفسي عندما ركبت ترام الرمل.. وكنت مندفعة طائشة.. وأنا أهيم بوجهي في كورنيش رشدي لمّا أخذني سمير الذي سافر إلى فينا ولم يعد.. وحتى الآن لا أدري بنفسي.. أنا امرأة في الحياة وحدي بلا أب وأم بلا أخ بلا زوج.. أنا امرأة وحيدة تعيش تلك الحياة الصاخبة.. أنا مش مومس زي عبير.. هوَّ أنا أيه.. أنا أذهب إلى الرجال بكيفي.. وهشام هو الرجل الوحيد الذي وجدته في طريقي، وفي داخل نفسي أحاسيس متضاربة وغريبة، ولا أعرف ماذا أريد بعد من رجال غير هشام.. ألم يكن هذا الرجل هو ما أريده، يكسِّر ضلوعي ويأويني في بيته هذا، أشرب معه الحشيش وآخد منه أي فلوس أطلبها، وها أنا ذا أذهب معه إلى مصنع المعسل لأحصل على وظيفة دائمة هناك..

****

.. لم أكن أعرف دهاليز حي أبي قير، فما كنت أتصوَّر أن هناك شبه جزيرة في البحر ليست بعيدة عن الشاطئ، ركبتُ أنا وهشام مركبًا صغيرة أخذتنا إلى هذه الصفحة من الرمال والصخور الثابتة وسط المياه والتي تتكسر أمواجها كلَّما نطحت صخور هذه الجزيرة، نزلنا من القاطرة البحرية التي تدور بالسولار والتي انقلبت إلى شاطئ الحي لتأتي بأي أحد آخر له نشاط مع أهل هذه الجزيرة بناءً على تعليمات وأوامر من هشام.. ولم أكن أحلم أنني سوف أركب حمارًا في أي يوم، وحملني إلى ظهر الدابة وامتطى هو

حمارًا آخر، وكانت كل دابة يصحبها حَّمارًا ويمسك بحبل مخطَمها إلى طريق الجبل الذي ينسحب بين صخور ضخمة حتى لا يضلُّ الحمار طريقه إلى القرية التي يقع فيها المصنع، كانت المسافة بعيدة.. طلعت الدابة الطريق ونزلت منه ما يزيد عن عشرة مرَّات، وهو يقول خلفي لحماره:

- حا.. حا.. قرَّبنا يا صفية ماتزهقيش.
- أنا خايفة.. خايفة إحنا رايحين فين..
- المصنع.. كان لازم يكون بعيد في الناحية دي.
- وليه ماكانش في البلد؟
- علشان الريحة ماتأذيش الناس.
- المعسل موجود في الدنيا كلها ومالوش ريحة.
- لزوم المعسل والدراية والمعيز.. أصل زرايب المعيز هنا من زمن.. من يوم ما اتولدنا والحتة دي مشهورة بالزرايب..
- قرَّبنا ولاَّ لسه بدري؟
- في النزلة الجاية.
- ولا الجن الأزرق يقدر ييجي هنا..
- هوَّ دا المطلوب وعلشان كده عملت المصنع فيها..

.. شملني الإجهاد عندما نزلت من فوق الحمار والذي عاد به صاحبه إلى شاطئ الجزيرة ليأتي بركاَّب آخرين..

.. وأخذني هشام من يدي حيث طريقًا ممهدًا يؤدي إلى مساكن العاملين في المصنع وزرايب المعيز وزراعات الدراية..

.. خيام وأكواخ بنيت من الطين وعشش جدرانها من البوص وسقوفها من صفيح، وكانت أصوات نساء وصريخ أطفال تنبعث من تلك البيوت كأنَّ مساكين يعيشون فيها، ومشينا قليلًا حتى دخلنا في ممر يؤدي إلى زريبة تمتلئ بالمعيز وأكوام من الدراية الخضراء، اندهشت وأصابني ما أراه من غرابة وكنت أزفر من رائحة الغنم.. تفو.. تفوه.. أيه ده!! ياخرابي.. هذه حياة!! هل أتى بهم من الغجر ولاَّ جابوهم منين؟!! وليه المعيز الكتير والدراية والغُلب على الوشوش!! الخِلقة كلَّها شبه بعضها، وسرت معه مستسلمة حتى وصلنا إلى خيمة كبيرة فتح مدخلها ولد صغير، ومثل جندي دقَّ قدمه بالأرض وضرب تعظيم سلام زاعقًا:

- السلام.. كررَّها مرتان ثم.. ورحمة الله..

وأفسح لنا ورجع إلى الوراء خطوة وطفق وهو يحني رأسه:

- شاي ولاَّ فطور الأول يا باشا؟

إلاَّ أن هشام لم يرد عليه ومدَّ ذراعه إلى داخل الخيمة مرحبًا:

- اتفضلِّي.. نوَّرتي البيت.. ثم التفت إلى الغلام آمرًا:

- ابعت أم إبراهيم.

وجلست فوق مرتبة صغيرة خصِّصت ليجلس عليها صاحب المصنع حين يجتمع بمساعديه، وكانت الشمس تضرب في أجناب الخيمة مما أضفى كثيرًا من الدفء في أرجائها.. وكان الوقت بعد الضحى يقترب من الظهر.. وهشام يجلس مقرفصًا في مقابلتي فوق سجادة سميكة مبتسمًا وكلما جلت بنظري في أرجاء الخيمة انفرجت أساريره وقال.. عاجبكِ؟ عاجبكِ؟ فأقول له مشدوهة:

- غصب عني عاجبني.

- يعني مش عاجبك؟
- هوَّ دا كل حاجة؟!! وبعدين هانروح فين؟!!
- لمّا تيجي أم إبراهيم ناكل الأول.

ودخلت علينا سيدة قالت قبل أن تدخل علينا:

- بدستور يا بيه.
- خشيِّ.

انحنت نحوي أولًا ثم انقلبت إليه وهي تنحني أكثر:

- تحت أمرك يا بيه.. فطير ولاَّ مخروطة؟
- فطير وجبنة قديمة.
- عملته من الصبح جاهز لمّا عرفت إنك جاي ومعاك ضيوف.
- شاطرة يا أم إبراهيم.. فيه عسل إسود؟
- وعسل نحل من النحالَّة.. كل الليِّ إنت عايزة موجود.. والتفتت نحوي كي أخبرها بشيء أريده لكنِّي هزِّيت رأسي مجاملةً لأدبها:
- خلاص زي البيه ما قالك.
- أقل من نص ساعة.

وبقيت تنحني حتى خرجت من الخيمة إلا أنه لحقها بقوله عند الباب:

- إبعتي إبراهيم.
- حاضر يا بيه.

.. كنت تعبة فتمددَّت بجسدي وناولني مخدة قائلًا:

- خدي راحتك أغطيِّكِ بملاية؟

- يا ريت.
- لو عايزة تريَّحي خدي راحتك.
- بعد الفطار.. جعت قوي..
- اللي إنتِ عايزاه.

.. تمسمرت عيناي نحو الباب فجاءه إبراهيم وكعادته مثل أمه انحنى:

- تحت أمرك يا بيه.
- ابعت المعلِّم قطة..
- حاضر.

.. ودخلت أم إبراهيم تحمل صينية بها الفطير وأرغفة الخبز الساخنة والعسل الأسود وجبنة قديمة وقشطة وبرطمان عسل نحل، ابتسمت نحو سيدها وهي تضع الفطور أمامي وقالت:

- والله يا سيدي كل حاجة طازة ولسه طالعة من الفرن.
- كويس.. خدي.. وأعطاها ورقة مالية فئة المئة جنيه..
- ربِّنا يخليك يا بيه كلُّه من خيرك..
- الغدا بط وملوخية على المغرب.. لو فيه حاجة ناقصة قولي..
- الزريبة مليانة يا باشا.
- فين الميَّه؟
- ثواني هاجيبها.
- اغسلي الدورق قوي..

.. وجاءه المعلَّم قطة أثناء تناولنا الطعام وضرب للمعلِّم تعظيم سلام وهو يدخل من الباب لكنه لم ينحني وقال:

- تحت أمر الباشا.
- تعال خد لقمة.
- سبقتك من شوية.. أأمر.
- خلَّصت الوجبة؟
- بكرة الضهر تبقى جاهزة للسوق.
- مش فيه يعمل وجبة بعدها؟
- فيه.. بس عايزين عِرْق دهب..
- وأيه كمان؟
- تبقى تعالى شوف وبص على الصنايعية.
- طيب روح هاجي وراك.. سوِّي الأناري قوي..
- مش عايزة كلام يا بيه.. بعد الإذن..

.. رجل قصير تجاوز الستين عامًا عيناه عكرتان متورِّمة ومحياه تقترب من لون أهل الجنوب، قسماته جامدة نحيل الجسد.. وكنت أمعن النظر إلى وجه هشام مندهشة مما يجري حولي لكن التهامي للطعام اللذيذ كانت تسبق أي كلام في نفسي المشدوهة لمعرفة الدنيا والناس في هذه الناحية رغم أنني لم أتجوَّل فيها بعد لأعرف كل شيء فيها، لكنني لمّا تناولت كثيرًا من الطعام قلت له وأنا أضع الماء في الكوب:

- أيه ده يا هشام.. الناس دي كلِّها بتاعتك؟
- بتاعتي من عشر سنين.

- عملت الدنيا دي منين؟
- من السمك..
- والناس جبتهم منين؟
- من كل حتة في البلد..
- الناس الليِّ شفتهمُ كلُّهم شكل بعض.
- من الناس الغلابة جبتهم وعملتهم بني آدمين بعد ما كانوا على باب التشرُّد والضياع..
- هوّ إنتَ مصلح اجتماعي ولاَّ جمعية رعاية؟
- أبدًا أنا أقل واحد في البلد.. بس باحس إنيِّ عملت حاجة للناس وعملت زي مدينة فيها شُغل وبيوت وحياة.. وساعدت كل واحد منهم في حياته..
- عايزة أشوف كل حاجة هنا..
- شوفي براحتك أنا هاروح الفرن وتبقي تعالي هناك لمّا تخلَّصي لف..
- هات حد معايا يورِّيني ويبقى دليلي..
- خدي الواد إبراهيم معاك.. خدي راحتك علشان تعرفي كل حاجة عملتها والليِّ ماحدِّش عمله أنا عملته..
- خلاص يا هشام روح إنت..

****

"أميرة امرأة تبحث عن الحياة الشريفة وماهيتاب ذكرى وحيدة"

في مجتمع يجني على المرأة المطلَّقة بالقول والفعل، ما الذي تستطيع عمله امرأة مثلي غير أن تبحث عن رجل شريف وقالت لأمها بعد أن انصرف نور من بيتهم وتمت قراءة فاتحة الخطوبة:

- أيه رأيك يا ماما؟
- أنا عايزة سعادتك يا بنتي.
- ومش عيب إنه بيشتغل بيأَّع خضار يا ماما؟
- العيب مش عليه.. العيب في حال البلد الليِّ حكم عليه بكده.
- المشكلة دلوقتي أنا كبرت يا ماما وعايزة أخلِّف.
- اتجوزوا يا بنتي..
- ماعندوش شقة وصعب قوي يجيب دلوقتي.. وكام من العمر يفوت لمّا أي شاب يجيب شقة يتجوِّز فيها!
- وليه يا بنتي تنتظري دا كله.. مش هوَّ راجل وأصيل وهايصونك في عينيه..
- هوَّ لغاية دلوقتي أنا شايفاه كويس.
- بكرة يا بنتي يعرفه ربِّنا.. خلاص نتوكلِّ على الله.
- كويس يا ماما بس فين نتجوِّز؟!
- هوَّ أنا مش أم يا بنتي؟!
- إنت أحسن أم في الدنيا.
- وإنت بنتي الوحيدة؟
- أيوه يا ماما.
- إنت معاكِ كام يا بنتي من ميراث أبوكِ؟

- كلُّه خمسين ألف.
- وأنا معايا ستِّين.
- وبتسألي عن الفلوس ليه.
- وهوَّ معاه كام؟
- عايش وبس.. ومامعهش حاجة.
- وعلشان كده باسألك هوَّ أصيل ولا أيه.. يعني لو عملنا فيه جميل يقدَّره؟
- العشرة بتبيِّن يا ماما وإنتِ قلت بكرة مش بتاعنا..
- بكرة بتاع ربِّنا.. ماعندناش غير التوكل على الله.
- كلامك كويس يا ماما..
- شوفي يا أميرة الفلوس الليِّ معانا ماتجيبش شقة كويسة.
- ممكن تجيب في حتت متتيلِّة بنيلة.
- إحنا مش ناقصين أي نيلة نستنى شوية على الشقة وخلي الفلوس في البنك أهي شغالَّة.
- نقعد كام سنة كمان؟! أنا عايزة أحبل يا ماما..
- خلاص فيه حل يا بنتي بس على شرط..
- أيه هوَّ؟
- هوَّ نضيف.. مهذَّب.. بيصلِّي.. مؤدب..
- لمّا بيلبس هدومه بعد الضهر ويخرج بيبقى زي الفل هوَّ برضه خريج جامعة يا ماما..

- مش شرط فيه رجَّالة كتيرة من غير شهادات ونضيفة جدًّا.. المهم هوَّ من جوه نضيف ومحترم وهايقدَّر أي جميل نعمله فيه.. وممكن يكون بيصلي وسلوكه ومعاملاته زي الزفت يبقى احنا عملنا أيه!
- كلامك كويس يا ماما وصح وأنا معاكِ فيه.
- الحمد لله مالكيش أخ ولا أخت.. ماليش غيرك يا بنتي وعايزة سعادتك بس هوَّ راجل مش زي الليِّ فات..
- ماجرَّبتوش يا ماما.
- هيَّ دي المشكلة عمر ما كانت المشكلة دي قبل كده، الرجَّالة في الزمان ده مضروبين، زمان ماكنش فيه راجل مضروب.. إنت إحساسك أيه؟
- والله يا ماما في مرَّة خدني في حضنه.. حسيِّت بيه قوي..
- آه يا بنتي ومش مكسوفة منيِّ.
- أنا صريحة وبقولِّك على الموقف الوحيد الليِّ حصل..
- ماعندناش غير التوكلُّ على الله.
- خلاص نتوكَّل.. بس نتجوِّز فين يا ماما؟
- إنت لسه مافهمتيش يا أميرة..
- فهمت حاجة واحدة إنكِّ عايزة تتأكدي من أصله وإنه راجل.
- هاقولِّك وأيه كمان.. هاتتجوِّزي معايا في الشقة هوَّ أنا ليَّ غيرك..

وارتمت أميرة في حجر أمها تحتضنها بقوة وتقول والدموع تسيل من عينيها بغزارة:

- يا حبيبتي يا ماما.. يا روح قلبي.. ربِّنا يخليكِ.. ربِّنا يخليِّك..

وأخذت الأم تهدئ من روع ابنتها وتربت برقة فوق رأسها وظهرها وتقول:

- يا سلام يا بنتي هوَّ أنا عندي غيرك.. بس يا ريت يطلع راجل يستاهل.
- إن شاء الله يا ماما.. وأخدت تكرِّر إن شاء الله..
- بس لازم نمسكه على قد ما نقدر.
- إزَّاي؟!
- المؤخر زي مانا عايزة وقائمة قد مقامك وعلى الأقل شبكة معقولة قدام الناس.
- الليِّ تعمليه يا ماما..
- هاتيه النهارده أتفق معاه..
- حاضر يا ماما..

****

.. كنت دائمًا أميرة مع نفسي أتعامل مع الواقع ببساطة، كان أبي مثلًا يحتذى به في الواقعية والتواضع أستشيره دائمًا في كل ما يخصُّني من أمور الحياة، خاصةً بعد أن كبرت ودخلت الجامعة، ولمّا مات أبي أذهب إلى أمي لتعطيني نفس النصيحة بواقعيتها وبساطتها، وكان أبي يقول دائمًا: يا ابنتي تعاملي مع الواقع كما يتعامل الآخرون وأضيفي إلى تعاملك دائمًا ألاَّ يضر تصرُّفك أحدًا ولا يسيء إلى المجتمع حولك بأي سوء.. وهكذا انطبعت أمي بنفس طباعه وكنت ثالثتهم، وهذا ما حافظ على كياني حتى بلغتُ زواجي وطلاقي إلى أن تزوجت من نور بيَّاع الخضرة صاحب القبعَّة، وأن آخر ما فكرَّت فيه أن يكون مهندسًا، وكما أفهمني أبي أن الرجل لا يعيبه جيبه ولا نوع عمله، وأن الرجل بصفات الرجل وكيانه وأن يكون صاحب عمل وسلوك أيًا كان نوع العمل، ولم تصنع الشهادات رجلًا، ولقد مات أبي متحسرًا على زواجي من شبح رجل، وكان يواسيني دائمًا.. معلهش يا بنتي ربِّنا هايعوَّضك ويرزقك برجل، وكنت قوية بكلامه

وآرائه وهذا ما كنت أطبقُه في حياتي حيث تسكن في رأسي أفكار أبي الأصيلة التي بها حمتني من كل عواصف الحياة حولي، ولمّا مات أبي الذي أذكره دائمًا بالحب والخير ترك لي ثروة أخرى هي أمي والتي كانت بواقعيتها وبساطتها معي حتى تزوجت من بائع الخضار نور، ومن نعمة ربِّنا عليَّ أن نور إضافة إلى القيم التي أعيش بها أنه مهندس حتى لا يعيِّرني أحد من مجتمعي بشيء، وهل من حقي أعلن أن نور إذا ارتدى ملابس نظيفة وشيك بالإضافة إلى وجهه المليح وطوله الفارع هو شاب ابن ناس يشبه أولاد الذوات.. آي والله، لأن هناك شباب ورجال مهما ارتدوا وتنظفوا وحملوا من شهادات أو جمعوا من مال فإن شكلهم ومظهرهم العام لا يرتقي إلى أن يروق في نظر أي رجل أو أي امرأة، كان نور إذا سرت معه في الشارع شرَّفني بمظهره الأنيق، ولمّا كنت أجلس معه في كازينو الشاطبي كانت تلتفت إليه النساء، قولوا بالله عليكم ماذا أريد بعد، أليست قيم أبي ومعاونة أمي هي التي أوصلتني إلى ما جنيته من سعادة..

.. إلاَّ أنني كأي بنت درست في الجامعة أو في المرحلة الثانوية تعرَّضت كما تتعرض أي فتاة في مراحل حياتها إلى حكاية مع زميلتي ماهيتاب والتي كنت أعتبرها صديقة حميمة، وكانت زميلتي ماهيتاب فائقة الجمال فاتنة الجسد، ولمّا كانت كل منا تحكي مشاعرها وأحاسيسها للأخرى كما تفعل البنات.. في يوم أخذتني إلى بيتها ولم يكن في البيت والداها حيث كانا على سفر.. فقبلت دعوتها.. تناولنا الغداء وشربنا الشاي وذاكرنا قليلًا.. راحت بعدها تتأمل في وجهي وتحتويني بنظرات هائمة وكأنها رجل.. شعرت برعشة في جسدي وكأن ماسًا كهربيًّا مسَّ شعر رأسي، ولمّا شعرت أنني توجست من نظراتها قالت:

- إنت كاشة مني يا أميرة؟

- أبدًا.. أخاف من بنت زيِّي.. إنت بصيِّتي لي بصَّة كإنك راجل عايزني.
- يا ريتك تبقي راجل يا أميرة.
- هابقى راجل إزَّاى؟!
- طيِّب هاقولك حاجة.. خلِّيني أنا الست وإنتِ الرَّاجل.
- عمري ما أكون راجل.
- اسمعي لو قلعت هدومي وشفتي جمالي.. شوفي هايحصلِّك أيه.
- إنتِ بتقولي أيه؟!! إتجننتي يا ماهيتاب!!
- أبدًا والله.. طيِّب اقلعي إنتِ..
- إنتِ مجنونة جنان رسمي..
- هوَّ إنت مش بنت.. إنت الليِّ مجنونة يا أميرة..
- عايزة أمشي كفاية كده..
- خلاص إنت حرَّة.. من النهارده إنت مش صديقتي..
- مفهوم الصداقة عندك أيه..
- نبقى كل حاجة لبعض.. مش بدل ما نقلع للرجالة ويفضحونا.
- وليه نقلع لراجل.. مش عيب لمّا نتجوِّز نقلع..
- طيبِّ ليه مانجرَّبش.
- نجرَّب أيه!! إنت عايزاني في بيتك علشان كده؟!
- وأيه الغلط في كده هوَّ إحنا مش بشر.. عمرك ما فكرَّتِ تقلعي لبنت زيِّك.. ما هو من قلة الرجالة لازم نعمل كده.. ليه مانبقاش كل حاجة لبعض.
- مش عارفة أعمل أيه معاك.. بلاش تجرجريني يا ماهيتاب.

- اشربي حاجة وامشي.. بكيفك..
- أوكيه.
- أنا اتخمِّيت فيكِ.. باين عليكِ اتخلقت راجل.
- أحسن..
- هاقوم أعمل عصير.

.. كنت مذهولة من صديقتي، وكانت هي في منتهى الأسف لعدم تحقيق ما تريده منِّي، لكن ماهيتاب يومها كادت لي كيدًا، ووضعت حبَّة مخدِّرة في عصير الجوافة وجائتني تقول:

- خلاص يا أميرة.. إوعديني ماتزعليش منِّي..
- أبدًا.. النهارده بس عرفت إنك مجنونة.
- مجنونة بعقل هوَّ أنا مش بنت أنا واقعية.. مش أحسن من الواحدة مننا تروح للرجاَّلة..
- لسه بدري على كده.. بكرة نتجوِّز ونتستر.. نخلَّص الجامعة الأول وبعدين نفكرَّ في الرجَّالة والجواز..
- تبقي قابليني لو واحدة اتجوزت.. ما انت شايفة البنات قدامك اللي اتخرجت واشتغلت ولاَّ قعدت في البيت.. كل البنات قاعدة ومستنية واتخللِّوا في البيوت..
- طول العمر الدنيا ماشية كده وفجأة تلاقي فرج ربِّنا جه لكل واحدة..
- يا ترى مين يعيش.. هاتكون الدنيا خربت ومش هانلاقي نفسنا..
- شوية صبر.. ماتستعجليش..
- اشربي يا حبيبتي..

****

.. في يومها خلعت ماهيتاب كل ملابسها، ولم أدرِ بنفسي وهي تغويني حتى خلعتُ أنا الأخرى، أخذتني إلى غرفة نومها فرأيت نفسي وجسدي في مرآة غرفة نومها لأول مرَّة في حياتي شعرتُ أنني أنثى، كنت في يومها رائعة الجمال.. بيضاء عيوني سوداء واسعة كعيون المها وشعري المنسدل على كتفي طويل كأنه خيمة سوداء تظللُّ كتفي ووجهي يتدلى حتى أسفل ظهري، من قبل لم أرى ثدياي تفاحتان لكنهما كان يترجرجان تحت ملابسي.. كنت طويلة صاحبة جسد بض رائع، شفتين جميلتين قرمزيتين انهالت عليهما ماهيتاب بقبلات مجنونة، في يومها لم أدرِ وماهيتاب تأخذ من جسدي ما يشبعها.. كنت أدري فأتقزَّز من نفسي وأخرى أتلذَّذ واحتقرت تلذُّذي.. حتى انتهى يومي معها، ولمّا ارتديتُ ملابسي كرهت نفسي، وكانت هي تتأوه في الفراش فبصقت في وجهها مرتين وانقلبت أهرول خارج البيت، كنت أتمنى أن تدهسني عربة أو ينهشني كلب ضال أو يضربني عابر برصاصة في رأسي..

.. دخلت بيت أبي وأمي ولم أستطع إسكات نحيبي العالي فأخذني أبي في أحضانه وراحت أمي تربت فوق ظهري قائلة: مالك يا بنتي فيه أيه.. أيه الليِّ حصل، نمت طويلًا في أحضان أبي واحتضنتني أمي من ظهري وهي تتمددُّ خلفي فوق فراش أبي، ولمّا أفقت في منتصف الليل.. حكيت لأبي وأمي كل ما حدث مع ماهيتاب وظلاَّ يحتضناني وهما يبكيان ولما انتهى البكاء قال أبي: توعديني مايحصلش دا تاني يا أميرة..

- أوعدك يا بابا.
- وماتعرفيش البت دي تاني..

- أمرك يا بابا.

ودفنتُ رأسي في صدر أبي أحتمي فيها حتى نمت نومًا عميقًا وأمي تربت بحنو على ظهري وتدعو لي..

****

"صفية تتوه بين الأكواخ والمعلَّم بيسة يُدخلها الفرن"

.. سرتُ والغلام خلفي دليلي حتى لا أتوه بين سكان وأكواخ قرية المصنع النائية، كانت الطرق غير مطروقة ينغرس فيها القدم ويتعثَّر في حجارة متناثرة، وكانت الشمس في كبد السماء تنحني إلى الغرب ووقفت كل امرأة ورجل أمام كوخه أو خيمته ليتفرَّج على الزائرة الجميلة وسمعت أهل الخيام وهو يقتربون منِّي:

- إيش جابك؟
- مالك ومالنا روحي اتمشي على البحر..
- مين رماكِ على الغلابة؟
- مين دي يا إبراهيم؟

وكان إبراهيم يرد عليهم شاخطًا:

- خشي إنتِ وهيَّ خليِّكِ في شغلك.. خليِّك في حالك إنتِ وهو..

.. أفران تخبز العيش والفطير والقراقيش، وكوانين طينية تصهل النار في عيونها لتغلي الحلل الضخمة باللحم والدجاج، وزرائب تعلو فيها أصوات الطيور، وزرائب أخرى تمتلئ بالمعيز والخراف وثالثة فيها الجاموس والبقر، ودخلت زريبة تمتلئ بالمعيز الصغيرة المولودة حديثًا، ونساء وبنات وغلمان يجمعون زبل الولْدة في أكياس بلاستيكية نظيفة، وعندما تخلو أرض الزريبة من زبلة يجري الغلمان والبنات إلى قاعة الفرن لإعدادها في

وجبة جديدة، وكان هناك عدد من المعلمين الذين قد تخصصوًا في جلب المعيز الحُبلْى من الأسواق إلى القرية لتلد في زريبة الماعز، فمن زبل الماعز الصغيرة تتكوَّن خامة المنتج المصنَّع بحرفية عالية من عاملين مهرة احترفوا هذه الصناعة منذ عام ألفين.. أي منذ عشرة سنين.. حيث كان كثير من هؤلاء الفنيين لا يجد عملًا يتلاءم مع مهنته فاحترفوا مهنة الصناعة من زبل المعيز، وعند كل خيمة وكوخ راكية نار حفرت في الأرض مكونة من طبقة هيشة فوقها طبقة من الحطب ويعلوها جذور العنب أو شجر السنط الجاف أو من فروع التوت والجميز والكافور، وتقلب المرأة أو رجل الخيمة النار بعصاه ويسوِّيها ثم يضع الصاج فيشوي اللحم أو السمك ولمّا تهدأ الراكية يقمرُّون الخبز، ويلتف أهل الخيمة أو الكوخ في كوشة حول صهد الراكية يتناولون طعامهم، وهناك من النساء من تعجن دقيقها وتخبز العيش فوق صاج الرّاكية، يأكلون حتى يشبعون ويغسلون أيديهم في طشت ماء في أبريق يصبُّه الأصغر سنًا من أبناء وبنات الكوخ، وتبلغ سعادتهم ذروتها بوضع بَّراد الشاي على الجمر ثم يحتسونه وهم يحكون ويتسامرون.. وتناولت الطعام مع أسرة منهم دلَّني عليها الغلام حيث يشتهر صاحبها بسعة الرزق والكرم، ومن سعادتي أنني اندمجت معهم في مشاركتهم الحديث.. وحكى رب الخيمة حكايته قبل أن يصل إلى هذه القرية البحرية، وأنه كان سيصبح عاطلًا شريدًا في مدينته لولا أن هدته قدميه إلى مشيِّد هذه القرية حيث أتاها بصحبة رجل التقطه من مقهى صغير في حي كرموز، ويعتبر هذا الرجل أن هشام هو صاحب الفضل عليه لأنه أواه وبنى له كوخه وعلَّمه حرفة صناعة المعسل من زبل الماعز ويعزِّز بيسة محور حياته هنا قائلًا:

- أقولّك أيه يا ست ولاَّ أيه.

- قول الدنيا واسعة يا معلِّم بيسة.
- أيه فايدة مانا سبأَّك ومش لاقي شغل.. دا غير لا بيت ولا فلوس في جيبي أعمل بيها كيان لنفسي.. وتيجي الفلوس منين إذا كان مفيش شغل دايم.. أشتغل يوم وأبطَّل عشرة..
- جيت هنا إمتى؟
- من أول ما بدأت الدنيا هنا من عشر سنين.
- اشتغلت على طول.
- صناعة المعسل هنا أحسن صنعة جبت منها فلوس وشغاَّلين على طول السوق كبير والطلب كتير..
- إنت بتشتغل في المصنع الكبير؟
- إتعلمِّت في المصنع الكبير.. بعد كده حبيِّت أعمل شغلي لوحدي.. عملت فرن وجبت الأدوات.. والمعلِّم هشام قال بكيفك.. المهم يا بيسة تورَّد لينا الليِّ تصنعَّه.
- وسمعت كلامه؟
- لازم أسمع كلامه.. التعامل مع المعلِّم خلَّى لحياتي معنى.. معايا فلوس واتجوزت بعد سنة واحدة من شغلي معاه.
- والفرن بتاعك شغاَّل على طول.
- مش ملاحق وولادي وبناتي شوفي صغيَّرين إزَّاي بيشتغلوا معايا واتعلموا الصنعة.
- هايبقوا معلِّمين من صغرهم.. فيه مدرسة هنا؟
- مدرسة أيه يا ست هانعمل بيها أيه؟! هوَّ فيه أحسن من كده تعليم؟!! هوَّ التعليم عمل أيه لليِّ اتعلموا؟! أهم حاجة في الحياة إن الواحد يشتغل في شغل يعيش

منه ويحققَّ له الكرامة في الحياة.. هوَّ إحنا جينا هنا ليه وقاعدين ومبسوطين ولينا بيوتنا وولادنا وفلوسنا!!

- هوَّ المعسل بيكسِّب كده؟

.. وراح المعلِّم بيسة يضحك فقلت له:

- بتضحك قوي ليه كده؟

- المعسل مالي البلد.. دا المزاج الليِّ فوق المعسِّل..

- مش فاهمة!!

- يا ستي أقول لك أيه.. إبراهيم الصغيَّر يقولِّك.

- عايزة أعرف منكَّ إنت..

.. ونطق الغلام إبراهيم هامسًا في أذن بيسة بعد أن أخذه بعيدًا عن ضيفته:

- المعلِّم بيقولَّك وريَّها إزَّاي بنصنَّع البتاع ده.

- على مسئوليتك؟

- أيوه.. الست دي بتاعته وهاتعيش معانا هنا.

- معقولة!!

- زي ما بقولَّك كده.. دخلَّها الفرن علشان تشوف الدنيا على حقيقتها.

- هيَّ هاتشتغل في المصنع الكبير؟

- ماعرفشي..

- طيبِّ تعالى معانا يا إبراهيم.

- لأ خدها إنتَ وماتخبِّيش حاجة عليها.. هاروح أنضَّف الكوخ الليِّ هاتعيش فيه وأفرشه.

- خلاص روح إنت.

وانقلب إليها وهي تتأمل ما حولها من أكواخ وخيام مجاورة، وانحنى إبراهيم أمامها وقال في صوت خفيض:

- بعد إذنك هروح أجهِّز لسعادتك الكوخ..
- كوخ أيه؟
- الكوخ اللي حضرتك هاتقعدي فيه.
- مين قالَّك كده؟
- المعلِّم.
- طيب روح بس ماتغيبش.
- ساعة واحدة والمعلم بيسة هايورِّيك الفرن.
- مش هانرجع للمعلم هشام؟
- المعلِّم نزل البلد وهايرجع بالليل.
- خلاص روح يا إبراهيم ماتتأخرش عليَّ.
- حاضر يا ستي..
- لمّا تخلَّص تروح تجيب الشنطة بتاعتي من الخيمة الكبيرة.
- كل ده أنا عارفه.. حاضر.. وانحنى وهرول إلى الناحية التي يقع فيها الكوخ..

****

"هشام يحكي أول البداية وصفية تعمل في المبيعات"

.. في هذه الناحية مصنع كبير به عدة أفران يعمل فيه خمسين عاملًا وعاملة.. شيدَّ من الطوب وسقِّف بألواح من الصاج ويمتلكه المعلِّم هشام الذي أنشأ القرية منذ عقد من

الزمـان، وهـذا المعلـم ابـن سـمَّاك مـن قريـة فـي ضـواحي الإسـكندرية وحاصـل علـى بكالوريوس الزراعة، وعمل مدة تزيد على عشر سنوات في مزرعة دينا وغيرها حتى تم فصله فصلًا تعسفيًّا من مزرعة مبروك بسبب جلبه للنساء في سكنه بالمزرعة، من بداية عام ألفين بدأ يبحث عن حياة أخرى يكون هو صاحب شأنها، ترك المزارع وسافر إلى الإسكندرية وكان عمره وقتها خمسة وثلاثين عامًا، وبدأ يعيش في أحياء عدة بحثًا عن الرزق الحلال، عمل في المطاعم وفي الفنادق كمسئول مشتريات الخضار والفاكهة ومواد الطعام، ولكنه لم يكن على وفاق في عمله هنا وهناك حتى تقابل مع رجل طاعن في السن على مقهى بشارع محرم بك، ألفه الرجل العجوز واعتاد أن يلقاه كل يوم في المقهى حتى جاء يوم ذهب إلى الرجل في بيته الذي يقع في شارع الرصَّافة، تناول معه الغداء الذي قدمته لهما ابنة عمه إسماعيل والذي قدمها لضيفه:

- دي بنتي الوحيدة عزيزة.

قام هشام من جلسته وصافحها، كانت عزيزة طويلة ممشوقة القوام صاحبة وجه جذاب تفرشه عينان سوداوان مثل سمكتين تسبحان تحت حاجبيها، ومن يومها انبهر هشام بعزيزة، وبدأ يذهب إلى عمه إسماعيل في بيته يلتقي به.. يجالسه ويحكي معه حتى ألف رؤية عزيزة وتعوَّد عليها واقتربت منه وكان يكفي أن عزيزة تعودت على أن تراه كل يوم وإذا مضى يوم ولم يذهب هشام إلى بيت أبيها قالت له:

- ليه ماجتش إمبارح؟

.. كانت كل أمنية عمي إسماعيل أن يزوِّج عزيزة في حياته، وفي يوم انتوى الرجل أن يفاتح هشام في الأمر وليس في الأمر عيب، وكانت عزيزة تجيد طهي السمك بأشكال وأنواع متعدِّدة، شوي وقلي ودمعة و.. و..

.. وكان هشام من يوم لآخر يدخل بيت عمه وفي يده فاكهة أو طبق بسبوسة أو زجاجة بارفان لعزيزة، وفي يوم اشترى ثلاثة أنواع من السمك وذهب به إلى عزيزة.. وقال العجوز لابنته وهي تضع السمك في مطبخها:

- خلاص يا عزيزة اعملي السمك بتاعك بقى.. إنت أستاذة سمك.

ضحكت عزيزة وقالت:

- من عينيه يابه.. علشان هشام أعمل سمك ماحدِّش كله قبل كده..

فشكرها هشام قائلًا:

- أنا عارف.. ربِّنا يخلِّيك لعم إسماعيل.

غير أن العجوز قال:

- ويخلِّيها ليك يا هشام.

- ياه دا كده كتير قوي يا عم إسماعيل.

ولمّا دخلت عزيزة المطبخ صارح أبو عزيزة هشام قائلًا:

- اسمع يابني المثل بيقول: اخطب لبنتك وماتخطبش لابنك.

- صح.. كلامك صحيح والله.

- إنت عارف دي بنتي الوحيدة عايز اطمِّن عليها يابني.

- وماله يا عم.. حقَّك..

وسكت الرجل وراح ينظر تارة نحو باب الغرفة وتارة أخرى إلى وجه هشام في حياء.. هزَّ هشام رأسه بعد أن دوَّر الأمر كلهُّ في نفسه وقال وهو يمسك بذراع عمه:

- اسمع يا عم إسماعيل أنا عايز بنتك.

- عايزها إزِّاي يابني؟

- اتجوزها على سنة الله ورسوله.
- مش هالاقي أحسن منك يابني.. يا ألف نهار أبيض النهارده..

.. ومن بالغ سعادته ذهب إلى ابنته في المطبخ وأخبرها بما قاله هشام فكادت عزيزة تطير من فرحتها وأطلقت زغرودتين كعادة بنات الأحياء الشعبية في الإسكندرية، البنت تعبِّر عن فرحتها بالزغاريد..

.. ولم يمض أسبوع حتى تزوج هشام من عزيزة ودخل عليها في بيت أبيها..

.. ومرَّت الأيام وكلاهما في قمة السعادة ولمّا كان هشام غير مستقر في عمل، وكان إسماعيل حريص على سعادة ابنته وأن يكون زوجها صاحب عمل دائم ومستقر.. أخذه في يوم إلى كورنيش الرمل وجلس فوق سور الشاطئ وراح الرجل يحكي لهشام عن حياته وهشام ينصت إليه حتى قال له الرجل:

- إسمع يابني.. وسكت.
- قول يا عم إسماعيل.
- هاقول.
- تحت أمرك قول يا عم..
- فيه صنعة بسيطة تبقى في إيدك دهب.
- كويس.. أيه هيَّ الصنعة دي؟
- لازم نطلع الأول بعيد عن الزحمة دي.
- نطلع نروح فين؟
- الشغل ده لازم يتعمل برَّه في الجبل أو في منطقة زراعية مفتوحة، كل اللِّي عايزينه شوية معيز ودراية وحاجات تانية عبيطة..

- دي مشكلة هانجيب أرض منين ومين يقدر يقعد في الصحرا؟!
- كل ده ممكن.. بكره الصبح هانروح المكان.
- فين؟
- جنب أبو قير..
- نروح هوَّ فيه حد مش عايز استقرار.. أروح معاك آخر الدنيا وأبقى سيد نفسي.. يعني الموضوع بيع لبن ولاَّ تربية معيز..
- لأ.. طوِّل بالك نروح بكره الأول نشوف المكان وبعدين كل حاجة هاندبرَّها سوا..
- استعناً على الشقى..
- ماتكملش.. علشان الموضوع ده بيقولوا عليه حرام وشيوخ بتقول مكروه زي السجاير سواء كده أو كده إحنا مش لاقيين غيره..
- يا عم إسماعيل لو فيه كِفت هاشتغل فيه.
- على العموم البطالة بتولِّد الفقر وربِّنا يكفينا الشر.
- والفقر بيولِّد الكفر.
- أعوذ بالله مش عايزين نوصل لكده.. إحنا بنصلِّي وبنقول يا رب.
- سيبك من الحرام والحلال دا كل الناس بتجيب الفلوس بأي شكل وعمرهم مافرَّقوا بين الحلال والحرام..
- على قد ما نقدر نروح للحلال والمشكلة إن الناس الليِّ عندها الشغل الحلال ناس ظلمة ومبتعرفشي ربِّنا.. وعلشان كده احنا لازم نروح في سكة تحقَّق لنا حرية لقمة العيش وماحِّدش يتحكمَّ فينا.. ومن الآخر أنا عايز لحفيدي يبقى عايش

ومايتبهدلش زيِّنا.. شوف يا هشام أنا قرَّبت أمشي من الدنيا والمشروع ده أهو بداية تمشي فيها شوية لغاية ماتعمل قرشين ينفعوك..

- إتفقنا خلاص يا عم إسماعيل..

****

.. كان هشام يحكي لها حكايته من أول البداية ثم سكت وقال وهو يحتضنها بذراعه:

- هيَّ دي أول الحكاية.
- وبعدين.
- جينا وابتدينا وبعد سنة مات عمي إسماعيل وماتت بعده عزيزة وهيَّ بتولد ومات الطفل قبل ما ينزل من بطنها.
- والله حكاية صعبة قوي وحزنت عليهم كتير.
- حزن الدنيا كلهُّ.

.. وكان آخر حاجة طلبتها من عمي إسماعيل قبل ما يموت أن يتم استبدال الحشيش بأي عصارة من الأعشاب لها نفس النكهة وقدم لي هذه الخدمة وبدأت أعمل بدون إضافة الحشيش.

- وبعدين.
- زي ما إنتِ شايفة.. أيه رأيك؟
- طيِّب أنا هاشتغل أيه؟
- في المبيعات.. ولاَّ عايزة تبقي في المصنع؟
- لأ ماينفعش.. البيع هايبقى فين؟
- في البلد.

- لمين؟
- مفيش حد في البلد يستغنى عن الحشيش.. ولازم تتعلِّمي السواقة..
- من بكرة هاروح أتعلِّم.
- وأحسن عربية تختاريها تحت أمرك.
- مش المفروض ننام بقى.. الساعة بقت تلاته.
- ياستي نامي بكرة طول النهار.
- أقوم أستحمَّى ولاَّ لسه عايز حاجة؟
- وتستحميِّ ليه؟
- علشان أصلِّي الفجر قبل مانام.
- آي صحيح.. إنت علمتيني الصلاة.
- وانت علِّمتني إنيِّ ست.. بقيت ست بصحيح من يوم ترام الرمل.
- مش لوحدك يا صفية.
- بطلَّ بقى ماتغيظنيش..
- نبتدي من بكرة آخر النهار.. ننزل البلد علشان تتعلِّمي تسوقي.
- هاروَّح وآجي كل يوم؟
- خليِّكِ في المنشية لغاية ما تخلص الرخصة وبعدين تشتغلي على طول.
- وهايبقى شغلي فين؟
- في البلد.. في إسكندرية كلِّها.. ما تسبقيش الأحداث.. الدنيا تخلص واحدة واحدة.. وبعدين هاقولك تشتغلي إزِّاي..
- اتفقنا..

****

"كيف تم رحيل نور من بيت العجوز"

.. صبرت كثيرًا حتى أتاني الله به، وكل ما عملته أمي في بيتها من أجلي أنها باعت الصالون القديم وفصَّلت من أجلي غرفة نوم جديدة لأدخل فيها، وكان زوجي مهذبًا ينحني أمام أمي كل صباح ويقبِّل يدها قائلًا:

- ادعي لنا يا ماما.. عايزة حاجة النهارده أجيبها وأنا جاي؟

فتقول له هات عيش.. هات سمك.. هات لحمة الشهر.. هات شوية خضار.. هات رز ومكرونة.. ومضت الأيام فإذا جاء نور بأي شيء حاسبته أمي فإذا قال لها:

- خلي عليَّ المرَّة دي.
- أودِّي المعاش فين يابني؟!

وكان نور بإرادته يدفع مبلغًا لأمي كل أول شهر يكفي لحياتنا معها وزيادة، وكانت أميِّ توفِّر مبلغًا من معاشها من وقت لآخر وتذهب هي بنفسها لإيداعه في البنك، وكان نور يعطيني مصروف جيب شهريًّا يكفي ويفيض منه فأدخَّره، وكما تفعل أمي أذهب معها إلى البنك لأودع ما ادخرته، وكانت أمي تقول كلمَّا ذهبنا إلى البنك:

- لازم آخدلك شقة تمليك في حي كويس.. هوَّ دا أملي يا بنتي.

ولمّا كنت أقول لها ماحنا عايشين معاكِ والدنيا حلوة كده.. هانسيبك ونروح بعيد عنكِّ فتقول:

- دي شقة تبقى باسمك تنفعك وتنفع ولادك بعدين..
- الليِّ تشوفيه يا ماما.

.. زوجي يصلِّي الفجر ويخرج إلى عربته التي يجرجها في جراج قريب من البيت، وكان حريصًا ألاَّ يعرفه أحد من البيت حتى لا يسبب لي أي إحراج مع السكان ويقولون ساخرين:

- جاتها خيبة اتجوزت بياع خضار.

ولمّا كنت أقول له مايهمنيش كلام الناس يرد عليَّ دائمًا:

- على قد ما أقدر استعين على قضاء أمور حياتي بالكتمان.
- الليَّ يريَّحك يا نور.

.. وكان شديد الحرص على ألاَّ يجرحني أحد ويعيرِّني بعمله، ولمّا كان يعرف ويتوقعَّ أنه سيأتي يوم يعرف جيران زوجته أنه هوَّ البياع الذي يقف هناك، ورغم أنه كان يعرف أنه سيفقد زبائنه إذا انتقل إلى حي آخر، لكنه قال في نفسه وكما أخبر زوجته أنه لابد أن ينتقل إلى مكان آخر، وكثيرًا ما كانت تثنيه عن قراره إلا أنه انتقل في يوم إلى شوارع تقترب من محطة قطار المدينة وجرَّج عربته في نفس الشارع الذي يقف على ناصيته، بعد فجر كل يوم يذهب إلى عربته بتاكسي ولمّا ينتهي عمله يعود إلى المنشية بمواصلات عادية، لكن كيف حدث كل ذلك وانتقل في حياته إلى بيت زوجته الجديدة وتزوج بها وانقطع عن امرأته العجوز؟ كل هذا كيف حدث وتخلَّص من حياة وبدأ حياة أخرى؟

.. وكان لابد أن أفكَّ قيدي من زوجتي أمينة، خاصةً وأنها لم تسيء إليَّ في يوم، وتعوَّدت على حياتي معها فلابد لي أن أنتهي من حكايتي معها دون حزن الفراق، على أن يتم ذلك درجة بعد أخرى، كما أنني كنت شديد الحرص على ألاَّ تدري أميرة بشيء حتى لا أصيب مستقبل حياتي معها وهي الزوجة التي ستلد أبنائي بعد أن فقدت أولادي

مع أمينة أكثر من عامين فيها زرعتُ شبابي في أرض لا تنبت، وكنت أكن لها كل احترام وتقدير لما لقيته معها من كرم ووقوفها بجانبي ولم أنل منها إلاَّ كل حب، ولمّا لقيتها عاشقًا وزوجًا كانت تعزف معي لحن اللقاء كأنها شابة صغيرة، ولا أعرف لماذا الآن تذكرت حدثًا أليمًا مررتُ به وأنا أستذكر دروسي مع زميلي بالثانوية العامة، كان ياسر في نفس مدرستي ومنذ وفاة والده في حادث ونحن في الصف الثاني الإعدادي تعوَّدنا نذاكر دروسنا معًا، وفي الإجازة التي أعقبت امتحان الثانوية العامة ذهبت إليه لنذهب إلى ملعب الحي لنلعب كرة القدم، أدخلتني أمه الشابة البيت مهللة ومرحبة كما كانت ترحِّب بي وتعتبرني مثل ابنها، ولمّا جلست بالصلاة دخلت هي غرفتها فقلت لها بصوت عالٍ:

- فين ياسر يا طنط؟
- يا حبيبي.. ياسر سافر مع عمه في البلد.
- طيِّب أنا ماشي.. هاييجي إمتى؟
- إستنَّى يا نور عايزاك.

.. قلت: إنها بالتأكيد دخلت بسرعة غرفتها لتغيِّر ملابسها لأنها فتحت لي الباب وهي مرتدية قميص نوم.. لكنها لمّا أقبلت جاءتني بنفس القميص العار ودخلت إلى دولابها لتغيِّر بعض ملابسها وتصفِّف شعرها لأعلى أما الخصلة الخلفية فألقتها خلف جيدها وتعطرَّت ومررَّت الروج على شفتيها وجائتني مهلِّلة مرَّة أخرى وجلست مقابلتي وكانت طنط شبه عارية فشعرت بخجل يعتريني فاحمرت وجنتاي وتلعثمت حين قالت وهي تبتسم ابتسامة فرشت وجهها:

- كنتم هاتروحوا فين؟ هوَّ ياسر ماقلكَّش إنه مسافر؟

- كنا هانروح نلعب كورة.. لأ ماقالِّيش..
- تشرب أيه يا حبيبي؟ وقامت طنط وقبلَّتني بقوة في وجهي ثم انقلبت إلى المطبخ فقلت لها وقد تخدَّر جسدي:
- ماتعمليش حاجة يا طنط أنا ماشي..
- لأ يا نور عايزاك تساعدني في تنزيل الشنط من فوق الدولاب.

.. وسكنت وذهلت وشعرت بأنني استسلم لها وهي تلتصق بي أثناء تنزيل ثلاثة حقائب من فوق دولابها.. ولمّا انتهيت من مهمتي استلقت فوق سريرها في دعة واستسلام هامسة:

- تعال يا نور.. تعال.. أنا عايزاك من زمان.. ماتستغربش يا روح قلبي..

.. لم أنس هذا اليوم وبعده سبعة أيام حتى جاء ياسر.. كانت الحمَّى في جسدها وفي جسدي لهيب نار أشعلته أم زميلي.. كانت سبعة أيام من نار ولن أنساها ما حييت، ندمت فيها ندمًا لا ينفع ورحت أبعد عن ياسر يومًا بعد يوم عندما دخل كل منَّا الجامعة وكل ذهب إلى كليته، ولم أجرِّب في حياتي لقائي بامرأة شابة حتى لقيتُ أمينة في الإسكندرية ووجدتها تغرق معي كما غرقته الشابة الأرملة أم ياسر.. ذكرى واحدة في حياتي عزمت بعدها ألاَّ أدخل بيت زميل وتعودَّت بعدها استذكار دروسي وحدي..

.. لم تقصرِّ معي في يوم أمينة العاشقة ثم أمينة الزوجة وكان لابد لي أن أبدأ حاكيًا لها حكاية أنني سوف أعود إلى القاهرة لأعمل هناك:

- يا ست الكل أنا لقيت شغل في مصر.
- شغل أيه ما إنت بتشتغل؟!!
- هناك هابقى مهندس في وزارة الكهرباء.

- وتسيبني وتروح مصر.. يهون عليك.
- هاروح أقدِّم أوراقي وآجي وفي كل الأحوال هاتبقي معايا.
- وبعدين ما اقدرش تبعد عنيِّ يوم واحد..
- إهدي هوَّ إحنا في شهر العسل!!
- رجلي على رجلك هاتروح آخر الدنيا معاك.
- يا خالة أمينة لازم أروح مصر أقدِّم وآجي تاني.
- برضه هاتغلط فيَّ تاني.. عشقتك واتجوزتك وتقولي مرَّة يا خالة ومرَّة يا عمة.. إنت كده بتسد نفسي مالك يا نور!! قول يا روح قلبي خليِّك مدلعَّني على طول..
- أبدًا عايز أغلِّس شوية علشان لما أغيب عنِّك يومين تستحملي.
- خلاص يا نور طالما هاتغلِّس عليَّ علشان دي حجتك.. روح يا نور قدِّم وتعال.
- إنت كده عين العقل.. وبرضه أزور خالتي وعمتي وأهلي في مصر..
- يومين كده.
- مش أكتر من أسبوع معلهش دي أول مرَّة أسيبك..

.. ملأت حقيبتي ملابس بحالة جيدة وأخرى لا أستغنى عنها وتركت أخرى لا يهم أن آخذها الآن، ولم تلحظ عليَّ هذه النية، كانت أمينة قد أصيبت بحالة من التوهان عندما جرى حديثي معها بالأمس وتأكدت أنني مسافر لا محالة وكانت تبكي وورمت عيناها من شدة بكائها طيلة أمس حتى ساعة هذا النهار، وقلت لها ونحن نحتسي الشاي وهي إلى جواري ترتمي في أحضاني:

- مالك إنتِ عاملاها جد قوي وكأني مش هارجع تاني!!
- ماعرفشي أنا حاسة بإن فيه حاجة وإن الدنيا هاتتغير معايا..

- بلاش الوهم يا روحي..
- صحيح يا نور خدني لحضنك قوي..
- ماشبعتيش طول الليل.
- إخص عليك.. عمري ما أشبع منك..
- قومي يا قمر من حضني وبطلّي حب شوية علشان يدوبك ألحق القطر..

.. وعند الباب ارتمت على صدره فاحتضنها وراح يربت بكفيه على ظهرها مرددًا:

- مالك يا حبيبتي.. مالك إهدي.. ما أنا جاي تاني هاروح فين..
- ماتعرفشي قد أيه تعبانة.. طيِّب يا نور روح ربِّنا يسلمك من كل سوء..
- إلى اللقاء يا روحي.. أشوفك بخير..

****

"من الفقر عملنا البلد والناس بتعيش وأحلى من الملهى مافيش"

.. كان الناس جميعًا من أهل القرية النائية كأنهم من قبيلة واحدة يجمعهم ما نشأوا عليه من نشاط يدوي اعتادت عليه حياتهم، وأصابع الرجال والنساء تراها مدموغة باللون الأسود، يشعلون أفرانهم ويقطعون خشبهم وحطبهم ويدِسُّونه في محمة الفرن حين يخبزون، وأفران أخرى للصناعة، أما إشعال الراكية في حفرة بالأرض أو في قصعة من الصفيح فتلك هي ونستهم في عمل الشاي وشرب الجوزة صباح مساء، ولا شيء في حياتهم غير الانكفاء على هذه المهنة التي تدر عليهم المال ليصرفوا منه على معيشتهم، وكل هذه البيوت التي تسكنها الأسر من أكواخ وعشش وخيام لا يعنيها إلا بيع منتجات أفرانهم للمعلم هشام، وفي أطراف القرية شِّيدت ثلاثة أكواخ من الطوب اللبن تسكن فيها بنات ونساء الناس اللائي جئن إلى هذه القرية طواعية أو جلبهم هشام

بطريقته، وكل منهن لها قصة وحكاية، تسعة من البنات والنساء منهن من تعمل في التوزيع وأخريات مازلن ينتظرن دورهن في عملية المبيعات التي تتم في المدينة الكبيرة..

.. كانت سلاسل المياه في موج البحر الهائج من بعيد كأنه حلقات من جبل ينهار على مدى البصر، وكنت أقف عاجزة وأنا أتأمل عنفوان البحر خلف هذه السلاسل، أخاف مرَّة وأخرى أبرِّر ثورة البحر بأنها غضب يأتي من بلاد بعيدة.. لكنه كان يسكن ويهدأ حين تصطدم الأمواج بشاطئ القرية وكأن البحر لطيف بعباده الفقراء، ومن رحمة هذا الكون أن أرى سحبًا بيضاء تلف بطن السماء وتكاد تقترب من الأرض، وكانت تلك قدرة للطبيعة تأتيني من فوق لترحمني وربما تتصالح مع هؤلاء الغلابة الذين لفظتهم حياة المدينة والتي لم تقدِّم عملًا شريفًا لأحد منهم، وكنت أرى الناس في شوارع المدينة عندما أنزل إليها، أراهم حيارى متسكعين سائلين أهلها الأغنياء أيَّة حياة فلا يستجيبوا، وكان كثير من نساء مثلي في هذه القرية قد ذهب عنهن أزواجهن يعملن في دول بعيدة لكي تعيش البيوت، من المسئول عن هذا الطرد الجماعي لهؤلاء الرجال؟ ومن فرض هذه القسوة على الناس رغم أنها ليست من طباع الوطن.. ومن يرمي الحصى على الناس؟ كأن صخرة ناتئة فوق سقف بيوت شيدت من حطب، ومن يستطيع أن يزحزح الصخور وألاَّ يُقذف الناس بالحصى، ومن أنزل هذا القدر، لقد ضربوا قدر الله الذي دائمًا ينزل به ليحيا الناس في عدل وسعة، وكانت الشمس تغرب دائمًا عن البلد، وكان هؤلاء يريدونها تغرب ولا تشرق إلاَّ في حياتهم دون بقية البشر..

.. وكان الناس في الأكواخ والعشش يقيمون الصلاة ويسبحون بحمد الله، لكن.. هل يقبل الله تسبيح أصابع طول اليوم تصنع التوهان فوق كل حجر معسل لكل من يشتري ليعيش بعيدًا عن هم الشقاء الذي يعانيه من أجل الحصول على بلغة خبز لبيته؟ لكن

هناك كثيرًا من الأغنياء الظلمة وأولادهم وبناتهم زبائن دائمين لمنتج القرية التي يداوم أهلها في توزيعه داخل كل دكان ومقهى في البلد، وأسمع أنه منذ زمن بعيد أن الحشيش داء للفقراء والأغنياء من أهل هذه الأرض في مدينتي وغيرها من قرى ونجوع في الدلتا والوادي، وعرفت من هؤلاء أن هذا الداء مغروز ومدفون في رؤوس وأجساد كثير من هؤلاء وعندما تغرب شمس السماء يخرج الدخان من كل دار مغموسًا ومخلوطًا بروائح البحر والترع وجسور الخشب، إن رائعة الجمال في أركان ونواحي ودهاليز تختبئ في أنفاس تزفر دخانًا يملأ السحاب فوقنا فينزل المطر..

ويقول المعلم بيسة لزوجته صبحة:

- انفخي يا صبحة.

والمعلم قطة لأخته:

- هدِّي النار شوية يا شفية.

والمعلم شكلَّمة لابنته:

- جبتي الزبل كلُّه؟ روحي هاتي الشاش..

.. معيز ولدة صغيرة يدوبك مفطومة تأكل البرسيم والدراية في زريبة كبيرة طلست أرضيتها بالأسمنت حتى لا يختلط روث المعيز بالتراب، ويوضع الزِّبل في صفيحة فاضية حتى يتم ملأها مرتين، ويتم فرش شاش عريض يوضع فيها الزِّبل، ثم توضع الشاشة في شكل صُرَّة مربوطة في حلة كبيرة فوق الكانون، يغلي الماء وفيه الصُرَّة لمدة خمس دقائق ويعاد وضع الصُرَّة في الماء عدَة مرَّات حتى يتم ذوبان الزِّبل، ثم يتم فتح الصُرَّة في الشمس فتتبخَّر وينشف بشكل طبيعي ويكون الزِّبل قد تفككَّ وذاب، على أن تكون الكمية التي ذابت في حدود ثلاثة كيلو، ثم يوضع ربع كيلو عِرْق دهب يتم شراؤه

من العطار ويخلط مع الزبل حتى تصبح الخلطة مثل دقيق، ويفيد عرق الدهب أنه يُفرز منه زيت يساعد على عمل الخلطة عجينة قابلة للتشكيل في لون بني قاتم، ويضاف ربع قرش حشيش بعد فركه وصهره، بعد ذلك تتم المرحلة النهائية للصنع، توضع الخلطة في ورق مثل السلوفان في شكل كومة، ويتم تجهيز صفيحة فارغة يوضع بها لمبة كهربائية في قوة خمسمائة وات وأكفي اللمبة مضاءة فوق الكومة "الصُرَّة" صرَّة السلوفان لمدة ستة ساعات والكومة تحت اللمبة، العجينة تستوي وتكون بعد ذلك جاهزة للتشكيل، ثم يتم تقطيعها في شكل ربع قرش، نص قرش، وقرش....

.. وعندما اشتغلت كموزعة للمنتج داخل المدينة كان معظم زبائني من العاملين في المعمار من أهل قبلي وكثير من رواد النوادي وأصحاب المصانع والسائقين، وكان المعلمون الذي يصنعون المزاج ويقعدون حول الفرن يقولون للشباب.. من لم يقعد أمام فرن لم يبلغ الرجولة، وكان الشباب يتسابقون أن يصبحوا رجالًا، وكانت الشابات من البنات يتسابقن في أن يصبحن معلِّمات للخبيز ويقعدن أمام فرن الخبيز لخبز العيش والفطير والكعك لتصبح كل منهن امرأة بصحيح وتكون مؤهلة لأن تصبح زوجة لخيرة شباب الناحية، أما البنات الحلوات اللائي جئن من الأحياء غير الشعبية فكل منهن تتطلع لأن تكون رفيقة للمعلم هشام وزبانيته المعلمين الكبار، واقترحت على هشام أن نقيم ملهى في أطراف الناحية على أن يكون الوصول إليها سهلًا وقريبة من المعِّدية عند مرسى القوارب التي تأتي من الشاطئ الآخر، وأن يكون للملهى راقصاته ومغنياته، وفي ليلة عندما عدت من مأمورية توزيعي للمنتج ذهبت إليه في كهفه فوجدته يجلس مع إحدى الفتيات الجميلات التسعة اللائي يقمن في كهوف خاصة، ولمّا وجدني أطرق بابه قائلة:

- إفتح يا هشام أنا صفية.

في سرعة لملم حديثه مع صباح قائلًا لها:

- طيب روحي دلوقتي هاجيلك الكهف نكمّل كلامنا.

قابلتني خارجة قرب الباب ونظرت نحوي شذرًا وطفقت:

- ما هو احنا مش معلمين.

فوجئت بجرأتها معي لكن هشام ابتسم لي قائلًا:

- ولا يهمك خديها على قد دماغها.. فوّتي.

- بس أنا مش شوية يا هشام لمّا بت زي دي مفعوصة تتكلّم كده معايا..

- معلهش كبَّري دماغك يا صفية.. تعالي وحشتيني يا صفية..

.. كنت دائمًا ضعيفة أمام كلامه وهو دائمًا يرضي الجميع بكلمة.. بابتسامة لأنه يأخذ مصلحته من كل واحد وواحدة وكأنه قد حدَّد هدفه مع كل فرد في الناحية، وجلست إلى جواره فوق الشلته واحتضنني وقبلَّني من خدِّي قبلتين قائلًا في همس:

- إهدي مافيش حد مقامك هنا.

- طيِّب يا هشام خلِّيني معاك للآخر.

- خلِّينا في المهم عملت أيه؟

- وزَّعت كله.

- فين الأناري.. كام؟

- تلاتين.

- خدي خمسة.. هات خمسة وعشرين.

- خد.

وناولته الحقيبة بالتلاتين، عدَّ منها خمسة ووضعها في شنطة يدي.

- كويس.. وبعدين..
- وحشتيني.
- مش باين.
- المشكلة ماينفعش هنا.. في شقتك أو شقتي بناخد راحتنا.
- دا إمتى؟
- لو عايزة الليلة يالَّه نروح دلوقتي..
- على ما رجع تاني حيلي هايتهد..
- طيِّب خليِّنا بكرة.
- اتفقنا.. تحبِّي تطلعي كل قد أيه؟
- زي ما إنت شايف..
- كل أسبوع كويس؟
- كويس أكون خدت نفسي.. بس فيه حاجة.
- أيه هيَّ؟!
- بين كل مرَّة توزيع وتوريد أروح أستريح في الشقة، هنا ماباخدش راحتي..
- الليِّ أنت عايزاه لكن أنا عايزك هنا اليومين دولت.
- ليه.. يعني وجودك جنبي باحس إنِّي قوي وتاخدي على الناس..
- ناس مين يا هشام الناس المهببِّة دولت.. بصراحة أنا بخاف منهم.
- دولت ناس غلابة من الشعب التحتاني، ومافيش حد نضيف هايستحمل الفرن وهبابه من أوله لآخره.

- علشان كده ماقدرشي أعاشرهم إلاَّ في حاجة واحدة..
- أيه هيَّ..
- نعمل ملهى.
- الفكرة دي جت على بالي لكن دي عايزة مجهود كبير.. تساعديني فيها..
- دا شرطي أقعد هنا..
- فيه مصلحة شُغل كبيرة قوي لمّا ينجح الملهى.
- لكن ماينفعش يكون الزبون من هنا بس.. الناس هنا تعبانة من كلُّه أهو بياخد نصيبه من الغلة حتى ولو كان معلِّم إنتاج يدوبك بياكل ويشرب ويعيش هوَّ وبيته..
- مانعمل ملهى على قدُّهم.
- الناس بتفضل تقعد حوالين الراكية يشربوا شاي وأكتر حاجة يعملوها شُرب الجوزة والدنيا عندهم انتهت على كده..
- لو عملنا ملهى كبير هانجيب زبون من البحر.
- من الناحية التانية.. زي ما يتوزَّع المزاج هناك الناس دي كلِّها بتيجي الملهى تاخد مزاجها من هنا..
- ولمّا ينكشف سرِّنا؟
- الملهى مش هايبقى هنا خالص.. الملهى عند مرسى القوارب.
- أنا مش شايف مكان هناك دا الطريق كلُّه دحديرة..
- يا عزيزي الجميل فيه مكان واسع في أول طلْعة على اليمين.
- إنت شفت المكان ده؟

- شفته وعاينته كمان.
- يعني شغالَّة من ورايا يا خطيرة.
- في الآخر إنت الليِّ هاتقرَّر.
- طيب خلاص نروح نشوفه بكرة.
- واحنا رايحين الشقة نفوت عليه.
- إذا عملنا الملهى هاتقعدي هنا تشوفي شغلك فيه..
- مفيش مشكلة وعلى فكرة أنا شفت البنات التسعة.. ممكن ينفعوا معانا في الملهى.
- البنت الليِّ شفتيها أصلًا اشتغلت رقاَّصة قبل ما تيجي هنا..
- حلو قوي وهانلاقي الليِّ بتغنيِّ والليِّ بتفتح والليِّ..
- البلد مليانة نروح نجيب منها الليِّ عايزينه.
- أكتر حاجة في البلد الناس التايهة.. والليِّ تايه وضايع يعمل المستحيل علشان يعيش.
- تصدَّق إن البنات والستات لهم ميت سكة للعيشة أحسن من الراجل.. دا الراجل في بلدنا غلبان قوي مالوش حيلة في الرقص والغنا و.. و..
- تعرف أحسن حاجة في بلدنا أيه..
- الرقَّص والفتح.. أحسن بزنس شفته لغاية دلوقتي في مجتمع فقير وغلبان زيِّنا.. وسكت..
- سكت ليه كملِّ؟

- أبدًا.. الشغل مع النسوان أيًا كان نوعه، بس وفرَّ المكان وداري الست في مكان بيت.. ملهى.. فرن.. كوخ عشة.. في الآخر هاتجيب فلوس.
- ناحية زي دي من غير نسوان ماتنفعش.
- ومن غير رجالة.
- أبدًا لازم النسوان في الأول والآخر.
- شوفي في أي مكان إتوجدت الست جه الراجل.
- مكان زي ده الناس كلِّها بتشتغل فيه وبتجيب فلوس ماتقولِّش بقى دا حلال ولاَّ حرام.. الناس دي مالقتش العمل الطبيعي جوَّه البلد.. خلاص هوَّ دا العمل البديل واللِّيِّ بيكفل لكل واحد منهم حياة كريمة..
- يعني طول ما فيه فلوس وأكل وشرب تبقى دي الحياة الكريمة..
- إحنا مالقناش غيرها.. طيِّب قوليلي أي معنى تاني للكرامة..
- بس إحنا محتاجين حماية.. إزَّاي تحمي ناحية زي دي؟
- لازم نعمل حرس وغفر وعساكر تحمي الحتة من أي عدو..
- نعمل كل حاجة نحافظ بيها على حياتنا اللِّيِّ عملناها من الفقر والحاجة.
- من فقر الناس كلِّها عملنا البلد دي ولسه هانعمل..

****

"مصلِّية فتح الله وكنيسة بطرس ميزان الناحية وحياتك يا صفيَّة"

.. من الغريب وسط هذا الشعب الذي انفصل عن المدينة أن نجد أهل كوخين من أسرتين يمتهن الرجال فيهما مهنة الحدادة، فهم يصنعون العدد والأدوات اللازمة لهذه الصناعة والحلقات والسلاسل الحديدية التي تقيدَّ فيها الغنم والماعز وعجول الجاموس

والبقر التي يجلبونها من المدينة للذبح في المواسم والأعياد، ونشأ الأولاد الصغار والكبار على تعليمهم مهنة الحدادة، وسمح لهم هشام بامتهان هذه الحرفة لإنتاج ما يلزم أفران الناحية من أدوات حديد ولم يمنعهم من بيع بعضها في المدينة ثم يعودون إلى بيوتهم في الناحية، وكان معلِّم الحدادة الكبير يُدعى فتح الله وهو الذي يِّدرب كل شاب ورجل وفتاة مهنة الحدادة ولم يكن غريبًا على هذا الرجل أن يقيم قرب بيته مكانًا للصلاة لمن يريد أن يصلِّي، وكان ذلك بموافقة معلِّم الناحية هشام فهو الذي بيده يكون كل شيء في أمور القرية وأحوال أهلها.. ولكن الجزء الأغنى والأقوى لأهل القرية هو صناعة الكيف، وأي فرد يمتهن غير هذه الشغلة فهو من الدرجة الثانية وفقير دون بقية الأهل الذين يتعالون على بقية أهل القرية من حدادين ونجارين وجزارين ورعاة غنم وحلاَّقين حمير وبني آدمين، الحلاق في هذه الناحية يقص شعر الحمار والبغل كما يقص شعر أهلها، وكما أقام الحدَّاد فتح الله مصلِّية قرب بيته يصلِّي فيها القليلين من السكان، وفتح الله يؤم ثلاثة يقفون خلفه في معظم الصلوات وإن زادوا خمسة، وفي صلاة الجمعة لا يزيد المصلون عن عشرة وهو إمامهم ومؤذنهم وخطيبهم، ولمّا بدأت القرية تزدحم بالسكان ويكثر فيها انتشار الأكواخ والخيام، كان هناك عدد كبير من الأقباط معظمهم يعمل في مهن غير مهنة صناعة الفرن؛ مثل العلاج بالدهان والكي لمرضى العظام، ونساؤهم يقمن بتسريح وتزويق العروس ليلة دخلتها، ونتف الحواجب وإزالة شعر النساء، وبعضهم يعمل كنجار باب وشباك، وكان عددهم بنسائهم وأطفالهم يزيد عن مائة، وعدد منهم ليس بقليل يريد أن يصلِّي كما يصلِّي أشقاؤهم في مكان مخصصَّ للصلاة، تقدموا في يوم للمعلم هشام كي يخصصِّ لهم مكانًا للصلاة وكان هشام يرغب دائمًا ويقترح بأنه في حاجة دائمًا لمن يقيم الصلاة بأنواعها في القرية حتى يكون هناك توازنًا بين الأعمال

المنتشرة والمشهورة بها هذه الناحية وبين أناس يدعون في صلاتهم بأن يقيم الله شأن قريتهم بل ودولتهم، فلما ذهب الوفد القبطي إليه يطلبون مكانًا للصلاة قال لهم مرحِّبا:

- هذا ما كنت أتمناه.. مافيش مشكلة نعمل لكم ستين مكان بس كده.

فقال له بطرس أكبرهم سنًا:

- بكفاية مكان واحد يابه هشام.
- فيه مكان متطرَّف شوية بعيد عن الدوشة في منحدر قرب مرسى القوارب.

فقال له بطرس:

- يا سيدي إحنا عايزين مكان جنب الناس.
- خلاص خدوا المكان الليِّ فوق التبة قرب أكواخ النجارين.
- أيوه دا معقول يا شيخ.
- خدوا الليِّ عايزينه من مساحة دا حتة جبلية ماحدِّش من الناس هايطلع فيها.
- هاناخد تلتميت متر ونصورَّها الأول.
- تصورَّوها تبنوها.. اعملوا فيها كل الليِّ عايزينه علشان صلاتكم.
- المهم تكون راضي عنا يا هشام بيه.
- شوف زي ما فتح الله عمل وله حق في الأرض وخدها بدون تمن برضه إنتم أصحاب أرض وبختكم أد فتح الله ست مرَّات.
- دا حظ بقى.
- ربِّنا يدِّيكم الحظ.. أنا عايز أيه.. عايز الكل يقول يا رب ويدعي وكل ما يدعي ربِّنا يبارك في بلدنا ويبارك في عملنا، هوَّ دا قدرنا وقدرنا زي الفل فلوس أد الرز.

ورد عليه بطرس:

- على الأقل كل واحد في البلد دي لاقي عمل ولاقي ياكل ويشرب، إحنا كنا صايعين في المدينة مش لاقيين أي حاجة.. البركة فيك يا معلِّم هشام إنت اللي عملت كل ده..
- عملت كل ده ببركتكم وتعاونكم ولولا الناس دي كلِّها عمري ما كنت هاعمل أي حاجة.. بس تبقوا تدعولي يا عم بطرس..
- في الأول والآخر ومن غير الكنيسة إحنا كلِّنا بولادنا ونسوانا بندعي لك الصبح والليل وتعال شوف بنفسك..
- من غير ماشوف أنا عارف.. عايزين حاجة تاني قولوا أنا تحت أمركم..
- مافيش أكتر من كده.

وقاموا جميعًا ورفعوا أيديهم لأعلى وراحوا يدعون لعمدة القرية هشام..

****

.. وكانت صفية تلقى هشام في شقتها بالمدينة بعد كل مأمورية توزيع وتوريد نقدية، وفي أحيان قليلة كانت تلتقي به في كوخها بالقرية عندما كانت تنتظر يوم أو اثنين حتى ينتهي المصنع من عمل التعبئة والتغليف للبضاعة، ولمّا مرَّت أيامًا كثيرة وشهورًا عرفت كثيرًا عن هشام وأنه ليس فقط تاجر سمك كشغلة ورثها عن أبيه، هذا غير فضله في إنشاء هذه القرية وكأنها حياة قائمة بذاتها وسط البحر، وأن أهل هذه الناحية كونوها بأعمالهم وانصهارهم مع بعضهم في سلام، ونشر المحبة بين الناس بالتوزيع العادل بين

أهلها سواءً كانت أرضًا أو مالًا وفي تعليم حرفة أو مهنة، وزاد احترامها له كثيرًا حين نشر المحبة والعبادة بين الناس جميعًا، فقالت له وهي تدفن رأسها فوق صدره:

- أنا حبيتك قوي.. إنت عارف من إمتى؟
- من إمتى؟
- من ساعة ما اتبنت الكنيسة.
- إلاَّ أي شيء يقرِّبنا من الله.. مصلِّية أقامها فتح الله، وكنيسة بطرس همَّ دول ميزان العقل في البلد دي، لازم أعمل اللي ماعملوش حد في المدينة.. دي بلد عملتها من دمي وفلوسي بكل الناس اللي ضاعت في البلد، جه كل واحد هنا وهو مؤمن تمامًا بأن العمل أي عمل بس يجيب فلوس علشان يعيش، هوَّ اللي بيصنع الكيف وبيوزَّعه هوَّ اللي بيصلِّي عند فتح الله واللي بيصلِّي في الكنيسة.
- يعني اللي بنعمله مش حرام.
- لمّا يحاسبوا كل واحد بيعمل حرام في البلد ييجوا يحاسبوني.
- هو إحنا مابنضرِّش حد.
- اللي بياخد ويشرب أنا ضربته على إيده وقلت له خد.
- لأ ماضربناش حد.
- واللي بياخد ويشرب إذا كان عارف إن دا بيضُّره مايخدوش.
- ولمّا يكون عارف إنه بيضُّره لكن بياخده.. هوَّ صاحب نفسه..
- خلاص هوَّ حر.. شوفي لمّا كل واحد حر في نفسه يبقى خلاص، شوفي طول ما الواحد مابيضرش حد يبقى انتهت.
- عايز تقول إن الكيف حلال؟

- عمري ما قلت كده.. الكيف بيعدل المزاج بيعدل الأناري بعد التعب والشقاء..
- إنت عارف وأنا باوزَّع للناس بتبقى مستنياني على نار..
- شوفتي بقى يعني الحشيش في مصر زي رغيف العيش.
- الفرق الوحيد إن الفقير قوي بيقدر يشتري رغيف العيش لكن مابيقدرش يشتري الحشيش.. واللي معاه فلوس بيشتري كل حاجة وفي بلدنا ممكن يشتري الإنسان نفسه..
- ولكن تلاقيه نفسه يدوقه، وفيه ناس كتير فقراء بيخدموا قعدات الحشيش علشان يشد نفس ويتتُّه خدَّام لقعدت الحشيش علشان يشد نفس أو حتى يشم على الريحة، مجتمع ابن كلب يا صفية، هوَّ دا مجتمع بلدنا..
- يبقى المفروض نهدِّي شوية على حكاية الحرام والحلال دي..
- خلي الناس تغنِّي بالحلال والحرام دول الناس بتوع الكلام، هاتي أي واحد منهم تلاقيه تنبل وعاطل وسفيه وكل عمله هوَّ الكلام، الناس دي لازم يبقى لها عمل وتسد بُقها ولازم المجتمع يتخلَّص منهم، هات واحد منهم هنا.. ساعة مايشوف الفلوس والمكسب عمره ما هيتكلِّم تاني وهايلبد في بلدنا وعمره مايروح المدينة تاني.. المدينة مافيهاش غير ظلم الأغنياء والدعارة.. مش هوَّ ده أكبر حاجة في البلد..
- بكفاية كده إحنا هانوجع دماغنا على الفاضي.
- إنتِ الليِّ بدأتِ يا صفية.
- وحياة الأناري أنا عايزاك تاني.
- وأنا عايزك على طول.

- تشرب حجر يا هشام.
- يا ريت..

****

.. وكانت هناك ابنة خالة للشيخ فتح الله وتدعى فاتن تهوى الرَّقص والغناء، وهي امرأة مطلقة في منتصف العقد الرابع من عمرها، ولمّا جاءت إلى الناحية مع نساء من شارعها في رأس التين، عرضت فكرة أن تقيم دكانًا فيه ونسة من رقص وغناء لأهل القرية لكن الشيخ فتح الله رفض فكرتها:

- يا بنت خالتي بلاش الكلام ده هنا.. إنت تفكرَّي تتجوزي وتخلِّفي عيِّل.
- أنا جرَّبت الجواز وخدت حظي وخلاص.
- طيِّب بلاش الأفكار دي الناس هنا غلابة ومش بتوع ونسة أكتر حاجة كوباية الشاي وكرسي معسِّل جنب القصعة..
- فيه بنات كتير من غير شُغل ومايعرفوش يشتغلوا في الهباب ده وعايزين يبقى لهم شغلانة يلاقوا نفسهم فيها..
- إنتِ مش بتشتغلي؟ مالك ومال غيرك؟!!
- طهقت من شغلة الخبيز والقعاد قدَّام الفرن.
- هيَّ دي حلاوة العمل الشريف.
- والرقص والفن عمل شريف.
- مين قال كده..
- أنا اللـيِّ باقول والناس اللـيِّ معايا مش عايزين غير الرَّقص والغنى، الناس هنا بقى معاها فلوس وعايزة تفرفش وتصرف فلوسها.

- لو عملت كده مش هاعرفك ولا إنت قريبتي.
- هوَّ إنت عاملِّلي أيه لمّا باشرود قدَّام الفرن.
- دماغك ناشفة ومافيش فايدة فيكِ..
- أنا حرَّة يا فتح الله.
- روحي مطرح ما تروحي.

****

"ثلاث نساء في الخيمة مع هشام بعدها أقيم الملهى"

ولم يكن فتح الله يعرف أن ابنته ماجدة الحاصلة على دبلوم التجارة والتي كانت تعمل بائعة في أحد محلات الملابس في محطة الرمل كانت لها نمرة في أحد ملاهي وسط إسكندرية تذهب فيها لأداء رقصتها المثيرة لزبائن المحل، ولم يكن يعرف أيضًا أن لها صولات وجولات في الذهاب مع بعض الزبائن إلى بيوتهم، والذي لا يعرفه أن ماجدة لمّا جاءت معه إلى هذه الناحية طاوعته غصبًا عنها، وكانت تذهب كل أسبوع إلى المدينة بحجة أنها تعمل في المحل يوم في الأسبوع، ولم يكن يدري فتح الله أنها تذهب إلى الملهى مع زميلات وصديقات لها من الناحية ومن ضمن شلَّتها هذه التي كانت تذهب معها إلى المدينة ابنة المعلِّم بطرس ميادة، والتي كانت زميلتها في التجارة من قبل، ولمّا كانت البنات تعدن في الصباح إلى الناحية، كانت كل واحدة منهن تخبر أهلها أنها باتت الليلة عند صاحبتها فلانة أو علانة، أو كانت الواحدة منهن تدخل الكوخ خلسة دون علم أبيها، وكانت تداريها أمها أو أختها مقابل أن تأتي الواحدة منهن بشيء من المدينة يسُر أمها أو أختها التي تداريها في وقت العودة آخر الليل أو في الصباح المبكر.. بنات كثيرات ونساء من الناحية كن ينزلن إلى المدينة يعملن في النهار أو

الليل، وكن زبائن دائمات لمركب عكشة في أي وقت يأتيهن إلى مرسى الناحية ويعود بهن في أي وقت وكان الهاتف المحمول ييسِّر لهن جميعًا الاتصال بعكشة ولم يكن صاحب المعدِّية هذا خادمًا لهن وتحت أمرهن في أي وقت من الليل والنهار في مقابل أجر أكثر وكان ذلك دخلًا كبيرًا يأتيه زيادة عن دخله العادي في عمله مع نشاط أهل القرية جميعًا وكلُّه بالفلوس والدنيا هايصة..

.. وكانت معظم بنات ونساء النجارين والحلاقين والحدادين يعانين من حاجتهن إلى المال لقضاء حوائجهن نتيجة دخل آبائهن القليل الذي يكفِ أسرهن بالكاد أكلهم وشرابهم، فلمّا كبرت البنات كان لابد لهن أن يعملن ولكن كيف يحصلن على العمل في ناحية إمكانياتها محدودة والنشاط الأساسي فيها للرجال الذين يعملون في صناعة الحشيش..

.. وبالعكس كانت بنات ونساء الرجال الذين يقومون بصناعة الحشيش، كانت هذه الأسر تتمتع برغد في العيش وبحبوحة في الحياة، فلم تكن النساء في هذا الجانب في حاجة ماسة لهذه الأعمال التي تقوم بها أو تصبو إليها بنات الجانب الآخر الفقير في هذه الناحية، إلاَّ أن قليلًا من بنات أهل الحشيش كن طموحات أو متمردات على هذه الأعمال وكن يرين أعمالًا أخرى خاصة بهن، فدخلت بعضهن في مجموعات البنات اللائي يذهبن إلى المدينة للقيام بأعمال متنوعة تخصُّهن، وتزعمت فاتن قريبة الشيخ فتح الله مع ماجدة ابنته وثالثتهم ميادة ابنة النجار بطرس فكرة إنشاء ملهى في الناحية، وقررت في يوم الذهاب إلى الشيخ هشام، وقالت فاتن لماجدة وميادة وهن ذاهبات إلى خيمة هشام:

- على فكرة مين قال إنه شيخ؟

وردَّت ماجدة:

- أمَّال نقول عليه أيه؟

فقالت ميادة:

- دا راجل عمل ناحية زي دي من مفيش.. دا راجل خطير عمره ما يكون شيخ.

فقالت فاتن:

- دا لقب كده عشان الاحترام.

ماجدة:

- نقول المعلِّم.

ميادة:

- هوَّ أستاذ.

فاتن:

- مهندس زراعي وتاجر سمك وصاحب مصانع الحشيش وبتاع النسوان دي كلها، كل ست أو بنت حلوة بترقد له بكيفها.. دا راجل فظيع.. هوَّ لواحده دولة.

ميادة:

- نقوله يا عمدة.

ماجدة:

- هوَّ فعلًا عمدة.

فاتن:

- يبقى نقولُّه يا عمدة..

.. وكان إبراهيم حارس الخيمة قد تم إبلاغه في ظهر اليوم بأن ثلاث نساء يردن مقابلته فضرب لهن موعدًا بعد صلاة العشاء سوف يكون في انتظارهن.. ولمّا انتهى من صلاته في مصلية فتح الله عرج على الفرن الرئيسي ليتفقد تجهيز الطلبية الجديدة.. بعدها اتجه إلى خيمته والغفير الذي خصصه مؤخرًا لحراسته خلفه يزعق بين فينة وأخرى.. وسَّع يا ولد.. خد جنب ارجع بعيد عن الطريق.. البيه قدامك.. تعظيم سلام يا واد إنت وهوَّ، وكان كل واحد وواحدة في الناحية يقدِّر هشام من كل قلبه فهو الرجل الذي له فضل على جميع أهلها حتى أن الأطفال كانوا يصفقون والنساء تزغرد والرجال يهتفون عاش العمدة.. ربِّنا يخلِّيك يا بيه.. حتى وصل إلى خيمته ليفتح الحارس إبراهيم باب الدار وهو ينحني زاعقًا:

- حرس.. حرس سلاح يابيه.. شرَّفت الدنيا كلها نورَّت..

.. دخل هشام فوجد ثلاثة نساء في انتظاره.. كن جالسات على الشلتة فقمن احترامًا لقدومه وابتسمت كل منهن وهي تنحني برأسها قليلًا إلى الأمام فقال وهو يتأملهن:

- اقعدوا اقعدوا وقفتوا ليه!

جلسن وهن خجلات فقال وهو يجلس:

- شرفتم.. إنتم منين؟
- من هنا.. في صوت واحد..
- طيب واحدة واحدة..
- فاتن قريبة الشيخ فتح الله.
- ماجدة بنت الشيخ فتح الله.
- ميادة بنت النجار بطرس.

- أهلًا أهلًا.. بس أيه الحلاوة دي هوَّ فيه بنات حلوة كده في بلدنا..

قهقهت فاتن بضحكة لكنها كتمتها وماجدة وميادة خجلتا والابتسامة تفرش وجهيهما..

وطفقت فاتن قائلة:

- حضرتك مش هاتشوف كل حد في البلد الله يكون في عونك.
- صحيح.. يا ترى عايزين أيه.. عينيه ليكم..

فقالت فاتن:

- مافيش في البلد شُغل ينفعنا وعايزين نشتغل شغل يناسبنا.
- يا ريت أنا عايز الحتة تبقى مليانة شغل لكل الناس.
- حضرتك شايف مافيش غير الأفران والخبيز وشوية حدادة ونجارة وخلْصت الدنيا على كده.
- كويس طيب إنتم عايزني أعمل أيه؟
- عايزين نعمل ملهى للونسة.

فوجئ هشام بطلب فاتن لكنه سعد بطلبها وقال:

- يا ريت طيب.. ومين هايغني؟
- مش غنا بس هايبقى فيه رقص.
- فيه الليِّ يرقص ويغني من الحتة نفسها؟
- فيه كتير.. إحنا أول البنات الليِّ ترقص وتغني.
- دي مفاجأة.. قريبة فتح الله وبنته وبنت بطرس.. معقولة!!

واندهش برد ماجدة:

- لا أب هاينفع ولا أخ؟؟ دا إحنا في زمن يامَّة الحقيني.

هزَّ رأسه وقال لفاتن:

- موافقة على الكلام ده.
- موافقة وأبصم بصوابعي العشرة.

واتجه نحو ميادة:

- وإنتِ يا ميادة.
- وأنا قبلهم..

.. وكلَّم نفسه وقال.. غريبة.. ومن بنات فتح الله وبطرس.. وراح يكررِّها بصوت خفيض فقاطعته فاتن:

- أهلنا فقراء وعلى قدُّهم ومش قادرين على مصاريفنا واحنا مش صغيرَّين وعندنا إمكانيات عطلانة.. مش معقول مانتحركشي أحسن ييجي يوم نلاقي الفقر مكلبشنا بأسنانه..
- لسَّه من قريِّب كناَّ نخاف من آبائنا وأمهاتنا.
- كان زمان وكل وقت وله أدان.
- إنت يا ميادة وماجدة موافقين على كلام فاتن.

ميادة:

- إحنا في زمن مافيش حد بينفع حد.. يعني يرضيك أبويا يجوزِّني نجار..
- بيشتغل مع أبوكِ؟
- أيوه.. يعني آخد واحد فقران.. طول مابويا بيصرف عليَّ أنا في قبضة إيده ولازم أرضى بكل الليِّ يقوله وهوَّ دا الليِّ ماشي..

ماجدة:

- وأبويا فتح الله برضه عايز يجوزني واحد حدَّاد..

وتمايلت ماجدة يمنة ويسرة وألقت بخصلة شعرها على جنب وقالت في دلال مبتسمة:

- يعني يرضيك واحدة زيِّ في دلعي وجمالي تتجوِّز حدَّاد.

ضحك هشام وصفقَّ بكفيه وقال:

- لأ والله مايرضينيش.. إنتِ دلع قوي يا ماجدة.

وهزَّت ميادة رأسها وعقصت بشعرها خلف جيدها وزعقت في رقة:

- وأنا كمان يا بيه.. يرضيك.. مانا برضه دلع قوي..

.. وسعد هشام بجرأتهن وقال مطيبًّا خاطرهن:

- وانتِ كمان يا ميادة وفاتن وماجدة.. أنا نفسي معاكم حرام الواحدة منكم تتجوِّز حدَّاد ولا نجار.. لكن إنت يا فاتن برضه كده؟

- أنا اتجوزت وجرَّبت حظي يلعن الجواز وسنينه.. أنا عايزة أعيش حرَّة على الأقل أصرف على نفسي تعبت من الخبيز عند الناس والقعدة قدَّام الفرن..

.. وراح هشام يفكرِّ ويتأملهن واحدة بعد الأخرى، ولمّا شعرن أنهن ضربن وتدًا في رأسه قالت له ماجدة:

- يا بيه من الآخر.. من الآخر.. وسكتت.

فقالت لها فاتن:

- قولي.. سكتِّي ليه؟!

- بدل يا بيه ما بننزل البلد نشتغل ونتبهدل اعمل لنا مكان هنا..

ميادة:

- وأنت ماترضاش نتبهدل.. إحنا بنات بلدك.. مش الناس دي كلِّها من البلد اللِّي عملها هشام بيه.
- أيوه.
- معلهش بقى من عشمنا فيك اعمل لنا المكان وبعدين نتحاسب لمّا ربِّنا يعطينا..
- يا بت بطَّلي أونطة.

فاتن:

- يابيه كل اللـيَّ قالته ميادة صحيح.. عايزين الناحية دي فيها كل حاجة مش معنى عملت لفتح الله جامع ولبطرس كنيسة.
- علشان دا دين ماقدرش أتأخَّر عن أي مكان أقدر أعمله أو أساعد فيه يكون دين سماوي.. الناس جوَّة الأماكن دي بيقولوا أيه.. وسكت..

ماجدة:

- بيقولوا أيه.
- كلُّهم بيقولوا يا رب..

ميادة:

- وأحنا برضه بنقول يا رب.
- أنا احترت معاكم.. بس رب عن رب يفرق.

فاتن:

- ولو البلد فيها يهود هاتعمل لهم معبد.
- آي والله أعمل معبد.

- يا بيه الأوطان قبل الأديان.
- مش فاهم.
- يعني لو مفيش أرض في العالم دا كلُّه وفي ناس عايشين عليها كانت هاتنزل الأديان لمين؟
- الأديان نزلت علشان تنظمَّ حياة الإنسان وتدعوه للسلام والمحبة والعدل.
- دا كلام الأديان وتعاليمها نزلت بعد ما لقت الناس في ضلال مبين.. لكن مين سمع الأديان وطبَّق ولو مبدأ واحد من مبادئها..
- ناس كتير عملت وطبَّقت.
- لكن الناس الأكتر ظلموا ونهبوا وخرَّبوا..
- صحيح.. إنتم دخَّلتوني في حتت صعب قوي حيَّرتوني.. برضه يعني أيه؟!! دا كلام كبير قوي!!

فاتن:

- بلاش الكلام الكبير.. يعني بالله عليك مش فيه في إسكندرية ميت جامع وميت كنيسة وكذا معبد.. الناس في المدينة الكبيرة دي عملت أيه في أهلها؟ قولِّي عملت أيه؟
- مش فاهم.

ميادة:

- أحنا كلِّنا جينا هنا ليه.. لأن لو فيه عدل في البلد ماكنش فيه راجل سافر علشان يأكلَّ ولاده ولا ست مشيت بطاَّل علشان عليها مسئوليات ولاد وجوز بيشتغل يوم ويقعد عشرة.. يا بيه إنت مش داري بالدنيا ولاَّ أيه.. وكل الموظفين هناك مرتبهم

بيخلص في نص الشهر.. سابوا الناس على بعضها.. أكلوا البطة من فوق ورموا مصارينها للشعب، والشعب بيضرب نفسه بالشباشب علشان يقف في طابور وياخد حتة مصران.. الناس اللي ماسكة البلد مصمصوها وحتى العضم مش موجود.. هوَّ أبويا جه هنا ليه ولاَّ عم فتح الله جه ليه؟ ولاَّ الأفران دي بتعمل أيه؟ من الفقر كل واحد اتصرَّف في أكل عيشه.. يعني إنت يابيه بالله عليك جيت هنا ليه وعملت البلد دي ليه ولمِّيت فيها الناس الغلابة اللِّ طردتهم المدينة وعملت لهم كيان وعمل وبيوت؟ كترَّ خيرك عملت اللِّ ماعملوش حد..

- يا خبر إسود يا ميَّادة كفاية دا إنتِ عارفة كل حاجة.. كفاية وجع..

فاتن:

- يابيه ميادة قالت كل الأسباب والأوجاع واحنا عايزينك تكملِّ معانا وتعمل لينا بكل اقتناع محل.. مكان.. ملهى.. سمِّيه زي ما إنت عايز.. وسكتت..

فأكملت ماجدة قائلة في هدوء:

- شوف يا بيه عملت بلد فيها دلوقتِ كل حاجة.. حتى الجامع والكنيسة عملتها للناس بناءً على حاجتهم.. شوف بقى أهو لولا فيه ناس ماكنتش عملت دور عبادة.. يعني كلام فاتن صح إن الأوطان قبل الأديان.. وعلشان كده كان لازم نحافظ على الوطن ولولا إنت كانت الناس الغلابة دي في المدينة زادوها فقر وحرمان.. إنت عملت نفس للمدينة الكبيرة المفروض يعملوا ليك تمثال لأنك حلِّيت أكبر مشكلة في البلد.. يا ريت فيه ناس تانية عندها نفس الأفكار وتعمل مدن جديدة علشان مايحصلش انفجار في البلد الأصلي..

وأوقفتها فاتن عن كلامها الكثير حتى لا يضجر هشام فقالت:

- بكفاية يا ماجدة.. إحنا قلنا ما فيه الكفاية..

.. وأمسك هشام برأسه وقال وقد اعتراه شيء من الحزن:

- على فكرة أنا مازهقتش.. كل الكلام اللـيَّ سمعته منكم حاسس بيه من زمان وفي كل وقت..

ميادة:

- بالظبط يا بيه.
- وعلشان كده هاعمل اللـيِّ إنتم عايزينه، وعارف من يوم ماجيت هنا إن لازم الحتة دي يبقى فيها كل حاجة علشان ماحدِّش يروح تاني المدينة الكبيرة يشتغل فيها.. لازم البلد دي يبقى فيها كل حاجة ومش هايتحقق السلام والمحبة والعدل إلاَّ لمّا يكون في أي مجتمع كل حاجة عايزها الإنسان..

فاتن:

- الملهى هايلم بنات ونسوان وولاد عايزين شُغل غير الشغل الموجود فيها.. لازم يا بيه بصفتك صاحب البلد تعمل كل الأشغال اللـيِّ تساع كل إمكانيات الناس فيها وبكده نحقِّق الاكتفاء الذاتي للنشاط الإنساني كلَّه.. وبعد كده نحاسب الناس على أساس ما يحققه كل إنسان فيها من محبة وعدل وسلام.. لأن المفروض بعد ما بنوفرَّ كل الأعمال للناس نحاسبهم.. مش نحاسب الناس ومالهمش ذنب في فقرهم نتيجة إن مسئولي البلد أو الحتة أو الشارع ماوفرَّش العمل لكل الناس.. إدِّي الناس فرصة العمل الشريف وبعدين نحاسبهم..

- إنتم دخلتوني في حتت وحاجات مش قادر أرد عليكم فيها، بس أنا عايز أقول: هوَّ الرقص والغنا والملهى عمل شريف أو إنساني أو ضروري علشان الإنسان يعيش؟

ميادة وماجدة في صوت واحد:

- أكبر عمل إنساني هايكون في البلد..

هشام:

- طيب واحدة واحدة.. واحدة بس اللي تتكلّم..

رفعت فاتن يدها قائلة:

- أنا هاكمِّل يا بيه.. زي ما عملت جامع وكنيسة وممكن تعمل معبد لليهود.. هوَّ كل الناس في الحتة بيروحوا الجامع أو بتروح الكنيسة؟ طبعًا لأ.. كل واحد بيروح المكان اللي عايزة.. ولما نعمل الملهى يبقى عملنا اللي علينا لاستكمال الدنيا حوالينا، اللي عايز أي مكان في البلد يروحه سواء راح جامع أو كنيسة.. وفيه ناس هاتروح دور العبادة وهاتروح برضه الملهى، وفيه ناس كده وكده.. إنت هاتلاقي الناس على كل شكل ولون أحرار فيما يذهبون إليه.. إحنا نعمل الأعمال والأماكن والناس في أي بلد أو في بلدنا تروح مطرح ما تروح وهيَّ دي الحرية.. لازم نوفرَّ كل شيء للإنسان في الحتة علشان تبقى دولة فيها كل حاجة ومفيش حد يروح المدينة تاني.. المدينة اللي خلَّتنا نهجرها علشان مافيهاش حاجة للناس الغلابة، الناس دي كلِّها عدَّت البحر علشان تعيش..
- آه وجعتوني كفاية.. باختصار.. وسكت.

فاتن:

- باختصار أيه؟
- شوفوا المكان بس يكون بعيد شوية عن البيوت، وفي ناحية بعيد، الليِّ في الجامع أو الكنيسة مايسمعش الطبل والزمر..
- كلامك صحيح يابيه..
- من بكرة شوفوا الأرض وتعالوا.. حاضر الليِّ إنتم عايزينه ودا برضه الليِّ كنت بافكرَّ فيه للناس ويبقى مش عايزين إسكندرية في حاجة وبعد ما نعمل الملهى خبَّروني أيه الليِّ ناقص تاني.. لكن بعد الدوشة دي كلِّها عايز واحدة واحدة تقوم ترقص شوية..

.. وفي نفس واحد أطلقت كل منهن ضحكة رجَّت أركان الخيمة، وقامت كبيرتهن ترقص بعد أن خلعت عباءتها، وانعدل هشام واستلقى على شلتة أخرى ونادى إبراهيم وأمره بأن يحضر جوزة معمرَّة حالًا.. وكانت ليلة ممتعة اكتملت برقص ماجدة وميادة، وحجر جوزة بعده عشرة أو يزيد وكل من النساء الثلاثة يشاركنه دخان الجوزة الكثيف، ولمّا سطعت رأسه طلب من فاتن أن تبقى معه الليلة فارتمت في أحضانه.. وغادرت كل من ماجدة وميادة الخيمة قبل أن يسطع أذان الشيخ فتح الله معلنًا آذان الفجر.. تم بحمد الله وعونه (الجزء الأول)

****

"**بنتي وبنتك بترقص أيه العمل ياخويا.. يمكن تكون ندالة كمال هيِّ الحل**"

في واد بين تبَّتين أقيم الملهى في مكان يتسع لأكثر من ألف زائر، كان الرقص والغناء والطبل والزمَّر لا يصل إلى آذان من يصلِّي في جامع أو يعلي كلمة الرب في كنيسة،

ولمّا كان يؤذَّن لإقامة الفجر كان الناس يغطوُّن في نوم عميق إلاَّ قليلًا منهم يقوم ليصلِّي، وعندما تدق أجراس الكنيسة في السابعة تكون أفران الناحية قد تمَّ إشعالها بنيران جذوع الشجر وتكون نساء الخبيز أشرفن على استكمال عجين الخبز والفطير، وراح فتح الله يدق حديدة ومعه صبيته الحدادون، وبطرس يفرش الخشب فوق الطبلية وينشر لوحًا عريضًا بمنشاره الحاد، وبدأت المراكب تجلب الدراية للغنم والمعيز، ومراكب أخرى تحمل المعيز الولْدة من سوق الأربعاء الذي يقع غرب أبي قير في ضاحية تسمَّى الخضرة، وبدأ عكشة يشكو من قلة زبائنه مساءً وصباحًا بعد افتتاح الملهى، ولمّا بدأت أيام الملهى الأولى تنتشر أصداؤها بين رجال ونساء وأطفال الناحية، وأن زبائنه تزداد بالعشرات من يوم إلى آخر، واعتادت صفية السهر فيه وكان هشام يقضي معها وقت الرقص والغناء الصاخب الذي يبدأ في الحادية عشرة حتى أذان كل فجر ثم يصحبها إلى خيمته وأحيانًا تفضِّل لقاءه في كوخها حتى لا يتجسَّسَّ عليها إبراهيم حارس الخيمة، لكن في الليالي التي تذهب فيها صفية إلى المدينة لتوزيع المنتج كان هشام يأخذ فاتن إلى خيمته ليقضي معها بقية الليل وتنام معه حتى بعد ظهر اليوم التالي، ولم يكن أحد يجرؤ من أهل القرية أن يقول للعمدة: بتعمل أيه؟.. وكانت فاتن من أصل الناحية ولم يأخذها من المدينة كما فعل مع الأخريات ومنهم التسعة نساء وبنات اللائي جاء بهن من ترام الرمل كعادته، وكان دائمًا مع نفسه لو قدرت اتجوز عشرين لتزوجت ولكن زواجي بأربعة دائمًا يجعلني أعشق عليهن أكثر من عشرة أختارهن من حلوات الناحية، ولم أكن في حياتي أستطيع الاستغناء قبل استكمال الناحية من نساء ترام الرمل الذي ينتهي مساره حتى محطة فيكتوريا، وما أن بدأ الملهى يكتظَ بالزبائن من أهل الناحية حتى انضمت النساء التسعة إلى نشاطه، فمنهن من ترقص وأخريات تغني وغيرهن يفتح

للزبائن، وكان الملهى كبوتقة تخرج من كل إنسان مزاياه، وكأن الناس جميعًا يخبئون مواهبهم لكنهم كانوا يخافون من تزمت مجتمع مغلق وجاهل وفقير، ولم يكن في القرية جائع بعد انتشار صناعة المنتج وتوزيعه، ولم تكن أية أحاديث أو كلام دعاة الأخلاق هنا أي صدى فلقد شبعت بطون أهل الناحية جميعًا لمّا اشتغل الملهى وازدهر، وكان الناس في البيوت يقولون:

- ليه ماعملهوش من زمان مفيش واحد مالوش مهنة إلاَّ ووجد شُغلة في الملهى؟ عاش الملهى.. ربِّنا يخلِّيكِ يا فاتن.. تحيا العمدة.. إحنا كنا فين وبقينا فين شوف بنات الغلابة حلوين إزَّاي.. بقى فتح الله وبطرس يجيبوا الجنية ماجدة والجنية ميادة.. وغلبت البطون العقول، ومين قال علشان العقول تشتغل نجوع، طيِّب وأيه كمان.. دا قُصر ديل يا أذعر ومين يطول بنت زي دي إدتَّني فلوس ماكنتش أحلم بيها وبدل محل الحدادة التعبان ابتديت بفلوسها أتاجر في الحديد وأنزل أجيب مراكب حديد وأعمل شبابيك وأبواب حديد.. ولمّا قال الناس للشيخ فتح الله:

- بنتك بترقص عيب.

.. قال الله يهديها..

ولمّا غرَّقته بفلوس قال لهم: بنتي وهيَّ حرة، فقالوا له بس إنت شيخ! قال لهم هاحلقها.. فكررَّوا عليه.. طيب وبنيت الجامع ليه؟! فقال: علشان الناس تصلِّي فيه.. طيِّب حوش بنتك اقفل عليها البيت.. فقال: يعني أرجع للفقر تاني.. الفقر مش عيب يا شيخ.. طول ماحنا فقرا بنقول كده.. لكن لما عرفت الفلوس الفقر ستين عيب.. أرقصي يا بنتي ماحِّدش ليه دعوة بينا.. عايزين نعيش اوعي يا بنتي تبطلَّي رقص هوَّ الرقص عيب!!

إذا كان بيعدِّي الناس من الحاجة للاكتفاء يبقى أيه عيِّبه!! ما عيب إلا العيب يا ريت عندي بنت تانية.. كل واحد حر في حياته.. سيبوني أعيش يا ناس دعوا الخلق للخالق، والله أحلق دقني.. ربِّيتها أصلًا من الفقر وفي يوم كان أول يوم ابتدي أربيها ماكنش معاية موس أحلقها، أما خدمة الجامع من أذان وخطابة وإمام إذا كان الناس هايعيروني بيها بلاش أأدي أي مناسك ولا حد يقول بيأذِّن ويخطب وبنته رقاَّصة بلاش، هاروح المسجد أصلِّي واحد عادي وانتهى أمر حياتي على كده، لمّا بنتي تتجوَّز وتجيب ولاد ساعتها مش هاترقص، طول ما هي عازبة أهي شغاَّلة خير ليَّ وليها.. يا ناس ياهوه مالكوش دعوة بِّيه هو أنا لوحدي عملت جامع وبنتي بترقص، أنا في الآخر ليَّ دعوى بنفسي بس.. كل واحد كفيل نفسه، ما كل البنات بتدِّي أباَّهتها فلوس هانحقَّق معاهم جبتوا الفلوس منين، أنا باعتبر إن دا حنان هوَّ فيه حد يحرم نفسه من حنان بنته.. والله لو ما سكتوا لأرجع إسكندرية تاني..

.. وكاد فتح الله يطفش من الناحية إلى المدينة التي جاء منها مهاجرًا من الفقر والحاجة، وفي يوم ذهب إلى النجار بطرس وحكى له حكاياته مع الناس فقال له بطرس:

- نفس الكلام بيحصل معايا.
- والعمل أيه يا بطرس.
- العمل عمل ربِّنا.. ربِّنا كفيل بنا كلِّنا.
- وبعدين هانسيب الناس تتكلِّم.
- عندك حل تاني..
- نرجع إسكندرية.

- إرجع إنت.. يعني بلد شُفنا فيها الغلب وماصدَّقنا ربِّنا نجانا هانرجع للفقر تاني.
- تفتكر أخرتها أيه.. الناس خنقتني يا بطرس.
- الصمت والصبر.. يعني إحنا لو سبنا البلد دي إلى بلاد الله خلق الله.. هانقدر ناخد بناتنا معانا ونبطَّلهم الرقص..
- الكلام دا جديد ماسألتش ماجدة السؤال ده..
- طيِّب أنا من ناحيتي سألت ميَّادة.
- قالت لك أيه؟
- بقى يا بابا بعد ما ربِّنا كرمنا نسيب أكل عيشنا ونرجع تاني للفقر، دا أنا الليلة باخد فيها الشيء الفلاني وإنت يا بابا ربِّنا وسَّع عليك وبقيت ملك النجارين إحنا ما صدَّقنا لقينا رزقنا..
- وممكن ماجدة بنتي تقول نفس الكلام..
- جرَّب وشوف.. ميادة وماجدة أصحاب وفكرهم زي بعض. يا فتح الله بلاش نسيب الدنيا الحلوة الليِّ احنا فيها بكلام ناس لا يودِّي ولا يجيب..
- وبعدين.
- ولا قبلين.. إحنا كده صح.. علينا بالصمت والصبر.. إنت عارف وأيه كمان.. نشتغل وتشتغل نموِّت نفسنا من الشغل علشان نحافظ على حياتنا..
- يعني إحنا صح؟
- إحنا وبناتنا صح..
- الله يكرمك.. ريَّحتني يا بطرس..

****

وبدأت أغار من الملهى ومن راقصاته وتمنيت أن أكون راقصة أو مغنية لكنني شعرت أنني لن أستطيع لأن هذه أعمال تبلغ من الخفة والرشاقة ما لا أستطيع عمله الآن، أشعر أنني فقط عاشقة لهشام وموزعة للمنتج الذي من خلاله تعّرفت على ناس كتير، ومرَّت أيام أخرى فيها ماتت أمي ولمّا أبلغني أخي كمال بموتها ذهبت إلى بيتنا في عربة أجرة حتى ألحق غُسلها.. ووجدت كمال وأخي الكبير وزوجته وكان أخي قد أبلغ نور فجاءنا بعد وصولي وبعد أن انتهى تغسيلها، وبكيت أمي بكاء شديدًا هزَّني ولم أكن أتخيل أنني سأبكي عليها كل هذا البكاء رغم أنه لم يكن غير القطيعة بيننا في السنة الأخيرة، وبقيت في بيت أمي ثلاثة أيام فيها أخذ نور بقايا ملابسه وعاد أخي الأكبر وزوجته إلى بيتهما، وتركت كمال وحيدًا في شقة الراحلة بعد أن تحدَّثت معه كثيرًا عن حياتها في أيامها الأخيرة فأبلغني أن نور منذ شهور طويلة هجر البيت وبالطبع هجر أمي وتركها حزينة حتى أنها منذ شهرين كانت تفقد وعيها ولا تدري بمن حولها لساعات طويلة، وبعد أن أمضيت ثلاثة أيام في بيت أمي مع كمال قلت له في اليوم الثالث قبل أن أغادره:

- الليِّ مات مات يا كمال مش المفروض تتجوِّز بقى؟
- لمّا آخد الماجستير الأول.
- خلِّيك في الكتب طول عمرك.. اتجوز علشان يبقى ليك بيت وولاد..
- كلُّه بيحصَّل بعضه.. يعني الليِّ اتجوزوا عملوا أيه؟!
- وليه التشاؤم ده يا كمال.
- أبدًا أمي اتجوزت وخلِّفتنا عملت أيه لينا؟
- بكفاية عليها ربَّتنا وكبرَّتنا..

- كلُّه كلام خايب.. بالله بعد موت أبوك عملت أيه أمِّك؟!
- عملت أيه يا كمال.
- سكنَّت غريب في بيتنا وإنتِ عارفة بقية الحكاية.
- يا نهار إسود يعني إنت عارف كل حاجة!! أمالَّ ماتكلِّمتش ليه؟!!
- أكلِّم مين؟ أكلِّم أمي!! قفلت على نفسي الدنيا كلها وكنت باقعد ساعات أبكي على الحال حواليه.. وعلى فكرة كنت باسمع أمي وهيَّ معاه.
- يا نهار إسود!.. إنت صنم يا كمال.. شايف وسامع وساكت؟!
- دي أحسن حاجة عملتها في حياتي.. كان لازم أستر على أمي وعلى بيتنا علشان مانبقاش فضيحة في الحتة.. ياما ناس بيحصل لها أكتر من كده والحيطان مدارية.. تعرفي أحسن حاجة في البيوت أيه؟
- أيه؟
- الحيطان، وإن يبقى فيها ناس زي الحيطان بالضبط..
- طيب ماكلِّمتنيش ليه في الموضوع.
- أكلِّمك في أيه وانت أصلًا عارفة كل حاجة.. عملتِ أيه؟
- ماعملتش حاجة خالص..
- كان عندك مصيبة اسمها عبد الشكور.. ألاَّ هوَّ لسه مارجعش؟
- لغاية دلوقتي لا حس ولا خبر عنه.
- كنت بادعي عليه مايرجعش وربِّنا استجاب..
- وأنت دلوقتِ فين.. فين أراضيك.
- جاي بعد تلات سنين تسألني إنتِ فين وفين أراضيك!! مش معاك تليفوني؟

- زي ما قلت بالضبط أنا زي الحيطان بتاع البيوت.. نشأت على كده وخدت على التناحة دي أكتر لمّا شفت أمك مع الساكن.. يعني لو أنا واحد حمش مش كان فيه فضايح ويمكن لو حد غيري كان قتل أمه.. شفت بقى إزَّاي حافظت على أمك وعلى نفسي وماعرفشي إنت فين لغاية دلوقتِ.. تسمِّي دا كله أيه يا صفية؟
- بصراحة وماتزعلشي؟
- لأ مش هازعل.
- ندالة.. دي ندالة يا كمال وهاتبقى كده لما تتجوِّز مع مراتك.
- ماعرفشي.. ويمكن ماتجوزش خالص.
- لو كانت الندالة هاتبقى معاك على طول بلاش جواز..
- هيَّ باينه كده.. ماجاوبتنيش إنت فين دلوقتِ؟ سيبتي بيتك وروحتي فين؟
- في الدنيا يا كمال.. ممكن أطلب منكَّ طلب.
- أطلبي.
- تبقى اسأل على أختك ولو كل أسبوع مرَّة..
- لمّا حد يسأل عليَّ أسأل عليه..
- أد كده الندالة فيك..
- الندالة في ناس كتير.. إسأليني على الندالة أقولك فيها حواديت مهولة جارية في البلد دي..
- طيِّب أنا ماشية مش عايزة أسمع حاجة.. لمّا تموت يا كمال مين هايكلِّمني؟
- لمّا تبقي تيجي مرَّة هاتلقيني مُت والناس دفنوني..
- يا خسارة.
- يا ألف خسارة عليَّ وعليك.

****

"الدنيا تنقله وتهديه زواج ومحل وضيف صغير"

.. لم يكن نور يدري أن في الحياة دروبًا كثيرة فيها يحتار الإنسان ولا يصدِّق أنه بين جوانب هذه الأحياء وفي شوارعها حظًا وفيرًا يغنيك من امرأة ظهرت فجأة، وأنَّ من نشأت على البساطة وواقعية تقوم على الإيمان بأن الله في أي وقت يأتيك بمن ينقذك مما أنت فيه من حيرة وتردُّد، وكانت تلك المدينة مثل خيمة لا أعرف من بداخلها ولا أستطيع وحدي تفسير ما كان لي من دفء وحنان منفعي بين امرأة عجوز وأنا، ذلك الغريب الذي لا يرى في البلدة كلِّها إلاَّ بيت هذه السيدة وسرير غرفتي الذي تهتم به كثيرًا ترتِّبه وتنظفه وتفرش فوقه ملايات مزركشة ثم ترش عليه بعض من عطرها حتى إذا استلقيت عليه بعد الغداء وشربت الشاي أخذني عطرها فوق فراشي قبل أن يأخذني عطرها الذي يعبق في جسدها كله، دوَّامة من العطر وكل يوم عطر جديد اشترته بسخاء من معاش زوجها الذي ضمَّه التراب منذ سنين قليلة، ولم أعرف أنه بين الحياة والموت اختلاف المكان، فذلك الذي راح في التراب كان يرى نفس الجسد ويلقاه ولم تكن زوجته تضع له أي عطر.. كانت تلقاه لأنه زوجها من أصل قريتها، ولم يكن الرجل العامل الغلبان المكافح يعرف أسرار المرأة وأعماقها، ولم يكن يدري بشيء أن المرأة في أعماق الريف هي نفس المرأة بأسرارها في أحياء أرقى مدينة.. شوارعها الفقيرة مثل شوارعها الغنية، المرأة هي المرأة في أي مكان، وأن المرأة هذه لم تمنحني أرق ما في نفسها من تباريح وآهات، ولم تعطني جسدها العطشان بهذا المزاج إلاَّ بعد أن دخلت في مزاجها بعد شهرين من سكني في بيتها ولم أكن أدري..

بالمستحيل تركت بيتها واحدة بعد أخرى حتى لا تصدم بفراقي مرَّة واحدة، مرَّة أذهب إلى القاهرة أسبوع، وحجة أخرى بأنني مسافر إلى مطروح في مأمورية، حتى استطعت الزواج من أميرة وشعرت في بيتها بدفء آخر وحياة أخرى تختلف، ولأول مرَّة في حياتي أشعر أن لكل امرأة دفء وطعم ورائحة، ولولا هذا الاختلاف ما كان لكل امرأة باع في بلف الرجل، ومن طعم وروعة أميرة المطلَّقة صاحبة الخامسة والثلاثين عامًا والتي تكبرني بثلاثة أعوام، أن في أميرة التي أخذتني بائعًا للخضروات وشاركتني في أيام كثيرة بيعها لأهل حيِّها ولم تخجل إذا عرفها أحد من جيرانها، بهذه البساطة وبهذه الأخلاق التي تربَّت في حضني حنان أبيها وأمها، أنه توجد امرأة بين هذه الشوارع والميادين من أصل بنات الناس تبحث عن رجل بمعنى أنه رجل بعد أن مرَّت بتجربة أدركت فيها بأنه ليس كل الرجال رجال، وكنت أظن أنه لا يوجد أحلى ولا أمتع من أمينة امرأة في مدينتي كلِّها، ولمّا تزوجت من أميرة وأعطتني مثل ما أعطت أم ياسر وأم كمال، شيء مدهش وهذه أميرة تعطيني العطاء الثالث من امرأة في حياتي، حياة أسبوع مع أم زميلي في المدرسة تلك التي تعيش في وسط القاهرة، وهذه العجوز والتي عشت معها أكثر من عام عاشقًا، ولم أكن أدري أنني أزني حتى تزوجتها، انتقلت إلى تلك المرأة الثالثة والتي معها أعيش معها كل الحياة.. وكان هناك شعور في داخلي ينمو أنه لو كان واقعي قويًا لتزوجت من الكثيرات، ومرَّت أيامي مع زوجتي والتي حملت مني في يومها الأول معي، ولم يمنعها حملها من خدمتها لي في طعامي وملبسي وغرفتي مثل غرفة في مصر، كانت أميرة راضية عن كل شيء أفعله معها في البيت وخارجه، ولم أكن أفعل غير الطيِّب معها ومع أمها، وأيقنت أنني مع ناس يخافون عليَّ حريصون على مصلحتي، فأقاموا حياتهم معي كاملة، ومضت الأيام وكأنني ابن هذه الأم التي

عاملتني بالطيب وما لم تفعله أمي معي حتى ماتت فور انتهائي من دراستي الجامعية، وهذه أم ثانية بعد أمي أرسلها الله رحمة لي، فأخلصتُ لأميرة بكل ما استطعت، وكلَّما كبرت بطنها واستدارت أخذتُها في أحضاني ورحت أداعب الطفل في أعماق أمه، فتضحك في أمان قائلةً:

- بتحبه يا نور؟
- علشان في بطن أميرة لازم أحبه.
- حتى وأنا مبشكرة كده؟
- إنتِ غيرتي حياتي كلها.. بكفاية لقيت واحدة تحبِّني وتقرَّب مني وتعطيني الثقة في نفسي وفي حياتي، يعني لولاكِ كنت هاروح فين؟!
- كويس قوي يا نور وعلشان كده.. وسكتت.
- وعشان كده أيه؟
- في شارع المنشية الكبير قبل بتاع العصير فيه محلات بتتباع..
- وبعدين؟
- روح النهارده بعد ما تخَلَّص شغلّ اتفرج عليها..
- وبعدين؟
- ناخد محل منهم.
- عشان؟
- علشان يبقى لينا محل.
- بس أنا.. أنا مامعييش دلوقتي حاجة..
- إنتَ معاك كل حاجة.. أنا معايا يا نور.

- دا كده مش قادر أشيل جمايلك.
- أرجوكُ تسكت أحسن.. هوَّ فيه أكتر من السعادة اللي عايشة فيها.. إنتَ السبب في دا كله يا نور.. وبعدين هوَّ فيه فرق معاك أو معاكش أنا معايا.. فيه أيه بقى أيُّوه يا نور!
- خلاص طالما قلت أيُوه خلصت دي أحلى كلمة أحب أسمعها من أي حد في إسكندرية.
- لأ لأ.. أي حد لأ ممنوع تسمعها من واحدة غيري..
- طبعًا طبعًا.. أحلى أيوُّه منك يا أميرة..
- يا ريت.. خلَّص بقى يا نور النهارده علشان نلحق محل من دولت..
- هاروح بعد الشغل.
- قبل الواد ما ييجي علشان يطلع في الدنيا يلاقي أبوه تاجر أد الدنيا..
- دا فضل من ربِّنا إنك مراتي.
- وأنتَ كمان.

****

.. وتم شراء المحل في أيام قليلة وانتهينا من تجهيزه بعد أسبوع، وكان نور يذهب إلى السوق الكبير ليشتري الخضار، أما وبعد أن تبدَّل الحال، كانت حوافر البغل تجر عربة التاجر الموزِّع على المحلات تدق على باب نور لتصله البضاعة إلى المحل كل يوم في السابعة صباحًا، وقدر ما استطاعت أميرة وهي حامل ساعدت زوجها حتى الأيام الأولى من افتتاح المحل، ولمّا لم تعد قادرة أقعدها الحمل في سريرها ولم تعد تخرج من البيت، وكانت أمها تساعدها في بعض حاجياتها الخاصة بآخر أيام الحمل، وكان

الطبيب يأتيها كلمَّا أحسَّت بوجع، وجلبت السيدة الكبيرة واحدة من الشغالات تقضي لهما أعمال البيت من طبيخ وغسيل وكنس، ولمّا كان يعود نور من عمله قبل المغرب بقليل تاركًا عاملًا يشتغل في المحل حتى العاشرة مساءً كل يوم، أول ما يعمله يدخل غرفة أميرة متلهفًا فتخرج ذراعيها من تحت اللحاف لتطوِّق عنقه ثم تجذبه ليجلس على حافة السرير بجانبها لتحكي لها ما آلمها طول اليوم ومخاوفها من ساعة الولادة التي باتت قريبة، وكان نور قد أخبرها بأنه حجز لها في مستشفى خاص للولادة قرْب الشاطبي وكان يطمئنها بالسلامة، ورغم آلامها وهزالها وضعفها كانت تغار عليه قائلة في رقة بالغة وهي تتحسّسُ كف يده:

- إوعى واحدة تشغلك عني.
- إزَّاي دا يحصل! إنتِ العالم الجميل من قبل ومن بعد.
- صحيح.. يا ريت.. أنا بخاف عليك.
- اطمئني إنتِ الدنيا كلِّها ماليش غيرك يا أميرة.

وينحني على يدها ويقبلِّها فتطمئن وتهدأ أو تمسك برأسه قائلة:

- نام جنبي شوية ماتسيبنيش.

ينام بجانبها ويحتضنها فتذهب في نوم لم تنمه طيلة النهار ويذهب نور في نوم أمين عميق من تعب يومه..

.. ومضت أيام الحمل الأخيرة ونور يوليها من الحنان والدفء وملازمتها في نومه معها حتى يقوم إلى عمله صباح كل يوم، وكانت تزرف من الدمع السخين ما لم تعرفه من قبل من شدة حنان نور لها في أيام ضعفها الأخيرة قبل أن تلد.. ومرَّ الشهر التاسع بسرعة حتى بلغت ليلة الولادة، وكان المطر في أول الليل يسقط بغزارة حتى توقف في

منتصفه ومرَّت ساعات أخرى وبدأت أميرة تصرخ وكأن ما في بطنها ينزلق إلى تحت هكذا قالت لأمها، ولمّا راحت السيدة كاظم تتحسس بيدها بطن ابنتها قالت وهي تنظر إلى وجه نور:

- هاتولد على الصبح.
- طيِّب مستنيين أيه يا ماما.. نجهِّز نفسنا يا ماما..
- هاقوم أجهِّز هدومها وهدوم البيبي بالكتير نص ساعة وأنزل هات تاكسي.

وكانت أميرة جد خائفة وتدعو.. يا رب.. يا رب.. وكانت تفتح عينيها فإذا لم ترى أمها قالت لنور: فين ماما؟ وإذا لم ترَ نور قالت لأمها: فين نور؟ ثم يغلبها النعاس.. وبعد قليل من الوقت قالت الأم لنور:

- خلاص أنا جاهزة يابني.. ثواني أدخَّل أميرة الحمام وأغيرَّلها بعدها تنزل تجيب عربية..
- حاضر يا ماما.

وبعد ساعة من أذان الفجر قام نور وصلَّى واقترب النهار من بزوغه فحمل أميرة بين ذراعيه ونزل بها درج طابقين تحت طابقه وكانت تعانقه هامسةً.. يا حبيبي تقيلة عليك.. يا حبيبي.. يا رب أسعدك يا نور.. ادعيلي.. والسيدة كاظم تجر في يدها حقيبة وكلما نزلت درجة تقول.. يا رب.. يا رب نرجع بالسلامة.. ألف سلامة يا بنتي ربِّنا هاينجيِّكِ.. يا رب.. حملتهم العربة إلى مستشفى الإمارات بالشاطبي.. وكانت الغرفة التي حجزها نور جاهزة لاستقبال حالة الولادة.. انحنيت على وجهها ورُحت أقبله وهكذا فعلت الأم، ودخلت طبيبة ومعها ممرضتين فقالت في كياسة:

- يا ريت تتفضلوا.. باين الحالة مستعجلة..

.. وكانت أميرة تتأوه وبدأت تصرح، فخرجنا إلى صالة صغيرة قرب الغرفة التي بها أميرة.. وراحت السيدة كاظم تقرأ في كتاب الله والذي تحتفظ به دائمًا في حقيبتها، ورحت أدعو لها وأرقب باب غرفتها وانتظر، والسيدة مستغرقة في قراءاتها، حتى أنني قلت في نفسي: يا بختها شغلت نفسها بما هو خير..

.. ولدت الأميرة ولادة طبيعية، وكم من السعادة جمعتنا ونحن ننحني نقبل جبين الطفل الصافية، وأشبعتها قبلات في رأسها ويديها وكانت مغتبطة لمّا منَّ الله عليها بأحمد، ولمّا ناداه أبوه باسمه باركت هي وأمها الاسم.. وهوَّ فيه أحسن من كده اسم؟ وبناءً على رغبتنا مكثت أميرة وطفلها ثلاثة أيام حتى تكون هناك رعاية كافية، وحملت الأم وطفلها صباح اليوم الرابع وعدنا إلى البيت في قمة حمدنا لله، وكانت الأم تنتظرنا هناك بعد أن عملت ما يلزم في البيت وغرفة أميرة من نظافة وترتيب وتغيير فرش ونثرت في البيت كله العطر الذي تفضله ابنتها وأشعلت عود بخور في كل ركن بالمنزل، هذا غير أنها أدارت المذياع على إذاعة القرآن، وصدح في البيت كل ما هو طيِّب، ونزلت إلى الصيدلية لأشتري كل ما هو مطلوب للأم وطفلها ثم تسوقت ما يلزم البيت والوالدة من أشياء طلبتها السيدة كاظم، ولمّا عدت أمسكتني أميرة من ذراعي وشدَّتني إلى فراشها قائلة:

- ماتسيبنيش خلّيك لغاية ماقولّك روح لشغلك..
- الصبي في المحل عارف هايعمل أيه.. مش هاسيبك.. بعد ما جه أحمد أسيبكم إزَّاي!!
- تعالى الناحية التانية وخلّي أحمد بينَّا.
- حاضر يا روح قلبي..

****

"حتى كمال فعل كما يفعل الناس ولكن أنا ماذا بعد لقائي بعبير"

.. كان هشام يضطجع في خيمته منعمًا بالنعيم وجمال عزِّه في ناحية صنعها من الفقراء الذين كانوا في المدينة بلا عمل ولمّا جاء بكل هؤلاء المكافحين أصبح لكل منهم مهنة فلم يعودوا فقراء، وكان يحِّدث نفسه كثيرًا فإذا جاءته فاتن رئيسة الملهى سعد واستراح وراح يكلِّمها، ولم تكن ماجدة ابنة الحدَّاد ولا ميادة ابنة النجار بعيدتين عنه، ولمّا كان يدعوهما ترقصان له وتغنيان بشكل خاص بعيدة عن الملهى، وكان يأخذ راحته مع الثلاثة هؤلاء، خاصةً إذا كانت صفية في المدينة توزِّع الكيف؛ حيث تمكث هناك يومين وثلاثة وتذهب إلى شقتها في بيت أمها التي كانت تجول وتصول في شقتها، فذهب نور إلى حاله وذهبت أمها إلى القبر ولم يبق إلاَّ كمال، وكانت تشعر بحنين كبير يشدُّها إلى بيتها كلَّما نزلت الإسكندرية، وكانت دائمًا تسأل شقيقها الذي أصبح طبيبًا في إحدى المستشفيات الخاصة:

- ألاَّ مفيش خبر عن جوزي؟
- إذا كنت رحت التوكيلات الملاحية نفسها ودوخت في السؤال عنه ماحدِّش عرف حاجة أنا هاعرف يا صفية؟!!
- يالَّه هوَّ راح وانتهى، الظاهر لمّا دعيت عليه كانت أبواب السما مفتوحة.. الحمد لله لا كانت عشرة كويسة ولا حياة ولا ولاد.

.. فيقول لها كمال:

- اتجوزي يا صفية لو كانت فيه فرصة كويسة..
- يا حسرة كان البخت جه وأنا بنت.. هيَّ البنات لاقية تتجوز في الزمن الأغبر ده.

- ولا الشباب.. إنتِ عارفة المشكلة أيه؟
- المشكلة أيه.
- مافيش فلوس ولا سكن ولا عمل فيه أمان للشباب؛ وعلشان كده الشباب يا إما بيتسلوا مع البنات أو بيرافقوا، واللـيِّ معاه فلوس شوية ومش قادر يتجوِّز برضه شغاَّل مع مومسات في شقة واحد صاحبه.. العملية نحكشة وفوضى مالية البلد، واللـيِّ بيضيَّع البنت أو الست إذا كان الراجل ضايع يبقى البنت هاتجيب راجل يصونها منين إذا كان هوَّ ضايع أصلًا..
- إنتَ عارف لو جيت زُرتني مرَّة في المصنع هاَتشوف البنات والنسوان ماليهم عدد والشباب نفس الحكاية كانوا كلهُّم في المدينة صايعين ضايعين.. هشام لم الناس دي كلها وعمل لكل الناس هناك صغيرَّين وكبار عمل ومهنة وبيت.. من الفقر والهم والضياع عمل مدينة واقعية لكن لمّا تشوفها وتتأملها تقول إنها شيء من الخيال..
- فين البلد دي؟
- في البحر.. جزيرة.. البحر بيحضنها من جميع النواحي..
- وإنتِ مبسوطة هناك؟
- دا اللـيِّ لقيته.. هيَّ الواحدة لمّا ماتلاقيش بيت يحتويها ولا راجل ولا عيِّل ولاَ تِّيل، ولا إخوات بيسألوا عنها وزوج طفش راح ومارجعش تفتكر أي واحدة تعمل أيه.
- تطهق.
- أنا طهقت يا كمال..
- تفتكري مين اللـيِّ عمل دا كله في البلد؟

- يعني واحد بيحكم البلد غصب عنها وعمالّ يسرق في البلد من تلاتين سنة بالزور والبهتان.. شيء طبيعي البلد توصل لكده..
- والعمل أيه؟
- هاييجي يوم كل حاجة في البلد تنفجر..
- إمتى؟! يا ريت كل ظالم ياخد جزاؤه وكل واحد في البلد ياخد حقُّه.
- مسألة وقت مش ممكن الوضع يستمر كده.
- خلّينا في حالنا إحنا.. إمتى هاتتجوِّز يا كمال؟
- لغاية دلوقتي مافكرتش في الجواز.
- لازم تتغير وتفكرَّ بشكل تاني.. مش معنى إن لقيت ماما مع الساكن تبقى الدنيا إتهدِّت يا كمال.. أمك ماتت وأبوك مات والساكن مشي من هنا.. إبدأ من جديد..
- لو قدرت أنسى هابدأ.
- كويِّس إنك بقيت تاخد وتدِّي معايا.. إبتديت تتغير يا كمال.. على المرة الجاية لمّا أنزل تكون اتقدِّمت خطوة تانية.
- بتنزلي كل أد أيه؟
- كل أسبوع أو عشرة أيام.
- وعايشة هناك إزِّاي مع مين؟
- ليَّ كوخ لوحدي..
- إنتي بتعملي أيه يا صفية؟

- موزِّعة.. باخد البضاعة ولـيَّ زبوني في البلد ولمّا أخلَّص أستريح شوية وآجي بيتي وأروح تاني..
- بضاعة زي أيه؟
- هوَّ كيف زي المعسِّل كده..
- إوعي يكون حشيش؟
- لأ لأ تف من بقك.. مش ممكن توصل لكده!
- طيِّب وإنتِ عايشة لوحدك كده من غير راجل.. طول عمرك محرومة من الرجَّالة مافيش حل..
- لو قلت لك حكايتي هاتعمل أيه؟
- إنت مرافقة يعني؟ قولي.. إذا كنت شفت أمك قدَّام عيني ولا عملتي حاجة.
- مرافقة يا كمال.
- عادي هاتعملي أيه مافيش حد نفعك يبقى لازم تنفعي نفسك.. مرافقة كام واحد؟
- واحد اسمه هشام.. هوَّ صاحب الناحية وله فضل كبير عليِّ..
- كان لازم تردِّي جميله عليكِ.
- هيَّ الست تعمل أيه غير كده.. لمّا واحد خدني من الشوارع وأنا تايهة يا ترى كان هايبقى مصيري أيه.. أنا دلوقتي في وضع أحسن من المومس.. بكفاية إن معايا راجل واحد بس بدل اللغوصة لو عملت مومس..
- ألاَّ عبير صاحبتك لسه كده؟
- من زمان ماتصلتش بيها.. بس أكيد هيَّ زي ما هيَّ..
- في يوم جت سألت عليكِ هنا لمّا مالقتكيش فوق..

- قلت لها أيه؟
- مااعرفش.
- وبعدين مشيت؟
- لأ دخَّلتها وقعدت معايا شوية.
- بس كده.. خلِّيك صريح يا كمال لا هالومك ولا هالومها..
- قالت مش عايز حاجة.. قلت هاعوز أيه.. فراحت تضحك ضحكات ماجنة..
- وبعدين.
- قالت عمرك ما جرِّبت.. قلت لها لأ.. مافيش فرصة أصلًا..
- وبعدين.
- قالت.. أنا عمري ما جرِّبت شاب قفل يا كمال.. قلت لها أنا لسة قفل يا عبير؟
- أنا زهقت من الرجَّالة الصايعة نفسي في واحد نضيف زيَّك يا كمال.
- عملت أيه بعد كده.. قلت لها أيه؟
- أنا عمري ما انكشفت على واحدة.
- وبعدين؟
- قالت لي طيب وساكت ليه؟
- أتكلِّمي إنتِ يا عبير.
- طيِّب تعال جوَّه.
- خشي قوضة أمي علشان أفتكرها.
- وخلَّصت يا كمال..

.. وراح كمال يحكي لأخته صفية:

- أنا عمري ما كنت أعرف إن الدنيا حلوة كده مع واحدة واتندمت إنِّي ماعرفتش أي واحدة من زمان.. وأمي كانت ليها حق تتبسط مع الساكن.. تقريبًا بعد كده أنا ماعجبتش عبير ماجتش تاني وقعدت كذا يوم أكلِّمها في الموبايل كانت بتقفل، بعد كده أصرِّيت إنِّي لازم أنزل وأجيب أي واحدة البيت.. ماعرفتش كنت عبيط والستات بيحبُّوا الواحد الحرك وأنا فعلًا قفل مافيش واحدة جت معايا.. وسكت كمال..

فبادرته صفية وبعدين اتعقدت وسكت:

- أبدًا.. الليِّ حصل إنتِ فاكرة صاحبتك تحية زميلتك في الكلية؟
- أيوه ما هي ساكنة ورايا..
- جت مرَّة مالقتكيش خبَّطت عليَّ ودخلت تسأل عليكِ وقعدت تسمع عن أحوالنا وبعد ما اتكلِّمنا عن حاجات كتير صُعبت عليها ودخلت المطبخ تعمل لي أكل..
- وبعدين؟
- عرفت إنِّها اتجوزت واطلَّقت علشان مابتخلفش.
- إديتها تليفوني؟
- إديتها.. كلِّمتك؟
- أبدًا.. أصلها تايهة على نفسها.
- معاك تليفونها؟
- معايا خديه..
- بتكلِّمك؟
- على طول وبتنسَّق معايا..

- إزَّاي؟
- ما هي من يومها بتجيلي في الأسبوع مرَّة أو مرتين حسب الظروف..
- بتحكو ولاَّ فيه حاجة؟
- شبعنا حكايات في الأول لدرجة إنها في يوم قالت إنت حجر يا كمال..
- وعملت أيه.. قلت لها أيه؟
- أنا مكسوف منِّك علشان صاحبة أختي.. قالت لي تتكسف من أيه.. يرضيك أدوَّر على حد يرافقني في الشوارع أنت مضمون بالنسبة لي يا كمال؟
- وبعدين خلصت الحكاية؟
- من ساعتها بتجيلي حسب وقتي ووقتها وكل حرصها توصيِّني دايمًا ماتقولش لصفية..
- دي عبيطة وأنا هاعملِّها أيه.. المفروض أشكرها بتبل ريق أخويا كمال.. على الأقل فكتِّ عقدتك.
- آي والله يا صفية أنا مبسوط قوي معاها.
- جايَّالك النهارده.
- النهارده هاتيجي تبات معايا لأول مرَّة لأن أمها سافرت دمنهور..
- طيِّب أمشي أطلع فوق أحسن تتكسف منِّي..
- ربِّبنا يخلِّيك يا صفية بتحبي أخوك.
- باي يا كمال.

****

دخلْت بيتي الذي أجد فيه راحتي وأماني، وتمنيت لو كان عندي دخل ثابت من عمل ولا أخرج من بيتي هذا، وفكرَّت لحظة أن أذهب إلى التأمينات الاجتماعية لأعمل إجراءات الحصول على معاش أبي لأنني مطلَّقة، وفي لحظة أخرى وجدت أن الموضوع شائك لأنني لم أطلَّق ولكن كيف أثبت أن زوجي غائب منذ سنين ومن حقيِّ الحصول على الطلاق بحكم محكمة، وفي لحظة ثالثة أدركت أن الموضوع عايز صبر ووقت ودوخة فألقيت تلك الأفكار ورُحت أفكرِّ في وضعي الآن مع حياتي في تلك الناحية، وأن هشام هذا له من الصولات من يوم لآخر مع نساء جُدد يصلن إلى الناحية، وشعرت بأنني في متاهة وكان عليَّ بعد كل هذا المشوار من حياتي أن أسأل نفسي إلى أين.. خابرت نور:

- آلو نور فاكرني؟
- إنتِ مين؟
- أنا صفية بنت أمينة.
- ياه إزِّيك.. إنتِ فين؟
- في الدنيا الواسعة.. إنتَ لسه في إسكندرية؟
- أيوه هاروح فين!
- أنا في البيت ماتيجي شوية.
- أنا اتجوزت وعندي ولد.
- صحيح.. أفهم من كده مش عايز تيجي.. خايف منِّي هوَّ أنا عملت معاك حاجة؟!
- أبدًا أنا خايف من كل اللي فات.

- خايف من مراتك ولاَّ مني؟
- خايف على حياتي كلِّها بعد ما شفت المر ولقيت الست الكويسة إللي وقفت جنبي وربِّنا كرمني من ساعة ماتجوزتها..
- هوَّ أنا بعبع يا نور؟!
- لأ والله ماقلتش كده.. خلِّينا نطمِّن على بعض بالتليفون.
- حقك يا نور.. باي..
- باي..

.. أيقنتُ أن حرية حياة الإنسان حق مكفول له، من داخل نفسي احترمت حوار نور معي، ولم أكن أعرف من صديقاتي معرفة عميقة غير عبير، اتصلت بها:

- آلو.
- أيوه يا صفية إنتِ هنا ولاَّ هناك؟
- أنا هنا.
- ماتيجي شوية.
- هاتخرجي من البيت الساعة كام؟
- مش هاخرج النهارده.. تعالى واعملي حسابك تباتي معايا.
- خلاص يا عبير هاجي على بعد المغرب.
- مستنياكِ.. باي..

.. فوجئت لمّا وجدت عبير تغيَّرت وكبُرت وبدأ جسدها يترهَّل وتظهر علامات سوداء تحت عينيها وشقوقًا مثل خطوط في جيدها قد ارتسمت وحفرت تحت وجهها مظاهر

أبعدتها عن رونقها الذي كان من قبل، وكنت أتأملها بحزن ولمّا لاحظت أنيِّ أتفحصها مندهشة قالت لي:

- إنتِ شايفاني كويس يا صفية؟
- إنتِ عبير ماتغيَّرتيش.
- لأ اتغيَّرت.
- إزَّاي.. إنت زي الفل.
- شوف أكتر من عشرين سنة كل يوم مع راجل لمّا بقيت شايخة وعجزَّت بدري.. ولو كنت ماشية بما يرضي الله عمر ما كان شكلي هايبقى كده وبهاء وشيِّ راح.. لا نضرة ولا أي جمال.. بقيت زي الأرض الكالحة الليِّ ماينفع فيها ميَّة ولا سباخ.. سوقي انضرب مابقتش أساوي حاجة درجة تالتة رابعة مافيش عندي أحسن من الليِّ عندي أقدّمه.. مش قلت قبل كده هاييجي يوم أوصل لكده..
- آه يا عبير ماتزعليش قوي كده.. المهم هاتعملي أيه بعد الحال ده؟
- العمل عمايل ربِّنا.. لمّا باروح أي محل بقت الزباين تقعد معايا بس ولا حد عايز ياخدني زي الأول.. فيه غيري كتير لسه ورد بقت الدنيا ملكهم وأنا بقيت خردة..
- طيب من الآخر ها تعملي أيه؟
- هاقعد في البيت معظم الوقت.
- وهاتعيشي إزَّاي؟
- معايا فلوس في البنك ريعها ممكن أعيش منه على أدِّي، وخلاص الدنيا خلصت على كده.
- بس دي فلوس حرام!

- فيه حل تاني هوَّ أنا أملك حاجة تانية.. أهي في الآخر فلوس جبتها ازِّاي.. ربِّنا يسامحني ويغفرلي.. وهوَّ إنتِ يا صفية عايشة من حلال ما كلِّنا في الهم سوا.. ما انت برضه ماشية في سكة غلط.. شوفي مافيش حد دلوقتي يقول حلال ولاَّ حرام بعد أيه نقول الكلام ده.. كان الكلام دا ينفع من الأول لو صبرنا وعشنا بالقليل من الحلال.. اسمعي يا صفية.. إنتِ بتعملي أيه بالظبط؟
- في شركة.
- وظيفتك أيه؟
- في المبيعات.
- وبعدين إنتِ بتتجملِّي يا صفية.. مبيعات أيه ما انتِ قايلة لي قبل كده!!
- مبيعات الكيف..
- قرَّبي شوية وقولي بتبيعي أيه؟
- حشيش.
- خلصت خلاص.. الدعارة زي توزيع الحشيش.. أنا مومس وإنتِ بتبيعي الممنوع الليِّ بيفتك بعقول وصحة الناس.
- يعني كنت هاعمل أيه ما انتِ عارفة الحكاية؟!
- كلِّها حكايات سودا مالناش ذنب فيها.. الدنيا والعيشة حوالينا أجبرتنا على كده..
- وبعدين.
- نتوب ونعمل أي شغلانة مع بعض، لأن وجودنا سوا هايحمينا من الناس والكلام والحرام ونحاول نجرَّب من جديد وننسى إلليِّ فات..
- سهل قوي ننسى الليِّ فات بس نروح فين عايزين ناكل ونشرب ونعيش.
- طيِّب قولي نروح فين أيه الليِّ نعمله في العمر الليِّ باقي؟!

- تعالي معايا بكرة.
- فين؟
- في الناحية.. عند هشام.
- هاعمل أيه لهشام علشان يعمل لي حاجة؟
- إنت في حمايتي ويمكن تعجبك الدنيا هناك.
- أيوه بس لازم أشتغل.
- نروح الأول ونشوف أيه وتقعدي معايا شوية.. يومين تلاتة ونرجع تاني هنا.
- خلاص ماشي.. باتي معايا وبكرة يحلَّها الحلال.
- كده إنتِ حبيبتي يا عبير..

****

"رجلان وامرأتان ورجل صالح وسالم المراكبي والجزيرة الخضراء"

.. في بقعة أخرى وسط البحر كانت هناك مساحة كبيرة من الرمال والتباب العالية والأودية لا يسكنها إلاَّ رجلان حطَّ بهما الرحال وامرأتان هما سميحة زوجة ليوسف ورقيَّة زوجة شقيقه برهان، جاء القوم الأربعة منذ خمس سنين يحملون زادهم من مأكل وملبس وخيام، هاجروا من مدينة صغيرة تقع خلف المدينة الكبيرة، ولمّا حطوُّا رحالهم في هذه الجزيرة لم يكن بها أحد من الإنس أو الجن، كانوا مثل قبيلة صغيرة لفظتها المدينة الصغيرة وكان على هذه القبيلة أن تشدَّ رحالها إلى ذلك المكان بعد أن رأى برهان في منامه قاربًا به رجل يقول له:

- إرحل أنت وأخيك حتى تصلا إلى الساحل وهناك اسألا عن قارب سالم، وعندما تصلا إلى سالم أطلبا منه أن يأخذكما إلى النجع.. قولا له: الشيخ باسل يقول لك وصِّلنا إلى النجع..

وظل صاحب القارب يأتيه كل ليلة وفي كل صباح يحكي لأخيه يوسف حتى قال له:

- خلاص نروح الساحل ونسأل عن سالم ده يمكن الكلام دا صحيح فقال له شقيقه برهان.
- نتوكلَّ ياخوي خاصة إحنا هنا مش أصلًا من المدينة وإنت شايف الكل هنا مش قابلين نعيش معاهم.. نغيَّر يمكن يكون الهاتف دليل خير لينا من بكرة ياخويا نمشي من هنا..

حمَّلا كل ما يملكانه على ظهر حمارين وجملين وظلا يشقان الطريق الجبلي في يومين وليلتين ومعهما زوجتيهما سميحة ورقيَّة اللتان ركبتا أحد الجمال كل منهما مدَّت جسدها في ناحية على ظهر الجمل، وجدوا سالم ينتظرهما عند الساحل وكان سالم يبحث عنهما

في وجوه القليلين من الناس الذين جاءوا لتنقلهم القوارب إلى الناحية الأخرى المشهورة في الذهاب والإياب وهي ناحية هشام، وكلما رأى سالم رجلًا أو رجلان قال:

- إنت يوسف؟ إنت برهان؟

وكان كل منهما يتعجبَّ كيف سألهما الرجل قبل أن يسألا عنه، وكان الرجل قد أخبره نفس الهاتف أن الرجلين باسميهما سيصلان إلى الساحل هذا اليوم، وكأن شيئًا لا يعلمه أحد فيمن يعيشون فوق أرض هذه البقعة، أن هاتفًا لا يرونه يحرَّك جانب كل منهما نحو الآخر، وكانت المشكلة بعد أن تعرَّف سالم عليهما وأن مهمته تنحصر في نقلهما إلى الجانب الآخر.. كيف ينقل الجملان لأنهما يشكلاَّن وزنًا ثقيلًا على المركب.. فقال له يوسف:

- ننقل الجملين والحمارين في نقلة ومعهما أخي برهان.
- ماينفع ننقل الجملان دفعة أولى لكن الحمارين وأنتم بنسائكم وحاجياتكم في نقلة أخرى.. أنا أدرى بحال وقوة مركبي..
- افعل ما تراه مناسبًا لسلامة القوم..
- لا تحملا همًّا.. أنا أمين عليكم وعلى حالكم.. أمانة أقوم بها.. أنا بنفِّذ وصية الصالح.. الصالح..
- هوَّ الصالح كلِّمك علينا؟
- زي ما قال لكم قال لي.
- إسمه أيه؟
- الصالح.. هيَّ روح الصالح الليِّ موتوه ظلم.
- يعني الليِّ كلمِّنا وكلمَّك مات.. أمالَّ كلِّمنا إزَّاي؟!!

- روح الصالح هي الليِّ اتكلمت.
- ومش معنى إحنا من دون الناس؟
- هوَّ حر في شأنه.. ماتسألنيش أكتر من كده عن أي شيء أنا مهمتي أنقلكم هناك ومماليش دعوة بيكم تاني..

.. وما إن تم وصولهم إلى الشاطئ الآخر حتى ابتسَّم كل القوم، وقفز يوسف وبرهان يجريان فوق الرمال المنبسطة حتى زعقت كل من سميحة ورقية:

- كده هاتتوهو مننا.. إرجعوا ماتروحوش بعيد وحياتكم..

.. وراح الرجلان يدقان أوتاد الخيام ونصبا ثلاث خيام، وأسكنا الجملين والحمارين خيمة من الثلاثة.. ولمّا دخل ظلام الليل كان كل من الأربعة قد بدأ يغلبه النعاس فنامت كل أسرة في خيمة حتى انبلج الصبح، وكانت المرأتان صالحتين فقامتا إلى الصلاة بعد أن توضأتا من ماء البحر، ومن بالغ سعادتهما قذفت كل منهما الأخرى بماء البحر البارد، وبعد أن تمتعتا بهذه اللعبة أسرعتا قرب خيمة الجمال وفرشتا غطاءً بالأرض وأمَّت سميحة رقية وصلَّتا الصبح قبل أن تبذغ شمس الصباح، ثم أيقظت كل زوجة بعلها فقام وصلى ولكن بعد سطوع الشمس، وأقام الرجلان كانونًا من الحجر ليطبخا عليه، وحفر برهان حفرة بالأرض بين الخيام ليقمرا عليها الخبز ويشربا الشاي، وبذلا جهدًا كبيرًا حتى جمعا خشبًا وفروعًا جافة وحطبًا يكفي لإشعاله عدة أيام، وكانت المرأتان قد وجدتا بعض الحطب فأشعلتا النار في الراكية وراحا يسخنان الخبز وبعض الحلل المملوءة بالطبيخ الذي أعدوه للرحلة، وعاد الشقيقان وقد حملا حملين ثقيلين من الوقود الجاف.. أكل الجميع وشربوا من جراكن ملأوها من المدينة، ولمّا مرَّت أيام عدة تعودوا فيها على الطبيعة الجبلية، بدأت جولة أخرى للرجلان في المدى الممتد لتلك الرمال المنبسطة،

وبدأ كل منهما يرمي ببذور القمح في قطعة من الأرض ثم تقوم كل امرأة تمشي خلف زوجها تغطي بكفيها بذور القمح ببعض التراب، زرعوا بذور القمح في ناحية، والشعير في ناحية أخرى ثم سقوها بجراكن ملأت من ماء البحر وتركوها أيامًا بعد أن عملوا حدودًا من الرمال لكل حقل، وكلَّما مرَّ على زادهم أيامًا يأكلوا ويشربوا منه بدأ الخبز والطبيخ واللحم ينقص، ولم يكن هناك من وسيلة ليذهبوا إلى المدينة ليشتروا زادًا جديدًا غير مركب سالم، كان الشاطئ بعيدًا جدًا لا تراه العين، من أين نأتي بمركب يأخذنا إلى الساحل لنأتي بزاد، وفي اليوم الرابع من حيرتهم وخوفهم على حياتهم فإذا خلص الزاد فمن أين يأتيهم الطعام ولا توجد في الجزيرة غير بذور القمح والذرة التي بدأت تنبت، وشربنا من مياه البحر وطبخنا آخر زادنا من بطاطس ودجاج فوق الكانون، وفجأة في صبيحة يوم بعد خلاص كل ما في أجوالنا من زاد ولم يبق غير خبز مقدَّد لا يشبع بطوننا يومًا واحدًا، كانت سميحة تملأ الجركن من ماء البحر، وجدت طوابير من السمك تزحف مع الموج الهادئ إلى الشاطئ فانقلبت إلى زوجها برهان والذي كان يشرب الشاي مع أخيه يوسف وزوجته وكانت سميحة تجري وتتكفئ ثم تقوم حتى اقتربت من الخيام فراحت تصرخ بصوت عالٍ فلمّا سمعوها هموًّا إليها مهرولين فزعين:

- أيه أيه مالك فيه أيه يا سميحة؟!!
- سمك.. سمك..

وقالوا وهم يهرولون خلفها:

- سمك.. سمك فين..

- في البحر.

.. كانت طوابير السمك تزيد صفوفًا زاحفة حتى تلمس أنوفها رمال الشاطئ فتنقلب إلى الأعماق ثم تعود مرَّة ثانية.. وعلى جانب بعيد عن المرأتين خلعا ملابسهما عدا السروال واقتربا من زوجتيهما، وقفز يوسف في البحر وبعده برهان وراح كل منهما يطبش بيديه قافشًا سمكة بعد أخرى ويرميان بها إلى البر أمام المرأتين، ولمّا كثر السمك وضعوه في حفرة بالأرض بعيدًا عن المياه حتى لا يقفز مرَّة أخرى إلى البحر، أسرعت رقية إلى الخيام وحملت جوالًا فارغًا ليضعا فيه صيد الرجلين حتى انتصف الجوال من السمك وخرج الرجلان وهما يضحكان في سرور بالغ برزق الله الذي أتاهم جميعًا من تحتهم بأيديهم وبين أرجلهم.. وراحا يومان يأكلون السمك المشوي بدون بلْغة خبز، وحمدوا الله أن هناك بحرًا فيه مياه وفيه سمك.. ومرَّت أيام يأكلون السمك حاف والحبوب من تحت الأرض يرتفع نبتها فتزيدهم الخضرة بهجة، ولكن أين أنت يا سالم لماذا لا تأتينا تسأل عنا، هل وصاَّك الرجل الصالح بأن تأتي بنا هنا وتنتهي وصايته علينا معك إلى هذا الحد وينتهي الأمر بنا وننتظر القمح والذرة حتى تنضج حبَّاته، وإن صار دقيقًا لكن على ذلك الأمر شهورًا حتى نحصد ما زرعناه..

هكذا كان حديث القوم معًا أيامًا طويلة، ولولا رزقهم الله من سمك البحر لماتوا جميعًا، وفي يوم كانت رقيَّة زوجة برهان تصلِّي خارج خيمتها وراحت تزرف الدمع السخين حتى اهتزت نبضات قلبها في صدرها وراحت تمشي نحو البحر وقد تعلَّقت عيناها في المدى البعيد، وكأنها ترى بعد المدى شيئًا قد يخرج من بطن البحر الذي لا يرى أحد في هذا

العالم أعماق ما تحت العالم المائي من أسرار وقالت وهي ترفع جلبابها عن ساقيها وتجلس بمؤخرتها فوق الرمال التي تصلها موجة بعد أخرى، وأمسكت بكفيها رأسها ثم أغمضت عينيها ودفعت بذراعيها ولفت بهما ركبتيها وألقت برأسها فوقها وراحت تفكرِّ في الذي يسكن في السماء والأرض.. يا ربي كل هذا العالم أنت.. ألا ترزقنا بقليل يكفينا كل يوم من الخبز واللحم والدجاج.. كما أتيت لنا بالسمك من تحت وجعلت الأرض تخضر، سوف تأتينا بشيء آخر.. إننا لا نعرف إلاَّ أنت.. ثم رفعت رأسها إلى المدى وقالت:

- اللهم ارزقنا من حيث لا نحتسب..

ثم قامت تنقلب إلى سكنها وصدرها مازال يرتجف في رجاء وجففَّت دموعها بردفها وإذا بها تجد برهان يجري نحوها مناديًا: رقيَّة رقيَّة.. سمعت الصوت ورأته فرفعت يدها منادية: برهان.. برهان.. لكن برهان وقف فجأة ووضع كف يده على عينيه كأنه يدقِّق في شيء رآه يأتيه من أعماق البحر.. وقفت رقية بجانبه وجالت ببصرها في المدى الذي ينظر إليه فقال لها:

- شايفة شايفة؟!!
- فيه حاجة جاية علينا يا برهان.
- مركب.. مركب.. يا رب.

.. وصل المركب إلى شاطئنا لكنه ليس مركب سالم، ولمّا اقتربنا من قادمنا، كان يرتدي بدلة زرقاء وقبعة، وقبلها كان سالم يرتدي جلبابًا ولاسة فوق رأسه، وقفنا فوق صخرة تبعد عن مرسى القارب خطوات قليلة، وحدَّقت مليًا في وجهه فقال الرجل الذي ينزل إلى البر وهو يرفع يده نحوي قائلًا:

- أهلًا.. برهان ولاَّ يوسف؟
- برهان مين.. معقولة سالم.. اللبس مغيَّرك!!
- مش مشكلة.. اتأخرت عليكم..

نزلت من الصخرة وتقدَّمت نحوه وابتسم ابتسامة عريضة وقال مرحبًا:

- بالعُبط يا برهان.

واحتضنته بقوة فراح يضرب بكفيه على ظهري برفق ثم أخذته لأعلى السكة لنأخذ طريقنا إلى الخيام، وكنت أسبقه بخطوة مرحبًا.. أهلًا.. أهلًا.. مرحبًا بالنور، وكانت رقيَّة قد هرولت إلى يوسف وسميحة لتخبرهما بأن ضيفًا وصل بمركبه وجاي مع برهان، فجرى الدم في عروقهما وخرج يوسف من الخيمة ومشى قليلًا حتى لاقى برهان والرجل، ولم يعرفه يوسف فبادره سالم:

- إنت يوسف؟ أنا سالم النهارده لابس أفرنجي.

واحتضنه يوسف بقوة كما فعل برهان وتقدموا جميعًا نحو خيمة برهان، ولم يكن غير السمك المشوي بدون خبز فقدمَّاه لسالم قائلان:

- معلهش من غير عيش.. خلص العيش كويس إنكَّ جيت عايزين عيش ودقيق وحاجات كتير من البلد..
- يبقى الصالح عالم بحالكم من يومين كلِّمني وقالَّي روح للجماعة.
- والله دا كرم من ربِّنا إن صالح زي ده واخدنا في حسابه دايمًا.. الله يكرمه بيلحقنا في الوقت المناسب.. هوَّ مين بالضبط الصالح ده وساكن فين ومين دلّه علينا؟!! ولما سكت يوسف لمّا هزَّ سالم رأسه كأنه يتدبر أن يقول شيئًا إجابة

على تساؤل يوسف.. لكنه لم ينطق وأطبق شيئًا في فمه كاد ينطق به إلا أن برهان قال:

- سيب الكلام دا دلوقتي يا يوسف.. سالم بيعمل الخير والصالح عامله لنا سبوبة حياة.. مش عايزين نعرف حاجة يا سالم نحمد ربِّنا على الراجل الصالح وعلى مرساله سالم الأمير.. هزَّ سالم رأسه مبتسمًا سعيدًا بكلام برهان وقال:
- زي ما قالك برهان.. خلِّي كل شيء في وقته.. ماعنديش إجابة ليك يا يوسف.
- ياه أوعه تكون زعلت؟! عمري ماهاسأل تاني.. يا حبيبي يا سالم اللي إنت عايزة كترَّ خيرك من الأرض لعنان السماء.
- خلاص يا جماعة اتفقنا ماحِّدش يسألني عن حاجة بعد كده، المهم دلوقتي عايزين أيه من البلد.

فقال برهان:

- عايزين حاجات كتير قوي.
- طيِّب يالَّه مين هاييجي معايا.

فقال برهان:

- أنا ويوسف.

فقال له سالم:

- لأ خلِّي يوسف ومراته وتعالى إنتَ ومراتك علشان تساعدك.
- دلوقتي ولاَّ تريح شوية أكيد تعبت من المشوار وأنت جاي؟
- لأ ماتعبتش..

.. وحمل برهان كثيرًا من المال ليجلب كل ما هو ضروري للمعيشة في هذه الجزيرة وصاحبته زوجته رقيَّة إلى الشاطئ الآخر، وفي الطريق من الجزيرة إلى بر المدينة الكبير قال سالم لبرهان:

- أكل عيشي من المراكب زي ما إنت عارف.
- أيوه تحت أمرك..
- عايز أجرة مشوار النوبة الليِّ فاتت وأجرة النهارده.
- وماله حقكِّ.. عايز كام.
- مية وخمسين جنيه رايح ومية وخمسين جنيه جاي.. يعني الموضوع كله أربع مرات في مية وخمسين.. إجمالي مبلغ ستميت جنيه.
- حاضر تحت أمرك إنتَ معاك موبايل؟
- خد رقمه..
- فكرني واحنا في البلد نشتري موبايل ليِّ وواحد ليوسف.
- طول الفترة اللِّ فاتت زعلان علشان مافيش تليفون أتصل بيكم..
- خلاص من بعد النهارده كل ما نعوزك نكلِّمك.
- وأنا خدَّام الناس الطيبين..
- وعلى فكرة أنا ويوسف عايزينك في حاجة مهمة جدًا.
- قول لو قدرت أعملها ليكم هاجيبها لغاية عندكم..

التفت برهان خلفه فوجد رقيَّة تجلس في مؤخرة المركب فهمس في أذنه:

- أنا ويوسف مراتتنا كندوز.
- يعني أيه.

- الإثنين مابيخلِّفوش..
- يا خبر.. علشان كده مافيش ولاد..
- من عشر سنين متجوزين ومافيش خلف.. وكل واحد مننا نفسه في خلفة..
- دي بسيطة قوي.. فيه ناحية هنا قريِّة مليانة ستات وبنات.. عايزين سن كام..
- مش أكتر من تلاتين سنة.
- هاجي في يوم وآخدكم في الناحية دي.. شوفوا الدنيا هناك.. أكيد هاتلاقوا حد يناسبكم.. دي حتة كدة مليانة ستات.
- خلاص إتفقنا..
- جمايلك علينا كتير يا سالم وفي كل الأحوال أتعابك في جيبك.
- تحت أمر الباشا..

****

ولمّا وصلا إلى المدينة كان سالم قد دلَّهما على السوق، اشترى برهان ما يكفي من الزاد خاصة الدقيق والخبز واللحم والدجاج وكميات كبيرة من القمح والذرة والشعير وعددًا من شتلة الأشجار الوارقة مثل التوت، خاصة أن أرض الجزيرة تنبت كل بذور تزرع فيها، واشترى هاتفين له ولشقيقه يوسف، وتسوَّقت رقيَّة ملابس لها ولسميحة ولزومات تحتاجها النساء، حتى أنهما وضعتا كل مشترياتهما على عربة كارو كبيرة يجرُّها بغل ليصلا بمشترواتهما إلى الشاطئ حيث ينتظرهما سالم بمركبه..

وكان وصول برهان ورقية إلى خيامهما في الجزيرة يوم فرج ابتهج كل منهم بطريقته فغنَّت الزوجتان.. ورقص الرجلان وصفقت المرأتان للغناء والرقص ودقَّت كل امرأة فوق حلة بكفيها كأنها طبلة، أكل الجميع وشربوا وناموا نومًا ثقيلًا حتى كان صبح اليوم

التالي، وأشبعوا بهائمهم من العلف الذي رشوه بحبات الذرة والقمح، وزرعوا مساحات أخرى من الأرض قمحًا وشعيرًا وذرة، ثم نزل يوسف وزوجته سميحة إلى المدينة واستكملا شراء ما ينقصهما من لزومات البيت والحقل، بعدها نزل برهان واشترى من سوق مواشي قرية قريبة من الشاطئ عددًا من النعاج والخراف والماعز، بعدها نزل يوسف واشترى من نفس السوق جاموستين لجلب الحليب، وبقرتين للعمل في المحراث، وراح كل من الرجلين ينزل إلى السوق ليستكمل ما ينقص البيت والحقل من أدوات وعددًا لحرث وتزحيف الأرض، واشترى لهما سالم طوب لبن ليشيِّد كل منهما بيتًا بدلًا من الخيمة، ثم شيدًّا زريبة للجاموس والبقر وأخرى للغنم والماعز والجمال، واخضرت الأرض وأثمر القمح والذرة والشعير، وبدأت الأرض تنتج ما يحتاجونه من طعام وفاكهة وخضروات، وزرعا المانجو والموز وكان إنتاجهما شديدًا وقويًا لصلاحية الأرض الصفراء في نبت أنواع الفواكه المتنوعة من العنب والبرتقال وكافة أنواع الموالح.. وكبرت الجزيرة وكانت في حاجة إلى ناس كثيرين من العمالة الزراعية وأبلغا سالم حاجتهما إلى عمال زراعيين مكافحين، فجلب لهما سالم أكثر من عشرين عاملًا زراعيًا بزوجاتهم وعيالهم، واشتريا جرارًا ليحرث الأرض وإضافة مساحات أخرى من الصحراء وتحويلها إلى أرض صالحة بإضافة رتش من الشواطئ المقابلة ليخلطا به الأرض الرملية فتصبح أرضًا صفراء، وكانت الحمولات الثقيلة يجلبها سالم فوق مركب كبير يستأجره لهما من أصحاب المراكب الكبيرة، ومرَّت أيام وشهور والناحية تزدهر بالحياة والعمل والإنتاج حتى بدأ أهلها يبيعون الحبوب والفاكهة والخضروات إلى الشواطئ الأخرى من المدن والقرى التي تشرف على الجزيرة من بعيد أو قريب،.. مدينة أو قرية أو ناحية أو جزيرة هذه التي أنشأها يوسف وبرهان وزوجتيهما سميحة ورقيَّة، حتى أنهَّا

أصبحت معروفة باسم جزيرة يوسف وبرهان، ولمّا مرَّت شهور أخرى كانت الجزيرة خضراء وآهلة بسكان أغلبهم يمتهن أعمال الزراعة وأصبحت ملاذًا للكثيرين من عمال الزراعة وأصحاب الحرف، وانتشرت فيها تجارة بيع المنتجات الزراعية والفواكه والخضر التي تباع في أسواق الشواطئ القريبة من الناحية..

.. ولمّا كان ينقص يوسف وبرهان الخلفة، تزوجا في ليلة واحدة من فتاتين من بنات عمال الزراعة الذي يعملون في الجزيرة، ولمّا مرَّ عام واحد رزق كل منهما بطفل، وبدأت كل عوامل الرخاء تكسي الجزيرة ونُصِّب كل من يوسف وبرهان رئيسين للناحية في شكل عرفي كأنهما قاضيين يحلاَّن أي مشاكل تحدث بين أهل الجزيرة، وكان لكل من سميحة ورقية كلمة عليا بين النساء. وانطوت الجزيرة على أعمالها المنتجة في كل أعمال الزراعة والتجارة حتى أصبحت تدعى باسم الجزيرة الخضراء وكان يذهب إليها كل من يطلب عملًا جادًّا ومنتجًا، وكان كل من يوسف وبرهان يشرفان على دخول كل قادم إليها ومن لا يجداه جادًا يعود في قاربه إلى حيث كان، وكذلك كانت كل من سميحة ورقية تشرفان على دخول أي امرأة أرض الجزيرة ومن تشكُ في أمرها يقرران ترحيلها إلى حيث جاءت، وهكذا بدأت الجزيرة الخضراء بهجرة رجلين وامرأتين إليها حتى أصبحت بلدًا عامرًا بالحياة وأهلها من خيرة الناس في عرض ذلك البحر الكبير الذي يبلغ ويحتوي كل آهليه من صالحين في ناحية منه ومن راغبي كل أنواع الحياة من صخب وهرج وونسة ورقص وغناء ولهو في ناحية أخرى، يا إلهي ما حكمة هذا البحر في احتواء كل أنواع الناس.. يهيج البحر ويهدأ والناس فيه وحوله أحوال وأجناس وألوان شتى لا يهدأون فتلك هي المدينة الكبيرة ينزح منها الكثيرون إلى نواحي أخرى..

فهذه ناحية هشام التي فيها يجد الناس كل شيء ومن يبحث عن أي شيء يجده فيها وتلك جزيرة يوسف وبرهان ليس فيها إلاَّ شيئًا واحدًا..

****

"عبير وصفية تفترقان لكن الكلاب والقطط تملأ المدينة"

.. كانت أميرة تحبُّ زوجها حبًا عوَّضها الله به عن زواجها الأول، مثل الكثيرات غيرها في الإسكندرية سيِّدات فاضلات فشلن في زواجهن ثم ساق لهن القدر حظًا كبيرًا، وكانت معظم المدينة في نسائها ورجالها يأملون في حياتهم أن يعطيهم القدر في الغد مهما كانت صدمات حياتهن أول الأمر قاسية، وكان الناس في المدينة مثل أي مدينة في البلد يعانون أنواعًا شتى في البحث عن عمل وسكن ومعيشة، وكان عجز المرأة أشد من الرجل لأنها كانت تنتظر من الرجل أن يقدِّم لها شيئًا فلا تجد من الرجل أي شيء أو حتى تجد الرجل المناسب الذي يمسك بيدها، إن مدينتي يا سادة فيها عجز شديد في مقومات الرجال فلا تجد المرأة الذي تنتظره غير رجل يقدِّم لها الحب المنحوت من كلام وحكايات ووعودًا كاذبة، إن في مدينتي تزدري معظم النساء الرجل لأنه ضعيف، ومن ضعفه وضعف الآخرين من الرجال تكوَّنت بالونة في كل بيت وشارع وميدان فيها تعاني النساء من ورم مثل تلك البالونة ينتفخ، وليس من وسيلة حتى يتم تهوية تلك البالونات، ولولا ذلك الورم المستشري ما كانت هناك صفية التي تتزعم مبيعات الكيف في ناحية هشام التي شيدَّها من ألم الناس وحاجتهم إلى المال، وما كانت عبير التي ماتت عنها أمها وتركتها لرياح تهب في أطراف المدينة، تركت الحياة أبًا لعبير عجز عن العمل ويتقاضى معاشًا لا يكفيه أسبوعًا واحدًا، وهناك غير عبير مئات من فتيات المدينة ونسائها لجأن إلى بيع أجسادهن كي تكتمل بيوتهن من لزومات الحياة

الضـرورية، والأب أو الـزوج أو الأخ لا يسـتطيع أن يقـول للمـرأة التـي تخصُّـه: إنـتِ بتخرجي من الضهر وترجعي نص الليل بتروحي فين؟ أو إنت بتخرجي يا بنتي من بعد المغرب وتيجـي وش الفجـر بتروحـي فـين؟ أو إنـتِ يـا مراتـي بتروحـي فـين؟ وبتجيبـي الفلوس دي منين؟ وبتمشـيِّ البيت إزَّاي؟ دانا باديِّكِ قرشين مايكفوش عشرة أيام.. وتقدِّم المرأة حكايات كفاح بطلها جسدها..

لا يستطيع أحد من الرجال هؤلاء في مدينتي أن يمنع امرأته من الخروج من البيت وإلاَّ من أين يعيش البيت، لولا امرأتي يا سادة لكناً جميعًا في الشارع نبيع الخبز أو الفجل أو نتسوَّل، وكانت عبير وصفية وابنة الحدَّاد ماجدة وابنة النجار ميادة وفاتن التي تعبت من الخبيز في ناحية هشام ولجأت للرقص في الملهى كي تعيش، عشرات في ناحية هشام من البنات والنساء يمتهن تلك المهن التي فيها الجسد يلعب الدور الرئيسي في جلب المال كي يتخلَّصن من فقرهن ولم يكن اضطرار امرأتي لذلك ضعفًا منها أو وهنًا أو انحرافًا إنما كان ذلك فعل قوة قاسية قست على المرأة فاضطرت أن تقسوا على نفسها وتقدم شيئًا تمتلكه وتضحي به من أجل بيتها.. كان أب أو زوج أو شقيق.. أو من أجل أبنائها.. ومن يتهم المرأة في شيء غبي وحقير وعلى الناس جميعًا أن تقدمه للمحاكمة، وكان أجدر بالنساء تقديم من يتهمهن بالانحراف أو اللوم إلى المحاكمة.. لكن أين هذه المحكمة، أليس من الأجدر أن يحاكم من حكمنا منذ عقود طويلة مضت، ولكن من يستطيع أن يعود إلى الوراء وهؤلاء الأفاعي التي سرقت البلاد قد ماتت.. وأين أبناؤهم؟ وهل هناك قانون أو عرف يحاكم الأبناء على ما اقترفه الآباء؟..

.. وكانت عبير قبل أن تخلد للنوم في كوخ صفية قد أفضت ما في نفسها من غل وحقد على المجتمع كلِّه، وكلَّما تأوهت عبير بعد كل كلمة تفوهت بها كانت صفية توافقها

لأنها مسَّت الجرح العميق لكل امرأة وأوقفتها قائلة وهي تنقلب في فراشها ناحية رقاد عبير:

- كفاية يا عبير.
- كفاية أيه.. بعد ما كل شيء راح!!
- طيِّب والعمل.
- عمل أيه يا بت إنتِ؟! هوَّ أنا وإنتِ هانعمل أيه؟ هانرجع تاني نتجوِّز من جديد؟!! ولو حصل فين العمل الشريف الليِّ يحقق لكل امرأة الصيانة والشرف؟
- على رأيك ما هو نفس الليَّ حصل لنا بيحصل لكل بنت أو ست دلوقتي، ونفس الحكاية هاتتكرَّر من جديد على الناس كلِّها، ويمكن دلوقتي الدنيا هاتبقى أوسع وأخطر.. النت والموبايلات خلَّت كلُّه يدخل على كلُّه..
- أحسن ست في بلدنا الليِّ قفلت على نفسها بابها ولسة قافلاه لغاية دلوقتي.. هيِّ دي الست النموذج..
- دولت معظمهم ستات معقدة، الست الليِّ عملت كده ماكنش عندها حاجة أو إمكانية تخليها تطلع وتعمل بحرية زي ما عملنا.. خلِّينا في المهم، عجبتك الناحية؟ وأيه رأيك في هشام؟
- شوفي مش هاينفع أقعد هنا هارجع تاني بيتي.. هشام مين أنا شُفت ميت هشام..
- مش هاتشتغلي تاني؟ مابقاش عاجبك حد؟
- أبدًا.. أنا عارفة هاعمل أيه.. بكفاية كده على حياتي قوي.. إنتِ عارفة هاعمل أيه زي كل ست قفلت بابها عليها.

- كان دا من الأول.
- وينفع دلوقتي.. من الآخر ينفع يا صفية.
- إنتِ حرَّة.
- بكرة هاترجعي البلد علشان أروَّح معاك.
- بكرة أو بعده مش مشكلة.. على ما تخلص الطلبية.

.. لم يغمض لعبير جفن هذه الليلة التي فيها أفرغت ثورتها داخل جدران الكوخ، كان شيئًا يخنقها، أهذا الانتحار في داخلي، كانت ظمآنة فشربت جرعة ماء وفتحت النافذة فوجدت السماء مليئة بالنجوم، وكان النسيم حارًا وسمعت نباح كلب فقفلت النافذة وقالت كأنها تكلِّم صفية.. هذا كلب من الكلاب.. كانت صفية تغط في النوم فضاق صدرها حتى من أقرب الناس لها.. وقالت تحدث نفسها.. لسه إنتِ يا صفية ماشبعتيش من العك.. لمّا تشبعي تبقي تعالي، ولا هاتوصلي لحاجة يا صفية كنت أنا وصلت..

.. وكانت عبير قد تعرَّفت على أميرة أيام كانت فيها أميرة مطلقة من زوجها في أول أيام الطلاق لمّا كانت تتردَّى بحثًا عن حقيقة الزواج والطلاق في المدينة، التقت بها في الطريق عندما وجدتها تبكي وتتعثر في خطاها في شارع صفية زغلول، وفي ليلتها توقفت عبير بعربتها ونزلت إليها وأمسكت بذراعها وسألتها: لماذا تبكين؟ ثم أخذتها إلى مركبتها وربتت عليها في لطف شديد وهي تكرِّر:

- بتعيَّطي ليه يا حبيبتي؟
- الدنيا انسدِّت في وشيِّ.
- طيِّب ريحه فين؟ أيه حكايتك؟!

وحكت أميرة حكايتها لامرأة تلقفَّتها من الشارع واعتقدت أميرة في ليلتها أن عبير امرأة صالحة حقًا وإلاَّ لما عطفت عليها بهذا الحنو، وفي ليلتها نصحتها عبير بالعودة إلى المنزل وألاَّ تخرج إلى الشوارع حتى لا تتوه ويلتقطها ذئب متخصِّص في صيد النساء التائهات، وأن هذه أول حكاية أية امرأة انحرفت عن طريقها الطبيعي، وفي ليلتها عملت أميرة بنصيحتها وعادت إلى البيت بعد أن أخذت كل منهما هاتف الأخرى، ومن يومها وعبير تهاتف أميرة لتطمئن عليها وتنصحها حتى اطمأنت عليها بزواجها من نور، وظلت العلاقة بين عبير وأميرة صداقة بالتليفون حتى وقتها هذا، وفي الطريق من ناحية هشام إلى المدينة حكت عبير لصفية حكاية أميرة كامرأة عوَّضها الله بزوج بعد طلاقها وأن هناك كثيرات من النساء أكرمهن الله، وقالت صفية لعبير وهي تقود عربتها من أبي قير إلى رأس التين:

- يعني عايزة تقولي إن الواحدة مننا عليها تقف جنب أي واحدة عندها مشكلة!
- هوَّ كده.. علشان ماتوصلش لليِّ حاصل معانا.
- لأ والله فيك الخير بقيت مصلحة اجتماعية.
- ماتتريقيش يا صفية.. هوَّ دا لليِّ هاعمله.
- إنت.. الله يرحم الرَّجالة لليِّ شافوك.. دا مافيش راجل في البلد إلاَّ لما خلبصك يا عبير..
- كده يا صفية هاخسرك.. أيه لليِّ بتقوليه ده.. إنتِ بقيتي مجرمة..
- وأنتِ مومس.
- وقفَّي العربية.. وقفي العربية..
- ليه؟

- بس أقفي يا مجرمة.
- ك.. ق.. على ك..

.. نزلت عبير من العربة وصفقت الباب بعنف بعد أن بصقت في وجه صفية بعنف قائلة:

- روحي مِّنك لله..
- مِّنك لله إنت.. في ستين داهية..

****

"غربت عن وجهي بعد عقودً من معرفتي بها في الجامعة، وكم كنت أتمنى أن يغرب وجهي الماضي عن نفسى وحياتي من هذا اليوم الذي طويت فيه صفحتي مع صفية والرجال الذين قابلتهم في مدى ربع قرن، وانطويت في بيتي على حالي وتطهير نفسى وما علق بها من شوائب زمن كريه مضى، وقمت أصليَّ ليل نهار ما استطعت وأقرأ في كتاب الله ماتيسر كل يوم وارتديت عباية سوداء فوق أي رداء بنطلون أو جيبة أو حتى جلباب في كل خروج أذهب فيه إلى السوق، ولم يكن لي صديقة واحدة في شارعي أو في أي مكان قريب مني بالحي، لمّا عملت امرأة ليل كنت حريصة على قطع كل علاقتي بأي امرأة في الحي حتى لا تعرف عني شيئًا، رغم أني أعي تمامًا أنهن جميعًا يعرفن أنني أخذت طريقي، وكانت كثيرًا منهن يتغمز بكلمات فاضحة عني مع بعضهن البعض، وأخريات أخذت جانبًا مني بمجرد إحساسهن بأنني امرأة سائبة، اتخذت من حياتي الجديدة التي بدأتها في عمر الواحد والأربعين عامًا أكلم نفسى محاولة تصفيتها من أية شوائب علقت بها في حياتي الماضية، أطبخ أغسل ملابسي في عمر الواحد والأربعين عامًا أكلم نفسى محاولة تصفيتها من أية شوائب علقت بها في حياتي

الماضية، أطبخ أغسل ملابسي أنظَّف البيت... أجمع ملابسي الخليعة وأخزَّنها في حقائب بعيدة عن ملابسي الجديدة، ألغيت كافة أرقام هواتف الرجال الذين كنت أعمل معهم، ولمَّا ضجرت من كثرة الاتصالات غيَّرت رقم الهاتف واسترحت من باقي ما علق بي من حياتي الفائتة.. وكل يوم جمعة أذهب للصلاة في المسجد وأجلس في الصف الأخير محاولة مدارة عيني ووجهي تحسبًا من أي امرأة تشبه عليَّ، وتجنبًا لأي سخرية أو كلمة أو مضايقة من أي امرأة أو فتاة قد تعرفني، استغنيت عن الناس جميعًا، وفى كل شهر أذهب إلى البنك لأسحب بعض الفوائد أصرف منها حتى يأتي الشهر الآخر، ولم أكن أستطيع الاستغناء عن المال الذي جمعته من عرق جسدي، ومن غير أن أسال فقهيًا عن كونه حرام أو حلال دعوت الله أن يحله لي مادمت قد تبتُ توبة خالصة، وسألت نفسى بعد الحيرة وإذا لم أتعيش من هذا المال فمن أين أعيش؟! هل أتسول؟!! والمستحيل أن أعود إلى عهدي الأول للحصول على المال، وبقيت مسألة العيش من مالي هذا قضية بيني وبين ربي وعليّ أن أدعوه السماح...

****

وفى يوم تذكرت المطلقة التي قابلتها في شارع صفية زغلول لأسألها عن حالها في حياتها:

- ألو.. أميرة.
- أيوه مين؟
- عبير.. نسيتينى؟
- أهلًا أهلًا.. عمري ما انساكي.
- عاملة أيه في حياتك؟ وجوزك وابنك وماما؟

- كُله كويس.. وإنتِ بخير؟
- بخير والله... ماتبقي تيجي تزوريني يا أميرة.
- أكيد... نفسى والله.. ماتيجي إنتِ الأول.
- قوي قوي في يوم هاكلِّمك وآجيلك.
- أهلا ياحبيبتي أهلا بيكِ في أي وقت.
- باي..

****

واعتدت عيشة الوحدة التي ألفتها نفسى وعشقت علاقتي بأن أكون صادقة مع كل من أتعامل معه ومع نفسي، ورغم ما حدث مع صديقة عمري صفية إلاَّ أني شعرت بأني كنت قاسية في الرد عليها كما كانت هي الأخرى، وخفت عليها فيما هي فيه من حياة فرضتها الظروف عليها، وشعرت بحنيني للعودة إليها مَّرة أخرى ليس في أن أزورها ولكن لأسّال عنها وأحاول جرها إلى طريق أفضل مما هي فيه، فلن تهون علَّى صداقتها التي دامت معظم أيام عمرى، وأرجأت الرجوع إليها أيام مقبلة، وكان ما يشدني بقوة هو زيارة أميرة تلك المرأة التي تمثل في مدينتي معظم النساء، والتي مهما قاست ولجأت إلى الله فإنه سوف يعوضها وينقذها من قسوة الزمن التي تغطي مدينتي في حياة كل ناسها يعانون قسوة كل أنواع العيش.

وما لا يعرفه الكثيرون أنني عرفت من الرجال وأمور الحياة ماجعلني أدرى بكل أنواع الحياة حولي سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، وعرفت كيف تدار الأمور في ظل إدارة عمياء تحكم البلاد دون أن تحقق أي شيء من العدل وإنقاذ الطبقة الفقيرة والمتوسطة من معاناتها، إن كثيرًا من الرجال الذين عرفتهم هم من أهل إدارة هذه البلاد، وياحسرتاه

كلهم لا يعرفون أي شيء عن حقيقة الإنسان في بلادنا، ولو عرفوا ولو قليلًا عنه لأنقذوه مما هو فيه من معاناة وغم لا ينقطع، ولا أعرف لماذا رجال السياسة في بلادي لا يعرفون إلا أساليب النهب والنصب ويبيعون الفقراء بفتات من الطعام لا تغني من جوع، وإذا استغاث أحد من أبناء الفقراء شوَّحوا له بالعصا واتهموه بالخيانة وطبقوا عليه كل مواد القانون وهو نفس القانون الذي به يسرقون وربما تكون بلادي إحدى البلاد في هذا العالم الفاسد أن رجال سياسته يسرقون وينهبون بالقانون ويسجنون الفقير لأنه سرق رغيف، وعلى جانب آخر يقترف رجال الآداب كل أنواع الإجرام مع الذين دعتهم حياتهم وظروفهم إلى ممارسة الرذيلة في بيوت هنا وهناك، وهم أول فئة من الناس يتحكَّمون بعد ذلك في المومسات ويديرون شريحة منهن حسب أهوائهم ومزاجهم، ويصدر من هؤلاء آدابًا ما أنزل أحد بها من سلطان، إنهم رجال آداب يقتسمون من لحم نساء بلادهم شرائح لهم ولغيرهم، وهناك الكثيرات من حكايات النساء والفتيات زجُّوا بهن في السجون ولفقوا لهن تهمًا لم يقترفنها وما كانت البلاد الأخرى من هذا العالم قد أسندت لبوليس الآداب مهمة واحدة وهي محاسبة من يغتصبْ، أي من يعتدى على امرأة أو فتاة أو حتى رجل غصبًا عنه دون رضاه، وإن إدارات كثيرة في بلادي ليس لها من عمل سوى قهر الناس واتهام الناس بالقوة والزج بهم في السجون دون ذنب اقترفوه، ولا يعرفون شيئًا ولو قليلًا بأن ما دعا امرأة أن تذهب إلى شقة مع أحد أو تكون عضوة في شبكة للدعارة، لا يعرفون أبدأ من الجاني ومن الزاني الحقيقي، الزاني الحقيقي في بلادي هو من يحكم البلاد دون أن يفهم ولا يعرف أن عدم العدل والظلم والفساد الذي فرضوه على مجتمع بأكمله، وإنه من الحق أن يحاسب هؤلاء ويحكم عليهم بالسجن وأن السجون تمتلئ بحشود كبيرة من الأبرياء، وأنه في مجتمع لاعدل فيه لا تحاسبوا الفقراء ولكن

حاكموا من سرق العدل لكن من يقول ومن يسمع، وإذا أردتم فهم هذا المجتمع الذي يقبع تحت نير الظلم والفساد منذ أكثر من ستين عامًا اسمعوا الحقيقة من كل مومس، أو كل امرأة مارست الجنس مع الرجال، من الذي دفعك يا سيدتي إلى ذلك؟ واسمعوها طويلًا وبعمق تحكي سوف يكون كلام وأجوبة كل واحدة هي إجابة واحدة لكن الأسباب لا حصر لها، وعندما تعرفون لماذا لو كنتم رجالًا حقًا. ضعوا أيديكم على أعضاء الجسد الموجوع والعقل الذي مزَّقوه، وبعد ذلك يضع العقلاء والحكماء دواءً لكل مرض، وليس هذا كلام حتى لا تظلموا كلبة أو قطة تمشى فوق أرض هذا المجتمع، حتى الكلبة أو القطة والحيوان له حق ومكانة في مجتمعه، سوف تجدون كلابًا وقططًا وحيوانات في بلاد حولنا لها كرامة: تأكل بالعدل وتشرب ماءً نظيفًا، الكلاب ليست وفيَّة لأصحابها فقط، ولكنها وفية لكل ذرة تراب في هذا الوطن، معلش ياسادة باتكلِّم جد.. تعالوا شوفوا الكلاب والقطط في بلادي في الشوارع بتعمل أيه.. في بلاد ليس فيها أي كرم للإنسان فيه، فكيف يكون هناك أي كرم للكلاب والحيوانات، الكلاب تهبهب في شوارعنا لأنها تنادي بالعدل للإنسان فيه، والقطط تعوي لأنها حين تأكل من أكوام الزبالة ضربوها وذبحوها، وإن من كرم الإنسان في بلادي أن يدعوه يفتش في عربات النفايات عن لقمة عيش يسد بها جوعه، ونحن جميعًا نندهش من فقره رغم أننا جميعًا فقراء بدرجات.

"نمت في هذه الليلة وأنا أعرف أن تلك الخطبة أدرتها مع نفسي ما هي إلا هجايص وأضغاث، كل الناس في بيوتهم رجالًا ونساءً يقولون ويعرفون ما حدثت به نفسي الموجوعة به، ونمت وأنا أعلم أن كلامي دخان يطير في الهواء، وأن الرجال والنساء في المقاهي يقولون مثل ما أقول، وأنه لا فائدة من الكلام، وأن الفقير في بلادي لا يملك إلا الكلام والهطرسة وكأن الناس جميعًا أصابتهم الحمى فيثرثرون" خلّيني في حالي وبلاش

أتكلم مع حد، الكلام ده مش ناقصة وجع قلب، ومش هاعمل حاجة والناس ياما اتكلمت مفيش حاجه اتغيرت "يعوض علينا ربنا".

****

"عبير تكشف علاقة صفية مع نور وأميرة في غيبوبة لا تنتهي"

كان في المدينة كل أنواع الرجال والنساء، ولولا حاجتي الماسة لرجل يتزوجني ما كانت مبادرتي في الزواج من نور، ذلك الرجل الذي كافأني به القدر وأنجبت منه ابني أحمد، ولولا تربيتي الحنونة بيد أمي وأبي ماكنت بهذه الصفات، ولن أنسى تلك المرأة عبير التي انتشلتني من الشوارع التي كنت أجوبها باكيةً، وماكنت أعرف أن هناك رجالًا يتسكعون في الشوارع ليلتقطوا النساء الباكيات، من حي واحد نشأت فيه عرفت كل حكايات النساء والرجال، ولَّما كانت عبير تلك المرأة الصالحة صريحة وصادقة ومصلحة لغيرها من النساء لما كان احتفاظي بكياني حتى تزوجت من هذا المهندس بائع الخضار، ومرت أيام وشهور ونور يهتم بي وبابنه يرعاني ويرعاه حتى جاء يوم ماتت فيه أمي، وكان يومًا حزينًا وأصبحت الحياة بدونها أمرًا مؤلمًا وتغَّيرت الدنيا حولي وعدت بلا سند، فالأم الشريفة البسيطة المؤمنة مثل أمي لا ينساها أبناؤها أبدًا ويذكرونها دائمًا بالطيب والدعاء، حتى أن كل شارعي من نساء وبنات ورجال مازالوا يذكرونها بالخير والحسن، لكن ما حدث بعد وفاتها وكان مغايرًا لما كانت تتمناه، أنني لم أشتر شقة تمليك باسمي وأغراني نور في يوم قائلًا:

- ياحبيبتي ماحنا قاعدين في شقة، إنتِ عارفه نعمل أيه بالفلوس دي؟
- أيه يانور؟
- ناخد محلين جنب محل الخضار نفتح واحد عطارة والتاني كباب وكفته..

- اللَّي تشوفه يا نور طالما دا أحسن لينا ولابننا..

ومرت بعدها أيامًا وشهورًا فيها اشترينا محلًا للكباب وآخر للعطارة، وكثرت دنيا الأعمال خاصتنا وكان نور يغيب عن البيت أوقاتًا طويلة يقضيها في إدارة المحلات الثلاثة، ولما كان يعود إلى البيت يكون قد بلغه التعب والإرهاق فيخلد إلى النوم بعيدًا عني في غرفة أحمد، ولمَّا كنت امرأة بالغة الحسن وبضة الجسد وعمري لم يتعدى الأربعين عامًا كنت في حاجة كبيرة لزوجي ولكنه ذهب كل تفكيره ووقته إلى عالم التجارة فانشغل بكثرة المال والحسابات ومشاكل العمال في المحلات الثلاثة، وإذا قضى معي بعض الوقت في نهار أي يوم ينشغل في الحديث مع موردي الخضار واللحم والعطارة، وكنت أرتدي له أرق الثياب وأجملها مما كان يبرز مفاتن جسدي وجماله أكثر مما كنت في أول أيام زواجنا، وكان يرُدني ولا ينظر إلى وجهي حتى لا يقع تحت تأثير شوقي إليه؛ فيقوم هاربًا مني ويخرج من البيت إلى عمله أو إلى أي شيء آخر لا أعلمه، ومع مرور الأيام لم يعد زوجي هو الرجل الذي كنت أمتلكه وكان لي وقت ما أريده، وفي يوم واجهته بما في داخل نفسي من ألم:

- مابقتش زي الأول يا نور!
- إزاي؟ مانا معاك طول الليل وباقي الوقت في شغلي يا أميرة، هو إنتِ عايزاني أقعد جنبك؟!!
- مش كده... زي ما الشغل ليه وقته أنا لّي برضه وقت معاك.
- يا سلام يا أميرة هي الحاجة دي مش خدت وقتها وكل وقت له ظروفه؟! مش عندنا ابن نعملُّه مستقبل؟!!

- أنا معاك لازم كل حاجه في حياتنا تاخد حقها، الناس مش بتعيش في ناحية واحدة وتسيب بقية النواحي حواليها يا نور بيبقى فيه توازن وعدل بقدر الإمكان بحيث كل جانب من حياتنا ياخد حق.
- إنتِ باين عليكِ فايقة بتتكلمي في حاجات غريبة!
- دلوقت بقى كل شيء بقوله غريب وقبل كده لما كنت فقير كان عندك مشاعر وكنت شايفني وكل ما كنت أعوزك ألاقيك؟!!
- كل الناس في الخطوبة وأول الجواز بيبقوا حاجة وبعدين لما الدنيا بتمشي ويبقى فيه أبناء الدنيا لازم تكون عملية أكثر.
- هو دا كلام؟!! كل الناس حتى آخر حياتها بتعيش وأنا بقى لي أكثر من سنة مش عايشة ودا ماينفعش يا نور، أنا مش كنبه ولا واحدة من الصعيد ولا جايبها من البلد!!
- كده كده إنتِ هاتعيِّبي على الصعايدة وبتوع البلد! مش قلت لك أنا من عابدين مش من أي بلد قبلي أو بحري يبقى بلاش الكلام ده.
- إنتَ قلت لي مرّه إن أصل أبوك صعيدي وكل واحد في الآخر بيرد لأصله.
- شوفي بقى إنتِ زهقتيني بكفاية قوي، سيبيني أشوف شغلي، عيب يا أميرة إنتِ مش صغيُّرة..
- يا نهار إسود عليّ هُو أنا لما أقولك عايزة حقي كزوجة وخلّي بالك مني شوية يبقى أنا صغيرة، للأسف مابقاش فيه تركيز عندك خالص!!
- اسمعي يا أميرة إنتِ دوشتيني بالكلام الفارغ ده، بكفاية كده أحسن والله أطفش من البيت.

- أيوه أيوه، تعالوا يا ناس اسمعوا إلي بيجرى، كده إنتَ جبت من الآخر، إنتَ شايف لك شوفه قولي.. ما هو أصل الفلوس كترت معاك، ماتنساش إن الهنا اللي إنتَ فيه بتاعي وبتاع أمي.
- الله يخرب بيتك وبيت أمك.
- كده يا قليل الأصل يا واطي يا بياع الخضار.
- آه يا كلبة يا قليلة الأدب إنتِ بتعايريني! ومين أجبرك على جواز البياع، أنا برضه مهندس في الأول والآخر.
- شوف إنتَ جبت كل ده، أنا دلوقتي بقيت كلبة، لمُّا أبقى كلبة يبقى جوز الكلبة أيه؟! وأمسك نور بالمكواة التي كانت أقرب أداة إلى يده وقذفها على طول ذراعه فارتطمت بزجاج البلكونة فتهشم وأحدث صوتًا مفزعًا في البيت، رحُت أجري خائفةً إلى غرفة أحمد فوجدته يقف فزعًا أمام سريره.
- فيه أيه يا ماما فيه أيه؟
- بابا.. بابا.

واحتضنت ابني في أحضاني ورحتُ أبكي بشدة وأحمد يربت على ظهري.

- لأ يا ماما لأ، ماتعيَّطيش، هو أيه اللَّي حصل مع بابا؟
- مافيش يا حبيبي مافيش.
- وحملت أحمد بين ذراعي إلى صدري وخرجت وأنا أحتضنه ملء قلبي إلى صالة البيت، فرأيت نور يهرول نحو الباب مشوِّحًا وشاتمًا: يلعن أبو اليوم اللي شفتك فيه وقبل أن يفتح الباب زعقت قائلةً:
- إنتَ بقيت كده ووصلت معايا للآخر، لو كنت راجل ماتجيش البيت دا تاني.

- سمعني وهز رأسه كأن شيئًا في داخله قد ثبت وصفق الباب خلفه في عنف وعلا صوته وهو ينزل الدرج.
- بس كده، يلعن أبو بيتك.
- وفتحت الباب بسرعة لأرد عليه..
- هُّو كده ياقليل الأصل.. داهية تاخدك.

واحتضنت ابني وأخذته إلى فراشة في رفق.. وسألني مرات فيه أيه يا ماما؟ بابا بيزعَّق ليه؟

ولم أرد عليه مهدئة ورحت أربت عليه حتى نام، دخلت المطبخ أقضي حاجيات البيت والدموع تملأ وجهي وأمسحها بردن قميصي وملأني إحساس بأنني عبيطة وفجأة رنَّ الهاتف، ليس هاتفي لمَّا ذهبت ناحية الرنّ الذي يعلو من توالي الرّنات، إنه هاتفه نسيه من هول الخناقة وفي لحظه فتحته ليأتيني صوتًا نسويًّا:

- يانور إنتَ فين؟ أنا جيت امبارح تعالَ مستنياك..
- إنتِ مين يا ست إنتِ؟
- وانت مين؟ هوَّ فين؟
- أنا سكرتيرته.. أصله نسي المحمول وخرج من المحل.
- بلَّغيه لما يرجع يكلمني ضروري.

وارتفع الضغط في رأسي مين دي؟! دي بتتكلم بعشم جامد! أنا جيت امبارح مستنياك! ضروري يكلمني!! مصيبة فيه أيه باين فيه حاجة جامدة، ياترى من إمتى؟! وأنا قاعدة مغفلة نايمة على نفسي، ولم أجد من ينقذني مما وصل إليه حالي إلاَّ هي.. وهاتفت صديقتي عبير وقلت لها بصوت مرتعش باكي:

- آلو.. يا ست عبير عايزاكِ ضروري ممكن تيجي؟
- آجي قوي ياحبيبتي فيه حاجه؟ طمنيني.. صوتك كإنَّك عيطتي كتير!!
- أنا فعلً ًا تعبانة قوي يا ريت تيجي بسرعة.
- حاضر ياحبيبتي.. إدّيني العنوان تاني.

جاءتني متلهفة وارتميت على صدرها كأنها أمي وأخذتني في أحضانها بصدق وكادت تحملني وهي تسندني حتى أوصلتني إلى أول مقعد بالصالة.. وكطفلة بريئة لم ينقطع بكائي بين نحيب وتشنجٌ وراحت تمسح دموعي بمنديلها حتى جفَّت وحاولت أن أتماسك لأحكي لها:

- شوفي اللَّي قبل كده كوم واللَّي حصل النهارده كوم..
- سامعاكي قولي يا أميرة.. بس اهدي علشان خاطري.. طيب علشان خاطر ابنك.
- من الآخر، اللَّي حصل النهارده...

وحكيت لها بالتفصيل، خدي شوفي آخر المصيبة:

- نسي تليفون.. رن التليفون.. لقيت واحده بتقول: إنتِ مين؟ أنا جيت امبارح تعالَ.
- هاتِ الرقم ورَّيني.
- يالهوي.. معقولة يا نهار مطيَّن دا رقم صفية.
- صفية مين؟ عارفاها؟
- دي صاحبتي من أيام الجامعة.
- كمان ودي نظامها أيه؟ سنها؟ بتشتغل أيه؟ هي تاجرة خضار، لحمة، زبونة...؟؟

- اهدي خليَّني أجمَّع.
- على مهلك خدي راحتك عايزة أعرف كل حاجة عملها من ورايا.
- اسمعيني.. جوزك اسمه نور؟
- أيوه.
- هوَّ أصلا مهندس؟
- أيوه.. وكان بيَّاع خضار في الحي.
- يبقى هوَّ نور.
- عارفاه كمان.
- قالت لي مرَّه إنه اتجوز، وخدت تليفونه من أخوها كمال، وهاتفته مرَّة لقته مش متجاوب معاها.
- كانت بتحكيلك أول بأول كل حاجة؟
- خلينا ماشيين واحدة واحدة.. آخر مرَّة عرفت منها إن نور اتجوز.
- كانت عارفاه قبل مايتجوزني؟
- نور كان ساكن عندهم أول ماجه إسكندرية.
- يا نهاري قولي كمان كان ساكن كمان يبقى العلاقة استمرت ومن قبل جوازي بيه ولغاية دلوقتي.
- مش عارفين العلاقة وصلت لأيه خلينا مانظلمش، على فكرة أنا افتكرت نور وكنت شاهده على عقد جوازه بأمها.
- ياخرابي! اتجوز أمها!!

- دا الحكاية طويلة قوي.. اهدي هاقولّك كل حاجة علشان تشوفي الدنيا وصلت لأيه مع جوزك وبعدين نتصّرف.
- طيب قولي ها سمعك ومش هاتكلم كلمة.
- الأول فوقي شوية من العياط، أنا عطشانة وعايزة قهوة مظبوطة.
- رَّبنا يصبَّرني على ما تحكي، أعملك قهوة مظبوط وأنا قهوة سادة.
- طيب خلاص، على ما آخذ نفسي.

عملت القهوة وأنا أرتعش وأبكي ومسحت دموعي وحملت الصينية إلى ضيفتي الكريمة التي تحمل كل الأسرار وتهديني إلى طريقي:

- اتفضلي يا حبيبتي خدي الميَّه الأول.

تركتها تشرب قهوتها وأنا أحتسي فنجاني وأتمايل في قعدتي فوق المقعد واستجمعت أعصابي وحاولت تهدئة نفسي فلم أستطعْ فوضعت كفي على وجهي حتى لا تسقط رأسي من فوق جسدي هكذا أحسست وأنا أسمعها:

- قولي يا حبيبتي، قولي كل حاجة.
- اسمعي يا أميرة كمبدأ: أي واحدة مننا، من نسوان البلد دي لو ماخدتش صدمات حياتها بالرَّاحة وصبر وشوية إيمان كانت أي ست من الصدمة الأولى في حياتها يجيلها انفجار في المخ، خدي الموضوع بالرَّاحة بدون صدمات ولا انفعال وأنا هاحكيلك كل حاجة علشان نشوف الموضوع وصل لأيه ونعالجه إزَّاي.
- هاحاول والله، أنا مقّدره وقوفك جنبي والحمد لله إنك عارفه نور وحكايته من أول ما جه إسكندرية.

- خلاص اسمعي.. أول ماجه نور إسكندرية في شقة أمها في قوضة مفروشة، صفية دي ساكنة فوق شقة أمها وكانت متجوزة واحد قريبهم مالوش في الحريم وكان بيسافر علطول ولما ييجي ولا كنه موجود، ولما نزلت عند أمها شافت نور وخطط تعمل معاه علاقة لكن اللي حصل أمها لهفته منها.
- أمها اتجوزته على طول.
- لأ، قعد شوية مع أمها من غير جواز.. وبعدين اتجوزها لما انفصل من شغله، بعدها اشتغل بياع خضار والست وقفت معاه قوي لغاية ما نجح في شغلته الجديدة كبائع خضار.
- وبعدين؟
- عرفت من صفية إن نور ساب البيت وإن أمها في حالة نفسية سيئة وكانت بتهلوس لغاية ما ماتت، في موتة أمها جه نور وحضر الدفنة معاهم، بعد الموتة خدت صفية تليفون نور من كمال أخوها.
- أفهم من كده إنه كان عاشق لأمها مدة وبعدين اتجوزها وبعدين طفش، وفي الآخر كانت صفية عنيها منه؟
- أتوقع إن فترة موت أمها كان متجوزك، وبعدين.. وسكتت..
- يمكن بعدما اتجوزني ماسابتوش صفية قبل أو بعد جوازي منه..
- شوفي المهم من الآخر.. لَّما صفية كلمته النهارده العلاقة بينهم أيه؟
- هوَّ دا اللي عايزة أعرفه، الله يخلَّيكي خلَّيكي معايا للآخر.
- أنا للآخر في الموضوع مش هاسيبك، هاكلمها دلوقتي من تليفوني واسمعي الحوار يا أميرة من بعيد هاعرف حقيقة العلاقة بينها وبين جوزك..

- من النهارده لا جوزي ولا أعرفه.
- اسمعي الأول وبعدين نشوف هانعمل أيه هافتح الميكرفون علشان تسمعي المكالمة.
- ألو..
- معقولة يا عبير! بعد ما بهدلتيني بتكلميني!!
- وإنتِ بهدلتيني يا صفية.
- من الآخر ماقدرشي أستغنى عنك ومن ساعتها وأنا حزينة على نفسي.
- وأنا كمان مافيش داعي للكلام والعتاب، القلب الطيب بلاش كلام ولا عتاب خلينا في المهم.. إنتِ فين دلوقتي؟
- في شقتي.
- جيتي إمتى؟
- جيت امبارح في نص الليل.
- عايزة أشوفك.
- تعالي وباتي عندي عايزة أحكي معاكِ..
- بقولك أيه هاجيلك بكرة بعد الظهر، على فكرة أنا شفت نور امبارح وأنا راكبة العربية، ألاَّ هَّو فين دلوقتِ.
- نور وصل لما اتجوز مراته دي وبقى صاحب عمل وبتاع بزنس ماحَّدش قدَّه، تصوري جاب سكرتيرة، ردت عليّ من شوية، شوفي الدنيا بعدما كان بياع في الشوارع بقى عنده سكرتيرة وصاحب محلات..!!
- جاب المحلات منين؟

- منها.
- مين اللَّي قال ما يمكن من تعبه وشقاه؟
- هو قايلي على كل حاجة، دا حتى المحلات باسمه.
- وش عرفك كل حاجة عنه لغاية دلوقتِ.
- واحد عيني منه من ساعة ما نزل في بيت أمي أسيبه!!
- إنت ماشية معاه دلوقتِ؟
- من بعد موت أمي، أقل من سنة تقريبًا.
- وعلاقتك بيه وصلت لأيه؟
- عاشق ومعشوق.
- يخرب بيتك وبتقابليه فين؟
- في شقتي كل ماجي إسكندرية.
- مش حرام عليكِ دا واحد متجوز ما تسيبيه في حاله.
- إذا كانت أمي ماسابتوش في حاله، هو حد سابني في حالي ما إنتِ شايفة حياتي كلها قرف من ساعة جوازي بعبد الشكور، بعد كده أي حاجة قابلتها مارحمتنيش وإنتِ شايفة الدنيا معايا واقفة لغاية دلوقتِ.
- هشام مش مكفيكي؟
- كان في الأول، دلوقتِ عنده بدل الست عشرة، وكان لازم أدوَّر علي واحد ملاَّكي.
- ولقيتي نور.

- دا راجل عسل، خلَّصت معاه من أول يوم جالي، ولقيته خمورجي وله في الحشيش كمان.
- شربتيه حشيش؟!!
- وأيه يعني الحشيش معايا زي الميه في الحنفية.
- بيبات معاكِ بالليل؟
- بالنهار بس علشان بيته.
- يعني زي ما عشق أمك عشقتيه بعدها، دا إنتِ فظيعة.
- ماتخلنيش أفتح معاكِ علشان مانزعلش تاني.
- لأ افتحي يا صفية قولي اللي في نفسك.
- أنا أرحم منك، هو إنت سبتِ راجل في البلد.
- كتَّر خيرك برضه مش هازعل منك أنا دلوقتِ توبت توبة نصوحة اعملي زيي.
- هاتوب عن أيه؟ عن هشام ماقدرشي دا راجل باشتغل عنده.
- دا أكل عيشي يا عبير، في أي وقت عايزني تحت أمره.
- أقصد توبي عن نور وسيبيه لمراته.
- أسيب كل حاجة لكن نور لأ، هو الوحيد اللي بيشعرني بأني حرة مع نفسي، وكل ماشوفه أدعي لأمي سبب معرفتي بيه، إنتِ عارفه نور هو اللي بيخليني أحب بلدي أحب إسكندرية هو الوحيد اللِّي ليّ فيها..
- شوفي راجل تاني مش متجوز.

- حلاوتها إنه متجوز- بيشعرني إني إنثي بيدِّيني إحساس إني المفضلة وإني أحسن من أي واحدة متجوزة ومستقرة في بيتها على فكرة أنا مظلومة في الدنيا دي كلها إنتِ عارفه ليه؟
- ليه؟
- ماليش بيت، إنتِ عمرك شفتِ واحدة مهجَّرة طول عمرها وفي الآخر برضه ماليش بيت..
- هي دي عقدتك يا صفية.. ربنا يهديكِ.
- ويهديكِ يا عبير.
- باي دلوقتي، هاكلمك تاني.
- باي.

****

"مكالمة ثانية مع صفية وعبير تبقى مع أميرة حتى النهاية"

بدأت الدنيا تنهار من حولها ولم تتركها عبير وبقيت معها ترعى شئونها ولم تذهب إلى بيتها إلا مرة واحدة لتأتي بملابس لها ولمّا استمرت تغرق في صدمتها قالت لها عبير:

- لازم تتعاملي مع الواقع فوقي شوية.
- مش عارفه أعمل أيه؟ الخاين خد كل حاجة؛ المحلات باسمه ومابقاش معايا حاجة.
- دي غلطة كتير من الستات.
- والعمل أيه دلوقتِ؟

- نعمل له قعدة رجالة.
- الكلام دا في البلد مش هنا.
- ماخدش الموبايل بتاعه.
- مش مشكلة عنده كل الخطوط على كذا جهاز.
- لو اعتذر وتأسف على غلطه تقبلي يرجع للبيت؟
- أنا مشكلتي دلوقتِ إن كل مالي في عبه، واللي زي ده ماقدرشي أتعامل معاه تاني.
- علشان الولد.
- كان عمل خاطر لابنه، هوَّ كان ناقصه أيه معايا، ولو كنت مقصَّرة في حاجة كان يقول لي أصلَّحها.
- من ناحيتي أروح أقابله أشوف رأيه أيه بعد اللي حصل وأروح للمضروبة اللَّي ماتتسماش أعرف منها الموضوع معاه وبعد كده نقرَّر نعمل أيه.
- اعملي اللي إنتِ شايفاه يتعمل أما أنا خلاص، أنا ادمرت، وإذا كنت باقية على حاجة في نفسي ومن صحتي علشان خاطر ابني مين يرعاه ويربيه وهو دا أملي الوحيد بعد اللي حصل..
- على فكرة مش إنتِ لوحدك في بلدنا بتعمل كده، كتير من الستات خانتها رجالتها وعايشين علشان الولاد، الأمومة عند ستات كتير هي الهدف الأول والأخير واللي بتعيش عليه أي زوجة عندها ولاد، الراجل في البلد كلها إيدك منه والأرض.
- إنتِ بتصبريني ولا بتعزِّيني يا عبير؟

- أبدًا والله الغم والهم متوزع كل ست عندها شوية وأنا عايزاكِ تفوقي وبس.
- خلاص اعملي اللي تشوفيه في الموضوع شوفي صاحبتك الأول عايزة أيه منه وبعدين نشوفه آخرته أيه..
- هاتفت عبير صفية فوجدتها في الناحية عند هشام وقالت لها:
- عايزاكِ.. هاترجعي إمتى؟
- بالكتير أسبوع عايزة أيه؟
- الدنيا ضيقة قوي يا صفية.
- مش فاهمة!
- أنا عايزة أعرف حكايتك مع نور من أولها لآخرها.
- يهمك في أيه؟ عايزاه؟ ماشبعتيش؟!!
- هانرجع تاني لقلة الأدب.
- طيب خلاص ماتزعليش.
- هوَّ نور ده فيه أيه أمك مارحمتوش وانت استلمتيه من بعدها فيه أيه؟!!
- أبدًا هي حالة نفسية.. حاجة كنت عايزاها أول ماجه سكن عندنا ما طولتهاش، ولما أمي ماتت حققت رغبتي مش أكتر.
- يعني مش ممكن تقطعي علاقتك معاه.
- إذا كان دا يريحك أقطع علاقتي بيه.
- علشان خاطر متجوز واحدة طيبه قوي، بلاش مراته علشان خاطر ابنه.
- حوشيه هو، هو مين اللي بيروح للتاني، هو اللي بييجي عندي مش أنا اللي باروح له.

- طيب لما تنزلي نكمل.
- إسمعي أنا مش ناقصة رجاله، كفاية عليّ هشام وفيه غيره هنا معانا في الناحية نفسهم أشاورلهم بس.
- يبقى كده اتفقنا.. عيشي زي ما إنتِ عايزة بس سيبي نور.
- نفسي أعرف يهمك في أيه.. الموضوع قافش عندك قوي..
- أنا مايهمنيش أعرف أي راجل في الدنيا، الراجل بالنسبة لي طلاق نهائي، أنا يهمني تسيبي نور لحاله مع مراته وابنه.
- إنتِ عارفه مراته؟ صاحبتك يهمك أمرها؟
- أيوه مراته صاحبتي وتهمني.
- قولي كده من بدري شوفي يا عبير نور زي أي راجل عايزني بقوله تعالَ، وماتنسيش إن نور بالنسبة لبيتنا إحنا واخدين عليه حاجة كده زي عشرة زي أخويا وبعدين كنت عايزة أعرف هوَّ عجب أمي في أيه.
- ولقيته عجب أمك في أيه؟
- ولا حاجة هو راجل عادي جدًا وكان بالنسبة لأمي ستر وغطا قضت حاجتها معاه مش أكتر من كده، هو بالنسبة لي كمالة عدد واحد بلاقيه لما أنزل إسكندرية.
- أفهم من كده هو بالنسبة لك مش الراجل الوحيد.
- من الآخر.. هو اللي بيتجنن عليّ أول ما بنزل البلد، وأكتر حاجة قالهالي إنك يا صفية بتفكريني بأمك.
- إنت مسخرة يا صفية.

- من الآخر إذا كان يهمك قوليله مايجيش عندي ولا يتصل بي خالص، حوشيه يا عبير بس هو يقدر يتوب عني ويبقى خالص لمراته، اسمعي ياحبيبتي نور بالنسبة لي تسالي مش أكتر، وإذا كان عليّ مش هاردْ عليه في التليفون ولا هافتح له بابي، ابعديه عني على قد ما تقدري، عايزة حاجة كمان؟
- لما تنزلي هاكمل كلامي معاكِ.
- الموضوع دا خلص يا عبير من دلوقتِ، تبقي عايزاني ليه تاني...
- عايزاك علشان إنت في الأول والآخر حبيبتي وصاحبتي.
- باي يا عبير لما أنزل أكلمك.
- باي.

وقفلت عبير هاتفها وقالت لأميرة بكثير من الارتياح:

- شوفتي بقى؟ سمعتِ كل حاجة؟
- كده استريحت شوية، يعني هو اللي بيجري وراها.
- بعيد عنك حالة مرضية بيفتكر أمها العبيط وهي معاه.
- سمعت الخيبة، عمري ماكنت أعرف إنه هايكون مستهتر كده، يعني لما ربنا إداه كل حاجة تبقى الدنيا قدامه سداح مداح كده!!
- يعني دا راجل جايبها من تحت كان بياع وعملت منه حاجة كبيرة بفلوسك وفي الآخر يخونك؟!!
- شوفي بقى، عمري ماكنت أفكر إنه في يوم يخونني، كان المفروض يرد جميلي عليه طول عمره ومايكفِّيش كمان اللي عملته معاه.

- شوف واحدة واحدة إديني تليفون أكلمه قدامك برضه قبل ماروح أقابله وأتكلم معاه.
- خدي تليفونه.
- هاستريح شوية ولما أقوم أكلمه.
- قومي نامي شوية إنتِ تعبتِ معايا.

****

ولم تمر هذه الصدمة بسلام، فاجأتها نوبة غثيان وهي تقضي حاجاتها في المطبخ ولما وقعت هرول الصغير إلى خالته عبير وأيقظها فزعًا:

- ماما.. ماما وقعت في المطبخ.
- انقلبت إليها تشدها من فوق الأرض، كانت تتأوه مغمضة العينين بصقت على أثرها الدماء، قدماها لا تقوى أن تحملها وتحاملت عبير ببذل أقصى جهدها وهي تجرجرها إلى سريرها راجية منها:
- حرام اللي بتعمليه في نفسك لازم تبقي أقوى من كده خلّي فيكِ شوية علشان ابنك علشان تاخدي حقك منه، والله ما يستاهل اللي بتعلميه في نفسك ده.
- غطتها بملاءة وأمسكت بهاتفها وطلبت طبيبة تعرفها بأن تأتيها حالًا بعد أن وصفت لها الحالة، أعدت لها كوب ينسون فلم تشرب منه رشفة وانحنى عليها أحمد وراح يقبلها، وانفجرت الدموع من عيني عبير وكتمت نحيبها إلا أنها دخلت الحمام وأطلقت العنان لدموعها وأجهشت في البكاء وراحت تسعل وعطست مرتين، ولما أفضت بانفعالاتها غسلت وجهها واندفعت إلى أميرة فوجدت أحمد ينكفئ فوقها ويبكى: ماما.. ماما.. مالك؟! وبدأت تفيق قليلًا

وتمسك برأس وليدها راجية: مافيش ياحبيبي ماتخافشي ماما كويسة، شوف طنط عبير تعبانة معانا إزاي؟

أمسكت بكف يدها أدلكه بين كفي يدي ورحت أؤكد لها مشاعري نحوها بإصرار:

- شوفي يا أميرة، عمري ماسيبك في محنتك لا قبل ولا بعد، ماورابيش حاجة غيرك اعتبريني أختك وصديقتك ما صدقت إني يبقى لي حاجة أقوم بيها في حياتي يكون لها قيمة، أنا ما بعملش حاجة يا أميرة ممكن بقى مايكونشي فيه تكليف بيني وبينك؟
- خلاص يا عبير ربنا يخلِّيكِ لي وهو وحده اللي هايجازيكِ.
- طولي بالك وشدي حيلك شوية، لازم نكمل ونشوف الدنيا معاكِ هاتوصل لأيه، ودا مش ممكن يكون حلو إلا لما تكون صاحبة الموضوع بحالة صحية كويسة.
- هاقوم وابقي كويسة.
- طيب ساعديني وقومي أدخلي الحمام وتتشطفي وتفوقي شوية على ما الطبيبة تيجي.
- إنتِ جبتي طبيبة كمان؟!!
- أيوه علشان نطمن عليكِ.
- ربنا يخلِّيكِ ويجازيكِ.
- ولما فحصتها الطبيبة طمأنتنا بأن الحكاية كلها انفعال زيادة ولازم من الهدوء شوية، وكتبت أدوية ومسكنات نزلت اشتريتها من الصيدلية المجاورة للبيت،

ومر يومان فيها تعافت أميرة ولم أتركها ساعة واحدة فيها أرعى الصغير وأرعاها، أطبخ وأغسل وأنظف بيتها كأنه بيتي، وكم كنت سعيدة بخدمتي لها حتى أنني لأول مرة أشعر بأنني فائقة بسعادة لم تداخلني من قبل، ومنذ اتخاذ طريق توبتي عن الماضي والذي بدأت أنساه وأنا أقف مع أميرة في صدمتها، وذلك الشعور زاد في إصرارا على أن أكمل معها حتى النهاية ولو كان ذلك يقتضي بذل أقصى جهدي معها حتى يقضي الله أمرها إلى خير.

****

"صفية تتمسَّك بعشيقها وفتح الله وبطرس من زبائن ملهى ميادة وماجدة"

كانت صفية تحاول الاستحواذ على هشام معلم الناحية وتكون هي المرأة الأولى دون كل النساء اللاتي حوله، وبذلت كثيرًا من الجهد لكنها لم تفلح، خاصةً بعد أن دخلت فاتن وميادة اللعبة المختلفة مع كل نشاط الناحية، وكان الملهى وما يقدمه كل ليلة من غناء ورقص يوازي أي ملهى في المدينة في صخبه وامتيازه، لأنه يقدم كثيرات من الفتيات الهاويات في الرقص والغناء، ولم يكن فتح الله الذي مازال يعمل في الحدادة يستطيع منع ابنته ماجدة من الرقص في الملهى، وكذلك لا يستطيع بطرس عميد النجارين منع ابنته ميادة عن نشاطها في الملهى، وفاتن تلك قريبة فتح الله مسئولة الإدارة الفنية بملهى الناحية، والتي من جانبها لا تمانع في تزويد مسرح الرقص والغناء بالمزيد من الهاويات اللائي يجلبهن سماسرة من قلب المدينة طالما أن الفتاة جميلة وصاحبة ساقين مثيرتين، وكان هشام يبعد صفية عنه بتمكينها من مسئولية البيع للمصنع الرئيسي ويشغلها بالمبيعات والحساب مع مندوبي المبيعات، حتى أنها في يوم أصبحت مسئولة عن توريد

المبالغ من كل المناديب والتحاسب معهم وتوريد صافى مبالغ المبيعات للخزينة الرئيسية التي ترأسها فاتن رغم أنها لا تعرف شيئًا عن المبيعات ومصروفات الشحن الخاصة بمناديب التوزيع، إلا أن هشام يريدها هي في هذا العمل ويفضِّل أن يأخذ منها كل الأموال العائدة من هذه التجارة، واندهشت صفية من إزاحتها لتصبح في هذا الوضع المهني الجديدة بعيدة عن هشام، والذي كان يفضلها من قبل أن تكون في الصورة دائمًا، كانت فاتن تصغرها بعشر سنين، أطول منها، راقصة درجة أولى، لا توجد امرأة أو فتاة في الناحية لها سحر ساقيها وجمال صدرها الفاتن ولفتة وجهها الجاذبة حتى ميادة وماجدة اللتان تصغرانها لم يكن لهما نفس الفتنة التي تملكها فاتن، وهكذا انزاحت مكانة صفية بمرور الأيام وخاصة بعد افتتاح الملهى، وأصبحت المرأة غير المفضلة عند هشام، عادت درجة تانية أو تالتة بين نساء الناحية اللائي يحيطن بهشام، وكانت ترى ذلك واضحًا من يوم إلى يوم وتزداد المسافة التي تبعدها عنه، والذي أصبح رجلًا صاحب اهتمامات أخرى تشغله عن عمله الرئيسي في صناعة الكيف، وبدأ هشام لا يدخل كوخ صفية كما كان يفعل، وعادت وحيدة في بيتها الصغير وراحت تبكى على أيامها الأولى معه وتمتلكها الغيرة الشديدة من فتيات لا عدد لهن يملأن الملهى ونشاطات أخرى تحدث في الناحية، وكان نور في الإسكندرية هو الرجل الوحيد الذي يشعرها بأنها المفضَّلة، وبدأت تفضل أيام وجودها في الإسكندرية عن تلك الأيام التي تعود فيها إلى الناحية وتنام وحيدة في كوخها دون أن يدخل إليها عاشقها الأول هشام، فهل تبحث في الناحية عن عشيق يغنيها عن عاشقها الذي كان؟ وكيف تستغنى عن نور العاشق الوحيد الذي يأتيها في بيتها كلما عادت إليه وهي التي تعهدت مع صديقتها عبير أن تتركه لزوجته، من أبحث عنه في الناحية من أهلها وأغلبهم أولاد حدادين

ونجارين وصنَّاع الكيف وهم جميعًا شباب تبدو ملامحهم خشنة غير جميلة لا يعرفون غير الكفاح والشقاء ولم يصلوا جميعًا إلى أي درجة من الوجاهة ليؤهَّلوا للعشق الجميل الذي تعودت عليه في كل علاقاتها مع رجال أخذوها في شاطئ رشدي ومن ترام الرمل وثالثهم نور عاشق أمها، امرأة نال جسدها ثلاثة رجال فقط فهل لي من عاشق رابع أبحث عنه في مدينتي الواسعة وليس في هذه الناحية الفقيرة بالرجال أصحاب الصفات الراقية أو أصحاب التجربة العميقة في حرفة الجنس مع امرأة مثلى لا أحب أن أعطي نفسي لأبناء المكافحين ولا أحب الفقراء مهما عادوا أغنياء، والوحيد المكافح الذي قبلته أن يأتيني هو نور، كنت أشعر أنه من بيتي وعليَّ أن أجرُّبه لأبحث عما فيه أعجب أمي، ولا أدرى ما الذي قلته لعبير أن تأخذ نور إلى زوجته، كنت عبيطة عندما قلت لها ذلك، إنني لن أتركه لأن في تركي له ضياع نفسي في البحث عن رجل يكون عاشقي، ولا أستطيع إقامة أي شأن لي في المدينة، ويكفيني في هذه الناحية أنني مسئولة المبيعات لتجارة هشام، وأن لي بيتًا مثل بيوت أهل الناحية، أأكل وأشرب على حساب إدارة الناحية والكثير من صبيان وبنات يخدمونني، وهل هناك في مدينتي الواسعة مكانة تليق بي مثل تلك المكانة التي أتمتع بها في الناحية، أكثر من عشرة آلاف جنيه عمولتي ودخلي من عملي في شركة هشام، ألم يكن الناس أهل هذه القرية التي تحيطها المياه من كل جانب محقِّين في هجرة مدينتهم الكبيرة والإقامة هنا حيث العمل والبيت والطعام الوافر، قرية بسط فيها العمل والرزق أعرافه ولن أنسى منذ أيام عندما جلست مع فتح الله الحداد وهو يصنع عوده وأدواته لمَّا قلت له:

- إنت شيخ وأول من عمل مصلية ليصلى الناس فيها ثم أقمت المسجد مع آخرين ومع ذلك يا شيخ... وسكت.

- وبعدين سكتِ ليه كملي فيه حاجة تاني؟
- بس ماتزعلش؟
- عمرى مازعل منك.
- ليه سبت بنتك تشتغل رقَّاصه في الملهى.
- شوفى لما كنَّا في البلد الفقر كل يوم كان بيدق على بيتي ليل ونهار، لا شغل ولا أكل ولا أي حاجة، حتى العمل الشريف اللَّي يجيب القوت ماكانش فيه، عايزانى بعد المر والعذاب وعقدتي من البطالة والفقر أحكر على بنتي؟!! هو أنا هاعيش ليها ولإخواتها! ليه الكل من بنات وأولاد أي حد مايشتغلش، وبعدين على فكرة أنا أؤمن بالعمل أي عمل يجيب رزق، هو الناس اللي بتروح الملهى لو ماكانش فيه رقص وغنا ماحدِّش يروح، إذًا الرقص واللهو والمزاج ضروري لحياة الناس، ليه أحكر على بنتي وأقول لها عيب ولاَّ حرام؟ كان الحرام والعيب اتقال في المدينة للناس إللى بتضحك على الناس وتقول لهم العدالة والديمقراطية، لازم بعد ما المعلم هشام عمل ناحية فيها كل شيء يجده الإنسان، كان لازم من الناس اللي أكلهم الفقر زيي يشتغلوا بكل قوُّتهم وبكل أولادهم وبناتهم علشان يحرروا أنفسهم من الفقر والجهل، يحرروا حياتهم من ماضي بغيض.. وسكت فتح الله قليلًا فقلت له:
- كويس قوى اللي بتقوله، هي الناس بتاخد عليك مأخذ لأنك أول من نادى بعمل مكان للصلاة.
- أنا مش فقيه أنا راجل عادي، وعلى فكرة أنا لما كنت في البلد عرفت بيوت شيوخ وفقهاء ولادهم بيشتغلوا في ملاهي وبارات، واحد فيه بنت من بناته

بترقص وواحدة بتغني، وفيه بنات من البيوت دي ماشية على حل شعرها من ورا أبوها الشيخ والداعية، تعرفي أنا أحسن من أي شيخ لأن بنتي بتشتغل قدَّام عيني هوَّ أنا بشوفها بتعمل أيه وبتداريه عني.. تعرفي ياست صفية المدَّاري عند كل الناس أكتر من الظاهر، والظاهر عندنا كله كذب والمستخبي هو الصدق لأن كل واحد بيعمل اللي عايزه، والظاهر في بلاد العرب هو الكذب والنفاق، طيب ليه ماكونش الظاهر زي المستخَّبي؟ شوفي أنا حداد جاهل، الناس بتقول عليّ كده لأني ماتعلمتش، لكن مش هو ده الجهل.. الجهل هو جهل البصيرة والرؤية، الجهل إن الناس تكذب على بعضها، إنتِ عارفه الدين الحقيقي أيه؟

- أيه ياشيخ فتح الله؟ إنت ورَّمت دماغي يا ريتني ما فتحت معاك.
- الدين الحقيقي يبقى الظاهر زي الباطن، اللي على الوش يبقى زي اللي جوَّه، وعلى فكرة أنا مش شيخ ولا أحب أكون شيخ: أنا فتح الله الحداد.
- عمرى ما كنت أتصور إن واحد زيك حداد عنده كل الكلام ده.
- معلش أصل الخيبة إن الناس في بلدنا بيفكروا الحداد والنجار طبقة واطية، معلش ياستي روحي للطبقات التانية شوفي عندها أيه، أكبر حاجة في حياتهم الكذب والنصب والاحتيال وسرقة البلد.
- على فكرة يا عم فتح فيه بنات وولاد من الطبقات الراقية وعايشين معانا هنا، شوف كل طبقة في أي مجتمع في الدنيا فيها كل شيء، طيب دول جم ليه الناحية دي؟
- ليه؟!

- البطالة وعدم وجود الأعمال الشريفة ضرب الكل، أقسم بالله لو كان عندي بنت تانية غير ماجدة لكنت قلت لها: إنتِ قاعدة ليه في البيت اطلعي شوفي حالك.. إنتِ عارفة أيه اللي مبَّوظ الدنيا ومخلَّي حياتنا سودة؟ هو التردِّي بين الحلال والحرام، مافيش حاجة حرام طالما أنا مش بضر المجتمع ولا بامس حياة أي إنسان بسوء، الحلال والحرام دا بتاع ربنا مش بتاع حد من الناس يحرَّموا ويحللِّوا على مزاجهم، آه لو ندع الخلق للخالق ونسيب الحساب إلى ربنا مافيش غيره هو الحكم، إحنا لينا حاجة واحدة بس "العمل"، العمل أي عمل لجلب الرزق طالما أنا مابضرش بحد ولا باسيء للمجتمع لأن الوطن قبل الأديان، الأديان ياستي جت بعد الأوطان.
- حرام عليك ياعم فتح الله، أيه اللي بتقوله ده؟!!
- مش أنا لوحدي اللَّي باقوله، كل الناس في الناحية عندها كل ده وأكتر، طَّيب ياريت عندي بنت تانية جميلة زي ماجدة، لكن للأسف البنت التانية جربانة زي أبوها.

ورحنا نضحك معًا حتى أتتنا أبنته سعدية بالشاي فقلت لها وهي تنصرف:

- سعدية إنتِ ليه مابتخرجيش من البيت وتشتغلي حاجة تجيب لك قرش؟
- أبويا قال: إنتِ شكل أبوكِ مالكيش سوق يابنتي، زعلت وسكت.
- وأيه رأيك في كلامه؟
- كلامه زعلت منه في الأول لكن طلع صح لأنه واقع، وعلى فكرة أنا اتعلمت صنعة أبويا ممكن أبقى حدادة زيُّه.

وتدخل عم فتح الله بعد أن ابتسم لها وقال موجهًا كلامه لي:

- ممكن.. بس الحاجات التقيلة هاتبقى إيديها خفيفة في الدَّق.
- ربنا يرزقها بواحد زيها يتجوزها ويقدر على الدق التقيل.

ضحكت سعدية وهي تدخل الكوخ بكلام أبيها وقالت:

- يارب يابه...

****

.. مرت أيام بعد حديث فتح الله الحداد معي، ولما كان حديثه مفجعًا دفعني ذلك إصرارًا عندما أنزل إلى الإسكندرية أقابل نور لأعرض عليه مشروعًا تجاريًّا جديدًا في الناحية، خاصةً وأنه أصبح من أصحاب الأعمال، وكالعادة وزَّعت بضاعتي في يومين وعُدت إلى بيتي لأستريح وهاتفته فأبلغني بأن زوجته عرفت كل شيء عن علاقتنا، فقلت له غير مبالية: تعرف ماتعرفشي يا نور تروح في داهية هو مين أولى بيك يا نور أنا ولاَّ هيَّ؟ فسكت، فقلت له:

- ماترد أنا ولاَّ هي؟
- جحا أوْلى بلحم طوره.
- شوف يا نور، تعال ضروري الليلة علشان أطرح عليك موضوع مهم جدًّا.
- ياريت يكون مهم بصحيح.. زي أيه؟
- مش هاينفع الكلام في التليفون.
- أنا برضه عايز أتكلم معاكِ.
- خلاص مستنياك.
- باي يا صفية.

.. كان جو البحر المحيط بالناحية يفتح شهية أهلها في النهار فيعملون ويكدُّون، وعندما يدخل ليلهم يأكلون بشهية أكثر وأشد من اندفاعهم إلى العمل، يجلسون في دوائر أمام أكواخهم حول قصعة النار يحتسون الشاي ويشربون الجوزة المغمسة بالحشيش أو جوزة معسل سادة، وكان منهم يحفر راكية في الأرض ويشوى السمك الذي يصيدونه من البحر ويغمِّسونه بالخبز الطري المخبوز في أفرانهم، ولم يكن أهل الناحية يهتمون بصيد السمك بشكل حرفي كما يفعل صيادون محترفون في نواحي أخرى من البحر، وكان السمك يزحف نحو الشاطئ عندما تبدأ الشمس في المغيب وحتى اقتراب أذان الفجر حتى قبل طلوع الضحى، ثم يجرى السمك في صفوف إلى أعماق البحر ليهرب من أشعة الشمس الحارة في الصيف، أو يدخل في جحور تحت الماء ليحتمي من برودة الماء في الشتاء، وكان أهل الأكواخ يستمتعون بقعداتهم حتى قبل منتصف الليل بساعة فيها كل واحد يدخل بيته فيجد الأبناء يغطوُّن في نومهم وزوجته ترحب به مشيرة إلى سريرها الذي أعدته في ركن ضيق محشور في آخر دهليز الكوخ، كانت زوجة كل صاحب كوخ في هذا الزمن من أوائل القرن الواحد والعشرين تفعل لزوجها مثل ما كانت زوجة الفلاح في القرى في زمن أوائل القرن العشرين من مائة عام، وكأن طبيعة الرجل والمرأة والحياة في تلك البقعة من البحر قد أعادت زمن قرن مضى كان في ريف البلاد، وكأن الطبيعة البشرية بعاداتها وتقاليدها تعيد نفسها كلما كان البحر حول ناحية مازال بكرًا، وتقيد نفسها في كل أرض خضراء يتخذ أهاليها تراب الأرض في قعداتهم وكأنهم يتونسون حول السواقي وفى أجران القمح، ولكن كيف لهؤلاء القوم في هذه الناحية والذين هاجروا من مدينتهم كيف لهؤلاء الحضريين أن يعيدوا عادات الماضي البعيدة مرة أخرى في ناحية هشام الذي يحاول في كل يوم أن يدخل نشاطًا جديدًا يحتاج إليه كل أهل

ناحيته ولم يكن أحد يظن أن فتح الله الحداد وبطرس النجار يذهبون إلى الملهى بعد العاشرة مساء كل يوم ثم يعودون إلى بيوتهم عندما ينتصف الليل، وكان من الشباب والرجال بنات ونساء يذهبون إلى الملهى تقليدًا لكبار الناحية، فتح الله وبطرس كانا يجلسان في ركن بمنتصف الملهى، يحتسيان شايًا وقهوة وكل منهما يدخن جوزة معسل سادة، وكان ذلك يعتبرُ التزاما أمام زبائن المرقص فيقلدهما الكثيرون لاعتبارهما مثلًا من رموز الأديان، وكان هشام قد أصدر قرارًا بألا يتناول أحد من عملاء الملهى الحشيش أو البيرة؛ حيث علقت إعلانات ممنوع الحشيش والبيرة، فاعتاد الزبائن وهم يستمتعون بالرقص والغناء أن يتناولوا المشروبات العادية ساخن وبارد وجوزة أو شيشة معسل سادة وكان لهشام حكمة في أن يكون رَّواد المرقص في حالة اتزان كامل فلا يأتون بأفعال مسطول أو سكران وهم يستمتعون برقص ميادة وماجدة، وكانت فاتن قد تخصَّصت في الغناء، ولما كانت أطرافها تتراقص وشعرها الأصفر الطويل يغطى كتفيها وتطير منه خصلة يمنة ويسرة، وكان دفء في المرقص مع نسمات باردة تنفذ من النوافذ تداعب رؤوس الزبائن فيصفقون ويتمايلون يمنةً ويسرةً هاتفين بأعلى على أصواتهم: فاتن فاتن، يضحك بطرس ويسامر فتح الله هامسًا:

- يحرسك من العين يا بنتي بتسعدي الناس الغلابة.
- ميادة وبنتي ماجدة همَّ أساس الملهى ده، لولاهم ماحدِّش بييجي.
- أه والله يا فتح الله، نعمة ربنا علينا.
- خلّى بالك فيه ناس بتعيِّب علينا.
- دا قصر ديل يا أذعر.
- آي والله كلامك صح، لو كنا في البلد ماكنتش ماجدة ولا ميادة في العز ده.

- الحته دي وسَّعت رزقنا وبقى لينا كيان.
- دي حقيقة الله يكرمك ويدِّيك يا هشام.
- تيجي نقوم يا فتح الله.
- استنى شوية لما تيجي ماجدة وميَّادة فاتن قرَّبت تخلَّص.
- حقك، لازم كل واحد يطمِّن على بنته.

****

"نور صايع وحرامي وأميرة تحسبه لص وابن كلب"

كانت أميرة تلوذ في جلستها على المقعد وكأنها تهرب من شيء، ولما تدخل في فراشها ترتعش أطرافها فتأخذ ابنها في أحضانها قائلةً:

- تعالَ في حضني قوي ياحبيبي.
- كده ياماما، "ويلف ذراعه الصغير حول رقبتها ثم يهمس":
- هي طنط عبير قريبتك ياماما؟
- آي يا حبيبي أكتر من أختي لو كان لي أخت ماتعملش كده.
- باشوفها في المطبخ وهي بتعيَّط قوي يا ماما.
- بتعيّط من ورايا علشان ماعيطش تاني.
- كننت بتعيَّطي علشان بابا زعلك؟
- اللي مزعَّلني العمايل بتاع بابا "الخيانة والغدر".
- يعني أيه خيانة؟ هو عمل أيه فيكِ؟
- لو قلت لك يا أحمد مش هاتفهم كلامي، لما تكبر هاتعرف كل حاجة.

- طيب قوليلي أي حاجة.
- أبدًا يا أحمد شوية زعل وكل البيوت بتزعل وترجع الدنيا تاني.
- مش فاهم.. يعني باباها يرجع هو مش ها يرجع تاني؟!
- إنت ناقصك حاجة يا أحمد؟ مش بكفاية ماما معاك على طول..
- أيوه يا ماما أنا باسألك بس..
- اطمَّن يا أحمد إحنا معانا ربنا شايف طنط عبير بتحبَّك قوي وبتحبني كمان، دا كلُّه مش كفاية؟!

"ودخلت عبير وئيدة الخطى حتى لا توقف ابنى عن همسه معي وجلست خلفي على حافة السرير فانزحت قليلًا وقلت لها:

- تعالِ ورايا يا حبيبتي، اسمعي أحمد بيقول أيه.

ودخلت عبير في فراشنا وامتدت خلفي وشَّدت الغطاء فوقنا وقالت:

- يابختكم.. الدنيا دافية قوي، الله أحلى حاجة نتدفى مع بعض كمَّل يا أحمد كلامك مع ماما.. فيقول أحمد وهو يبتسم ويمسك بيد طنط عبير من كتف أمه ويهمس:
- باحبك يا طنط.
- باحبك يا أحمد قد الدنيا كلَّها..
- وأنا كمان.
- لحظات ونام الصغير فاستدارت أميرة إلى وجه عبير وطفقت:
- نام.. قولي بقى ها نعمل أيه معاه؟
- هوَّ بعد ما قبلْته وعمل عملته لسه هانعمل أيه!! ابتدي من الأول تاني.

- مع مين؟! ابتدي مع راجل تاني؟!!
- ماقصدش راجل، مع نفسك.
- مش المفروض الأول أقابله أضربه بالشبشب شوية.
- لو ضرب الشبشب يفيد كانت ستات كتير ضربت رجَّالتها اللِّي زيه.
- طيب أهزؤه، أشوفه عمل كده ليه، الخيانة ليه، يسرقني ليه..
- نقابله مافيش مشكلة يمكن يكون فيه فايدة، بس هو لو باق راجعة كان جه البيت من نفسه واعتذر.
- فايدة أيه هوَّ بعد دا كله أقبل اعتذار! ننهي الموضوع ويطلَّقني وكل واحد يروح لحاله.
- حكاية الطلاق دي آخر حاجة نعملها، اسمعي أحسن حاجة نقابله برضه تقولي الليِّ نفسك فيه من غير شبشب ولا شتيمة واطلبي الطلاق.
- فين نقابله بس من غير أحمد.
- نجيب الست وسيلة اللَّي قصادنا تقعد مع أحمد لغاية ما نيجي.
- اتفقنا كلَّميه الأول، خدي منه ميعاد ومكان.
- أكلَّمه دلوقتِ.

****

تركنا أحمد نائمًا وخرجنا إلى الصالة وهاتفته:

- ألو، نور معايا؟
- أيوه إنتِ مين؟
- عبير.

- عبير مين؟
- عبير صاحبة أميرة.
- أيوه أيوه، وصاحبة صفية.
- سيبك من صفية، خليك في الناس الكويسة.
- طيب قولي.
- عايزين نقابلك أنا وأميرة..
- أميرة! ليه عايزة أيه؟
- عايزة أيه؟! هي دي مش مراتك وأم ابنك؟ مش هي دي الست اللي عدلت حالك وخلَّتك بني آدم؟!
- اقفي عند حَّدك مافيش داعي للغلط، عايزين أيه ممكن أعرف؟
- أميرة عايزة حقَّها.. عايزة محلاتها وعايزة الطلاق..
- الطلاق في أي وقت عايزاه، محلات أيه؟! المحلَّين باسمي بتوعي..
- ياه بكل بجاحة بقت المحلات بتاعتك؟! إنتَ عايش بمبدأ إلهف واجري، إنتَ فظيع، تعمل كل ده في الست اللَّي قدَّمت لك كل خير" مش المحلَّين بفلوسها حَّبت تعمل لك مستقبل وحياة ودنيا وبَّدت المحلين عن إن تشتري شقة ومن أمانتها قالت لك اسمك واسمي واحد، وكل اللي عملته ده وعمال تخونها مع اللي ماتتسماش!! ليه بتخون؟! هَّو اللَّي بيقدم لك خير بإيده تعضَّها؟!!
- برضه هاترجعي تاني تغلطي؟
- من الآخر قابلو بعض وكل واحد يقول اللَّي في نفسه ولو مافيش حل كل واحد يروح لحاله وقبالته ربنا..

- فين نتقابل؟
- في بيتي عارفه؟ الليلة ممكن؟
- الساعة كام؟ اديني العنوان تاني.
- الساعة ثمانية كويس.. خد العنوان.
- كويس مع السلامة..

"تحل جسده واستطالت قامته ولاحت في وجهه معالم واجمة متجهمة ليس لها معنى، وكان طبيعيًّا أن ينزع الله من وجهه البهاء، دخل بيت عبير يملأه الخزي لكنه لم يدرِ بنفسه، وكأنَّ خديه وكسوفه شيئًا طبيعيًّا تغطي ما في داخله من توتر ونزوع لأن يكون كاذبًا وخائنًا وسارقًا، فكل من له هذه الصفات من رجال ونساء لا يدري بكل معاني الضعف في داخله، لكنه دائما يَّدعي ويعتقد أنه من أحسن الناس لأنه غير قادر على أن يكون بني آدم آخر، وكل الذي كان يفكَّر فيه طيلة علاقته بأميرة ومنذ بدايتها أن يمثل ويخضع وينجح أمام مشاعرها قبل وبعد الزواج لكن الصدق لم يكن سمته في أي تصرف معها حتى تمكن، وكان لنفسه الضعيفة التي كوَّنته منذ أن فصل فصلًا تعسفيًّا من المصنع وهو ناقم على كل من يملك حياة آمنة ومستقرة، لجأ لأن يبوح بضعفه لأمينة صاحبة البيت وتمسكن بحاله حتى تمسَّكت به، باع من جسده لها ليحصل على أمان في بيتها أو أن تبقى معه المخلصة والخادمة والعاشقة حتى مرَّت أزمة حياته مع البطالة وعدم وجود العمل الدائم حتى اشترت له العربة والخضار ليبدأ حياته الحرة مع نفسه، ولم يكن يدفع لها قرشًا واحدًا ولكنه كان يدفع لها من جسده ما يشبع حاجة جسدها العطشان كل ليلة، وكان في رأسه شيئًا واحدًا لا يحيد عنه حتى التقى بأميرة، ولما وجدها تقترب منه راح يجرجرها ويشبعها بكلام معسول، كانت في حاجة إلى رجل

صادق فصدقت كلامه المعسول وتزوج بها وهو في الوش المتدين والجاد في عمله والمخلص لزوجته، اشترت له محل الخضار وانتقل من الشارع إلى صاحب عمل في محل، وقال في نفسه الجشعة: افتح يا فتَّاح أول الحكاية محل، وفي زحمة المشاغل ومجيء الطفل منحته كل مالها حتى اشتري المحلين باسمه، وهنا بدأت ضربة التمكن الكبرى حتى... حتى ماذا؟ وهل هناك بعد حتى مع أميرة؟! غير أنه ومن أول يوم معها وهو يخطف نفسه من بيتها ويذهب إلى صفية في بيتها كلَّما تعود إلى المدينة وكأنه يعيد ذكرياته مع أمها! إنه نفس الجسد ورائحته وعرقه التي لاقاها مع أمها فتعود الذكريات مع صفية الشابة اليافعة، لم يكن وفيًّا لأحد ولا لشيء إلا وفائه لأمها ثم هي، إنه وفي لأول عهده في المدينة، وفي للخيانة والغدر مع الأم، ثم وفي لنفس الخيانة والغدر مع ابنتها صفية التي اندفعت إليه وكأن أول سؤال سألته في نفسها ماذا في نور لتعشقه أمي.. كانت تصبر لأن تعرف ماذا فيه واشتدت حاجتها لمزيد من المعرفة بعد زواجه من أميرة.. فلماذا تهنأ غيرها بحياة البيوت الآمنة وهي ضائعة منذ أول عهدها من زوج موتور الرجولة، وكانت علاقتها بهشام وعملها في توزيع الكيف قد جعلها امرأة أكثر حدة في الاستئثار بنور ربيب أمها.. فلا تلد العاشقة غير عاشقة.. ولم يكن نور غير ربيب البطالة التي كونت في داخله أن يكون وصوليًّا وانتهازيًّا، وأن يكون خائنًا، وما المانع أن يكون سارقًا؟ ألا يمنع أن يكون كل شيء حتى يشبع الكثير مما في نفسه من طموح جامح!

" لما دخل البيت كان لابد من عبير أن تستقبله كما يفعل الناس حين يأتيهم أي ضيف حتى ولو كان مؤسفًا:

- اتفضل اتفضل.. وأشارت بيدها إلى الغرفة.

" دخل على أميرة وهي قاعدة في صمت واجم تنظر إلى الأرض فقال وهو يدخل:

- سلام

- سلام

وجلس في مقابلتها، واتخذت عبير مقعدًا بجانب أميرة وبادرته عبير قائلةً:

- عرفت العنوان؟

- سهل.

- أجالت بطرف عينيها نحوه فرأته بشعًا جافًّا مثل قحف النخيل، وقالت في نفسها: القحف قحف حتى يموت وعمر القحف مهما عدلتي فيه ما يكون إلا قحف ابن قحف، لحظات صمت ثم قالت له عبير:

- تشرب أيه؟

- أنا صايم.

- إنت بتصوم؟!

- أيوه بصوم غريبة؟ بس إلا السجاير.

- بتصوم لمين يا نور؟ وفيه صوم إلا السجاير؟!!

- لربنا السجاير ماقدرش أعيش من غيرها.

- إنت عارف ربنا؟!

- طبعًا عارفه.

- أمال بتزني ليه؟

- أنا بازني!!

- أيوه مع صفية.

- أبدًا هي بنت مراتي زي أختي أو بنتي.
- لا يا نور تُف من بقك إنت كداب.
- إنت شفتيني؟ لما تشوفيني معاها تبقي قوليلي إنت زاني.
- لما ربنا كرمك بالست دي، "وأشارت إلى أميرة".

الست دي خدتك من الشارع وعملت لك محل وبعديه محلات بفلوس أمها وبدلت كل شيء في حياتها علشان ترفعك لفوق، علشان بقيت جوزها وجبت منها ولد، الست دي عملت اللي يخلِّصها من ربنا فيك، كل التفاني والإخلاص عملته "وهي تتجه بوجهها نحوه" وفي الآخر عملت فيها أيه..! وسكتت هنيهة ثم أردفت:

- هوَّ الراجل بيزني ليه لما ربنا إداه زوجة جميلة زي دي؟!! الست دي خدتك من الصياعة في الشوارع وعملت لك كيان ماحدش عمله، اللي عملته ده افترى ولاَّ نسمِّيه أيه؟ إنت داري بتعمل أيه؟!

- اعتبريه مرض، يمكن أنا مريض.
- خلّي مرضك مع حد تاني هو فيه مريض يكسَّر الإيد اللي بتداويه.
- اسمعي بكفاية كده، إنتِ عايزة أيه؟ إنتم عايزين أيه؟

.. سكتت عبير عن الكلام " ولفَّت أميرة حوله بعينيها وكأنها تبحث عن بني آدم آخر غير الذي أمامها، تبرمت شفيتها وقالت أسفةً:

- شوف أنا مش هاعاتبك على الخيانة والغدر اللي عملته معايا، شوف أنا وجهت وجهي إلى الله لينتقم منك ومن اللي زَّيك، لا هاحسبك على الخداع وضربي من ورا ضهري، إنت دلوقتِ ماتهمنيش في أي حاجة، تعرف بعد اللِّي حصل كل اللي باتمناه إن ابني مايطلعش فيه صفة واحدة منك، والله

كفيل به، كل أمرك وعلاقتك بأي حد ماتهزش لي طرف، بعد اللِّي حصل أنا باكره نسمة الهوا اللي جاية من ناحيتك الخلاصة دلوقتِ أنا عايزة حقي – عايزة فلوسي.

تمهل في جلسته ثم قال في بجاحة بصوت خفيض:

- محل الخضار بتاعك؟ هوَّ باسمك؟!!
- ومحل الكباب والعطارة بفلوسي وفلوس أمي.
- المحلين دول باسمي.
- يانهار إسود على بجاحتك ياواطي، اشتريتهم بفلوسي يا ابن الكلب.

" نظر إلى عبير وكأن أميرة قد قالت عنه ما لايستحق وصفه.

- شوفي يا عبير بتقوللِّي أيه؟
- يعني ست محروقة في شرفها واتسرقت فلوسها وعايزها تبقى ملاك؟!! أميرة فاض بيها ولو أي ست مكانها كانت ضربتك بالرصاص، لكن دي ست متربية ومن بيت كويس قوي إنها بتشتمك بس.
- يعني موافقة على كده؟ إنتِ جايباني بيتك علشان تهزأوني؟!
- موافقة وستين موافقة هو اللِّي عملته شوية؟ إنتَ مش داري بنفسك ولا أيه؟!!
- سكت وراح يعض إصبعه ثم أشعل سيجارة وقال.
- يعني عايزين أيه؟

وفي ثبات قالت أميرة:

- الطلاق فورًا وتبعت ورقتي من بكرة.
- مافيش مشكلة في الطلاق، فيه حاجة تاني:

- فلوسي اللي اشتريت بيها المحلين، اديتك ميتين ألف اشتريت المحلات بيهم.
- الفلوس في قلب المحلين؛ ديكور وتوضيب وتوريد لحمة ومستلزمات الشغل، عليّ فلوس للموردين.
- كل ده أنا مالي بيه " المحلين دولت بكام " مش أقل من مليون جنيه " شوف نصيبي كام منهم، أنا عايزة المليون بالكامل وأي فلوس على المحلين تبقى لزمي.
- إنتِ ليك فلوسك بس ميتين ألف، أما سعر السوق للمحلين دي فلوسي أنا، تعبي وشقايا، وشهرة المحلات دا كلَّه حقي أنا.

وانفعلت أميرة ووقفت نصف وقفة وانحنت تمسك بحذائها فلحقتها عبير وأمسكت بيها وزعقت:

- فيه أيه.. بتعملي أيه يا أميرة؟
- مافيش حاجة يا عبير، هاضربه بالجزمة سيبيني يا عبير.
- معلش يا أميرة علشان خاطري، اهدي، ضرب الجزمة مايكفيش اللي زي ده عايز ضرب الرصاص بس معلش خلِّينا نسمع للآخر، اقعدي اهدي.
- هديت يا عبير، كملِّي إنتِ معاه شوفي هاتوصلي لأيه مع السافل ده.. أنا سكت أهه يا عبير اتكلمي إنتِ.
- اسمع يا نور إنتَ عايز أيه بالضبط؟ عايز تديها كام؟
- هَّي ليها الميتين ألف بس اللَّي خدتهم منها، مبلغ الشراء بس، بعد كده دي فلوسي أبيعهم مابعهمش دول حقي وأنا حر فيهم.
- بس ده حق ربنا.

- والله دي وجهة نظري.. وما عنديش غير كده.
- انفعلت أميرة مرَّة أخرى وقامت إلى الصالة تبحث عن شيء صلب تقذفه به فانقلبت إليها عبير واحتضنتها من ظهرها ودفعتها إلى الغرفة ترجوها:
- أرجوكِ.. أرجوكِ مافيش داعي للتهور، خلِّينا بس نشوف أيه للآخر، اهدي، ماتتكلميش خالص يا أميرة ممكن، سيبيني أنا أخلَّص معاه.
- جلست أميرة متهدجة الأنفاس وكادت تصرخ لكنها تماسكت وأمسكت بأعصابها، وهزَّت عبير رأسها وقالت له في حزن:
- قول اللي يخلصك من ربنا، إديها حقها بتاع ربنا، لو قدِّرت المحلات بمليون هي ليها المليون كلهم لأن دي فلوسها وتعبك وشقاك تديك مرتب من يوم ما اشتغلت المحلات، تقدره هي أو أي حد تاني عادل يقدره هو دا الحق والصح.
- لأ، حقها عندي ميتين ألف جنيه بس.
- يعني دا اللي يرضيك من ربنا؟

" ومثل الصيع اللي في الشارع شخر من بقة مرتين كما يفعل أولاد الشوارع، وراح يهذي، وكلما تفوَّه بكلمات شخر مثل مجرمي الشوارع وسائقي الميكروباصات.

فقالت له أميرة لما انتهى من قذارة فمه وأنفه وهي متحسرة:

- الحمد لله اللي نجَّاني من واحد زيك، دا إنتَ البعيد صايع وقذر ومنحط، تعرف أنا حزينة على أيه؟ حزينة على إن السنين اللي فاتت كنت متجوزة واحد سافل ومجرم زيك، دا صيع الشوارع أحسن منك يا ابن الكلب.
- شوفي يا عبير أهي شتمت تاني!

- شتمت!! هي عملت حاجة؟! إنتَ كان ليك واحدة صايعة زيك، والله اللي زيك المفروض البلدية تنضَّفهم من الشوارع زي الزبالة.
- كده.. كده يا عبير إنتِ زوديتها قوي.
- إسمع من الآخر" تبعت ورقة الطلاق على عنوان بيت أميرة.

وجالت بناظريها إلى أميرة وقالت:

- فيه حاجة تانية الموضوع التاني هاتاخدي الميتين ألف.
- لأ.. هاشتكيه مش هاسيب حقي.
- فرد عليها وهو يقف:
- أنا مستعد لأي شكاوى.. المحلات باسمي وماحدِّش ليه عندي حاجة، احمدي ربنا إني باديكِ فلوسك.
- ماهي فلوسي يا كلب هي اللي خلت المحلات بمليون جنيه.
- على العموم اشتمي زي ما انت عايزة وأنا مستعد أروح المحاكم.

فقالت له عبير بحدة وهو يخطو خارج الغرفة:

- اسمع يانور.. ابعت ورقة الطلاق الأول وبعدين يبقى فيه قاعدة تانية نتفاهم فيها..
- ولما اقترب من الباب قال في بجاحة وهو يداري وجهه نحو الأرض:
- هو دا كل اللي عندي، بالكثير أسبوع هابعت ورقة الطلاق.
- فقالت له عبير:
- أحسن لك ماتقطعش والتفاهم كويس ليك ولينا..
- مالهاش عندي حاجة.

- طاوعني يانور، بعد كده هانجيب لك صُيَّع يربوك، إنت مش هاينفع معاك غير كده..
- إذا كان الموضوع هايوصل لكده، مافيش طلاق.
- وشد الباب خلفه في عنف " فبصقت أميرة خلفه داعية وفتحت الباب وأسمعته وهو ينزل على الدرج:
- روح يا ابن الكلب، أنا هاخليك ماتقدرش تتلفت وراك، مش هاسيبك ياكلب يا ابن الكلاب ياحرامي.

****

"أميرة وعبير وحكايات لاتنتهي " لكن إلى أين الرحيل"

" لم تهنأ امرأة مثلي بأيام للحب، كان حبًّا يملأ قلبي لكنني كنت ساذجة، كان حب تمثيل من رجل مثل الأفعى يمثل الصدق والأمانة، تهيأ لي أنه سيقدّر جميلي وما أعمله من أجل أن يكون رجلًا صاحب كرامة، فهل أنصح كل امرأة ألا تساعد رجلًا وتنشله من الشوارع، فليس هناك رجل يستحق أن تقف إلى جانبه امرأة لأنه في آخر المقام يخونها ويسرقها، أهذا هو الغُلب؟ لماذا يكون من نصيب المرأة في بلادي مزيد من الصبر والدموع والرضا بالنصيب؟! لماذا الرجال في بلادي قليلي الأصل؟! هل أذلَّهم الفقر وجرَّدتهم الحاجة من أي صدق في داخلهم؟! هل رياح الفوضى في بلادي صنعت رجالًا متوتري الأخلاق؟! وكيف لا تجد المرأة أخلاقًا للرجال في مدينتي؟! عندما يتمكن الرجل من أمان للحياة يبدأ في الاعتداء على المرأة، ولماذا تجاريه أيتها المرأة التي تخطف رجلي ولا تحسبي أنه رجل له امرأة وأنه له بيت فلا تهدميه وتفتحي له بيتك؟! إنني سوف أفيق وأعدُّ نفسي لأن أكون امرأة جديدة، ولكن هل يعيب طفلي أنه ابن رجل

ظالم غلبته أخلاق حقيرة، أتمنى تجريده من أبيه وأن أخلصه من أية شوائب تتعلق بأبيه الخائن، سوف أعرف كيف يكون ابني رجلًا صالحًا مثل أمه وأهل أمه، إنني رأيت في ماضي. وما أراه الآن أنه لا يوجد رجل ينشئ ولدًا صالحًا، الأم هي التي تصنع وتربي وتنشئ أبناءً صالحين، أساس مجتمعي هذا هو أنا، أنا امرأة لن تتخلى عن أمومتها من أجل ابني، ولابد لي أن أعرف أنه يجب عليّ أن أتخلَّى عن كل أمنيات نفسي بأن أكون امرأة لها أي طموح للأنثى، إن الحب يملأ قلوب العذارى والسيدات اللائي يطمحن في أن تكون هناك آفاقًا للحب مع رجل، ولكن ما خلصت إليه.. جميع النساء ومنهن أنا أنه لا خلاق لرجل حتى النهاية في مدينتي، الرجل في بيوتنا يمثل ويكذب ويغني من أجل أن يصل إلى شيء مع المرأة، ثم يخرج من بيتها في أي وقت وهو يجر خلفه أذيال الخيبة والخيانة والغدر، ياحسرةً على رجل للحب في بلدي! فهل لي يا سادة أن أكون امرأة لها كل طموحات الأنثى ولكني ليس باعثها رجل في هذه المدينة؟ إذًا أين أجد ما أذهب إليه ليتحقق لي طموحاتي كل امرأة؟ تهتف جميع النساء: لا تذهبي إلى رجل يا أميرة ولكن اذهبي إلى أحد غير الرجل، فقلت لهن: وهل أذهب إلى حيوان أمين مثل كلب لأمنحه أماني الحب في داخلي؟ ونصحتني الكثيرات يكفيكِ ولدك فالأمومة أغنى ما تحصل عليه المرأة في مدينتي" وصلت إلى هذا المعنى بعد مقابلتنا لهذا الرجل الندل، تركت عبير في بيتها وذهبت إلى بيتي وتواعدنا على أنا تأتيني غدًا.. لتكمل ما الذي نستطيع فعله بعد بجاحة نور ونهب حقي كاملًا بلا خجل.

"تقلَّبت في فراشي طول الليل ولم أنم ودفنت ما منحته لهذا الرجل وندمت على إخلاصي في أن يكون لي زوج أحبه ويحبنُّي، واعتبرت أن تلك السنوات الفائتة هي مرحلة من الحياة، وعلَّي أن أبدأ مرحلة أخرى بعدها لأجد رجلًا آخر يكون فيه قليل من الصدق ولا

يخدعني كل هذا الخداع ولا يسرق كل مالي، وحاولت تحرير ذهني وأرى ما حولي من حياة على أنها ظواهر جديدة تمديدها نحوي لتأخذني مرَّة أخرى إلى الحياة حتى أستطيع تربية ابن في رؤية جديدة للدنيا حولي.

"كان يمسك محل الخضروات شاب لم يتجاوز عمره عشرين عامًا وقد أطلق لحيته شبرًا تحت ذقنه وحول وجهه، وأشارت إلَّي عبير بأن أقارن بين دخل المحل وإيراد فوائده إذا ما بعته وأودعت قيمته في البنك وأعود إلى البنك من جديد، وفى ضحى صباح أحد الأيام ذهبت ومعي عبير إلى المحل وبرفقتنا ابنى أحمد، جلسنا على دكة خشبية مسحها بفوطة وهو يرحب بنا مرددًا في كل حركة يقوم بها من أجلنا.

- صلاة النبى، ربنا يجعلك صالح يا أحمد، أهلا بالأخوات، تشربوا أيه؟
- القهوة بتعمل براد شاى وينسون وقهوة، تأمروا بأيه؟

وكنت أراقبه فردت عليه عبير قائلة :

- هات براد شاي.

يخرج من المحل إلى المقهى المجاور، فقالت عبير مبتسمة:

- أيه ده كل خطوة كل كلمة صلاة النبي، الله حي، يابني ياحبيبي كويس طيب وبعدين؟!!
- غريبة قوى يا عبير، دا اللي يسمعه يقول عليه شيخ كبير فقيه في الدين.
- أبدًا ولا شيخ ولا فقيه دا عيل لا راح ولا جه، هَّما كده بيسوقوا فيها عشان تحسبه على خلق وأمين الحركات دي بقت موضة عند العيال دي..
- يعنى بيغنِّي علينا؟
- خليه يغنى للصبح، خلينا نشوف آخره.

- هَّو ليه مربى دقنه بالشكل ده؟
- والله ماني عارفه، هو كده عمل كل حاجة في دينه وختمها بفردة الكاوتش اللي تحت دقنه.
- لأ دي عاملة زي المقشة، بياكل إزِّاي؟! بينضَّفها بأيه؟! ولسه في أول شبابه! عيال جت لهم هلوسة!
- حاجات غريبة بتحصل حوالينا، المهم في الآخر نلاقيه أمين..

اسمه عبد المعطى فلما أتانا بالشاي والبسكوت لأحمد قال:

- أجيب تفاح بالصلاة على النبي.

فردت عبير كأنها تزعق قائلة:

- أقعد بقى.. بكفاية حركات يا شيخ عبد المعطى.
- أستغفر الله أستغفر الله.

فبادرته قائلة:

- ممكن تقعد بقى وبكفاية ترحيب وتهليل شبعنا خلينا في المهم.
- تحت أمرك.
- المحل بيبيع بكام في اليوم.
- فى حدود تلات تلاف، شوية أكتر أو أقل، في الحدود دي..
- مرتبك كام في الشهر.
- ألفين.
- بعد كل المصاريف مرتبات ومشتريات وكهرباء، صافي المحل ممكن يكسب كام؟

- ماعرفشي بالضبط هو كل أسبوع ييجي نور بيه يحاسبني وياخد مني في حدود خمسميت جنيه ويمشي.
- بيفضل معاك فلوس بعد كده تشترى فواكه وخضر والذي منه؟
- أيوه بيفضل.
- نور بلَّغك بإن الشغل يبقى معايا من أول الشهر؟
- أيوه بلِّغني من أسبوع.
- معاك كام دلوقتِ ممكن آخذه.
- معايا فلوس زيادة أكثر من ألف غير الدرج فيه شوية.
- لو خدت الألف الدنيا تمشى في المحل؟
- تمشى ولو احتجت حاجة أكلِّم حضرتك.

وقام عبد المعطى وعد ألف جنيه من سيالة جلبابه وانحنى أمامي وهو يمد يده بها قائلًا:

- ربنا يديم المعاملة يا ستي ويبارك كمان وكمان.
- إديِّني تليفونك علشان أتابعَك ومش لازم آجي كل مرَّة.
- اتفضلي الرقم
- قول.

ثم قالت له عبير:

- حَّبش لينا طلبية خضار من كل صنف اتنين كيلو ومن الفاكهة كل فاكهة برضه إتنين كيلو.
- حاضر يا ستي.

وهمست في أذن عبير قائلة:

- باين عليه كويس.
- لمَّا نشوف.

ولما انتهى نادي صبي صغير يعمل في المقهى، ولما أتاه الولد قال له:

هات عربية اليد وعبَّي فيها الشنط دي ووصَّل الهوانم للبيت.

"وجري الصبي الصغير نحو العربة وحمل الخضر والفاكهة فوقها ودفعها أمامه حتى بيت السيدة أميرة.

وفى البيت تكلمنا كثيرًا عن المحل وشيخه البائع عبد المعطى، وكان انطباعنا الأول أن إيراد المحل معقول ويبدو أن عبد المعطى أمين وماشي الحال، خلِّينا نشوف المحل ولا البنك، الأيام الجاية تحكم.

****

"كان كثير من أهل المدينة يندفعون تحت أعراف: عايزين نعيش يا ناس نعمل أيه؟ هي فين الدخول اللي نقضِّي بيها الشهر، طيب إدَّيني فلوس وارميني في البحر، لأ ياختي ماعملش كده أنا برضه محترمة وبنت ناس، يعنى لازم تعملي كده علشان تقدري تعيشي، مرتبات أيه اللي بتتكلموا عليها دي؟ مرتبات المكافحين بس، هوَّ الموظف يبقى محترم إزاي وهو مش لاقى ياكل؟ الناس كلها بتضحك على بعضها حتى الفقرا بيغنوا على بعضهم علشان في الآخر يلاقوا بتاوة، وكثير من الكلام يا سادة وكل جماعة بقى ليها كلام وحديت، وانقسم الناس إلى شيع وأحزاب، وعلى فكرة اللي بيجيب الخراب لكل شارع ودار هو الاختلاف على الهيافات، وعلشان كده اتصنعت أحزاب من جوه الخراب".

"في زمن كانت الزوجة لها حب واحد نحو زوجها وأبنائها، لكن هذه المرأة الآن لم تعد زوجة ولم تعد أم بكامل قوتها كما كانت في زمان فات، لابد لها من نشاط آخر" شيء مثل حب آخر بديل علشان الدنيا تمشى والعيال تعرف تعيش والدنيا تلضم مع بعضيها يعني أنا علشان أدخَّل ولادي مدرسة خاصة لازم أرافق واحد أجيب منه مصاريفهم فهل الحب يا سادة يصبح في زماني هذا مثل السياسة لابد أن يوجه من أجل العيشة؟! فهل هذا حب أم قضاء مصالح؟! اسمع يا حبيبي شوف لي خمستلاف جنيه وتبقى كلمني لما تكون الفلوس معاك، فيقول لها رفيقها:

- وجوزك مابيعملش حاجة خالص؟!
- مالكش دعوة بجوزى كتر خيره بيصرف على العيال خلِّيه في حاله يدوبك بيجيب الأكل والشرب وطفحان الدم في شغل ليل ونهار.
- بتدخَّلي العيال مدارس خاصة ليه وأنتم مش أد مصاريفها؟!
- هَّو قال بلاش الخاصة وخلينا في الميري أنا اللي عملت كده يبقى لازم أبقى أد الخاصة.
- وهَّو عارف بتجيبي المصاريف منين؟
- ساعات باحس إنه عارف وساعات مش واخد باله.
- على فكرة فيه رجالة كتير عارفين بس عاملين مش واخدين بالهم.
- هاتيجي إمتى؟
- فى أي وقت بس قبل أسبوع علشان أدفع جزء من القسط.
- طلباتك بقت جامدة عليّ قوى.

- مانتش أدها قوللِّى أشوف غيرك.. على فكرة أعرف واحدة بتاخد في الليلة الواحدة خمسة.
- يا نهار إسود ودي مرافقه برضه؟!!
- لأ بصراحة بتروح ملهى معروف وبتاخد بناتها وتروح مع الزبون بيته شوف.. بتاخد من الزبون ومن كل بنت بتشتغل معاها وبتبقى قاعدة برَّه في الصالة مراقبة الشغل وبتاخد حقها أول بأول.
- دول مش بنات بقى.
- أقصد نسوان.. تصدقي وفيه بنات، اسمهم بنات وبيتشغلوا كده على مايتجوزوا.. وقبل الجواز تعمل العملية إياها.
- البنات دي من أي حته في البلد؟
- من كل حتة، على فكرة كل البنات دي من ولاد فقراء الأحياء الشعبية.
- وأهلهم عارفين بنتهم بتعمل أيه؟
- تصدق بالله؟
- أصدق.
- فيه أم بتقول لبنتها وهي خارجة من البيت: اوعى ترجعي بأقل من ألف وخمسميت جنيه يا إما ماتبقيش بنتى، سامعة.. البنت تقول لأمها حاضر يا ماما هايحصل.
- لأ لأ ياحبيبتي دا إحنا كده عايشين ملاكي.
- وعرفت بقى إنى ملاكي، واحدة مخصوص ليك عايز أيه أكتر من كده خمس تلاف في الشهر كله كتير؟!

- لأ مش كتير بالنسبة للّي بتحكيه، دا إحنا لسه في المجتمع الشريف.
- ياحبيبي أنا وإنت في مجتمع الشرف كله، أنا أحسن من الشرف نفسه إذا كان شرف كل الناس بقى كده على عينك ياتاجر، هوَّ حد يعرف شرفي غيرك.
- خلاص كفاية، أنا كده عرفت قيمتك، تعالِ النهارده خدي الفلوس.
- وعلشان إنت غالِ عندي هابات عندك الليلة جزاءً على مجدعتك.
- لأول مرة هاتباتي.. هاتقوليله أيه؟
- تعرف تقول معايا.. عارف ومش واخد باله.
- لما تيجي نقولها سوا.

"ولمَّا كانت عبير تحكى لأميرة عن حكاية امرأة زوجة وكيف ترافق رجلاً ليدفع مصاريف أبنائها في مدرسة خاصة، وكيف أن لهذه السيدة تعيش في شارع ينعم بالأمن وينتشر فيه حكايات النساء اللائي يرافقن رجالًا يساعدهن في الصرف على بيوتهن وعيالهن في محاولات لبيع شيء مقابل شيء، إن كثيرًا منهن يدفعن بأجسادهن إلى سوق الهوى الخاص كن يحافظن على مستواهن الاجتماعي".

وأمسكت أميرة برأسها وقالت لعبير:

- بكفاية، بكفاية.. لازم نمشي من هنا.
- نروح فين؟
- أي حتة تانية بعيد عن الغم ده.
- والمحل والبيت وابنك في المدرسة.
- هابيع كل حاجة وانفد بجلدي، هاتيجي معايا؟
- معاك على طول الخط.

- عايزة أروح مكان مافيهش أي حكايات.
- إزي؟!! كل مكان في الدنيا ليه حكاياته.
- بس حكايات عن حكايات تفرق.

****

"لازم نمشى من هنا لأن الحمير مش هاتثور على العربجية"

هل يرى الناس كل شيء، إن هؤلاء خلفي وأمامي خلف جدران بيوتهم يتسترون على أعمالهم ورب السماء يرى كل شيء إلا أن الناس جميعًا لايرون ولكنهم يتكلمون وإشاعات وحواديت عن هذا وهذه لكن الحقيقة رب الخلق يعلمها، إن الناس في مدن أخرى لا يتكلمون ولا يحكون على أحد بشيء، إنهم يدعون الخلق للخالق كما تنص الأديان في كتبها، لكن لماذا الناس في شارعي يقولون عني:

- باين عليها قتلت جوزها، فين ماحدش عارف، ماكنتش بتحبه..
- سافر مارجعش تاني، باين موج البحر خده والسمك أكله.
- ياما تحت السواهي دواهي، دي بتخلَّص على طول.
- أخوها كمال أوْلى بيها، إحنا مالنا، أخوها وساكت يبقى خلاص.
- هي زي أمها بيشوفوا حالهم من سكات من غير لت وعجن.
- همَّ أحسن من غيرهم، تقدر تقول إن البيت ده بيت عشق.
- العاشقة أحسن من الداعرة، فيها خصوصية ومزاج لكن الدعارة كل يوم مع واحد وعمرها قصير، وبعيد عنك المرض بيجلهم قبل الواحدة ماتوصل للأربعين والخمسين.
- والله دا كل بلاء لكن مين اللِّي خلا المواضيع تنتشر.. مش الفقر؟!

- الفقر والجهل يخلُّو أي إنسان يبقى وحش، بيطلع الحرامي والنصاب والقوَّاد.
- مافيش أعمال شريفة للناس تشتغلها تبقى ماتسألشي عن حاجة بعد كده.
- مين اللي عمل في الناس كده؟! مين اللي قسِّم البلد والناس كده؟! أكيد الظلم.
- شوف أى بلد حوالينا مافيهاش ولو قليل من العدل، الناس كلها بتخبَّط في بعض وقول في الفوضى البِدع وماتسألش حد بيعمل كده ليه..
- تلاتين سنة وأكثر الناس سايبة على بعضها: طبقة فوق قوى والشعب كله تحت سايح طايح في بعضه.
- اسألوا اللي ماسكين البلد ليه بيضربوا الشعب على قفاه، هوَّ الشعب ده مش حكِّمك عليه ولاَّ إنت ولِّيت نفسك عليه بانتخابات مزوَّرة؟!
- إنت عارف يابن البلد ناقص أيه؟ إن الدنيا كلها تيجي تاخد عبيد من بلادنا.
- إنتو عارفين تمن العبد في أى حته في البلد بكام؟ بكام ياحبيبى والله تقول؟
- العبد في بلادنا دلوقتي يطلع بجلابيته هوَّا دا كل تمنه، ويحمد ربنا إنه لقى شغلة عبد عند أى واحد وخرج من فقر البلاد.
- معقولة يعنى إحنا وصل في يوم نبقى كلنا عبيد!
- مافيش حد قادر يخلِّص البلد من البلاء اللي نخر عظامها، وعلى فكرة باب العبيد فتح.
- ممكن بس إزاى، بس أنا مش شايف الباب.
- إزاى هي دى مربط الفرس، إن ناس كتير فضلت العمى وماتشوفش الحالة المذرية.
- هو فين مربط الفرس، قول مربط الحمار وبالكتير مربط البغل.

- إنت عارف مين راكب البلد.
- عربجى راكب مرسيدس شاددها الحمير وعمَّال يضرب الحمير دى كلها بالكرباج.
- والعربجى ده من البلد؟
- من البلد بس خاين ونصاب وحرامى وحواليه عربجية مستفيدين من عربجيته.
- والعربجية دولت راكبي مرسيدس برضه؟!
- لأن اللي راكب فيات وبيجو وسيات وفيه راكب حنطور أو تريسيكل، كل واحد حسب دوره مع الحرامى الكبير.
- طيب وبعدين؟!
- لازم الحمير تعمل حاجة ولو مات نص الحمير، لأن الحمير أكثر حاجة في البلد ولو اتَّحدت هاتخلَّص على العربجية في يومين.
- طيب الحمير مابتعملش كده ليه؟
- كل حمار في حته لوحده في حاله غلبان جعان بيعيط طول الوقت وعمال يقول آه.. آه.
- وعمر ماحد هايسمعه، ولاهايقُّوله فيك أيه.
- وآخرتها أيه؟
- لازم الحمير تتحد كلها في يوم وتهد الدنيا فوق راس العربجية حتى لو مات نص الحمير.
- طيب لما يموت نص الحمير مين هايجر العربيات؟!

- ساعتها كل العربيات هاتقف هاتبقى مشلولة: ولما تموت نص الحمير هايعيش باقي الحمير ويبقى كل حمار له بيت وتبن وكُسب والنيل يشرب منه زى ماهو عايز.
- دا ممكن لو الحمير اتحررت تبقى سادة، لكن سادة من غير عربيات، الحمار يبقى فرس، يجري في ملعب السباق الحر، اللي فيه يسبق ياخد من الزرع على قد اجتهاده وعمله ورمحه.

" قام نور من جوار عاشقته صفية وفتح نافذة الغرفة وتنهد في عمق وزفر أنفاسه وبصق فوق كوم زبالة يقع خلف البيت، وفردت صفية ذراعيها العاريتين وتثاءبت قائلة:

- إقفل الشباك وتعالَ.
- مش كفاية، إنت لسه عاوزانى ماشبعتيش.
- عمري ماشبع منك.

قفل النافذة بعد أن بصق ثانية فوق الكوم الفائح برائحة كريهة زكَّت أنفه، وامتد بجوارها وضمها بذراعيه قائلًا في همس يداعب أذنها:

- تصدقى الكلام اللي قلناه ممكن يبقى خطر علينا يا صفية.
- بس الكلام دا كله من كتر الوجع، هو مين خلاَّك تلبد في حضن أمى؟ مين اللي خلاَّها تزنى وهي أم؟
- وهو مين اللي خلاَّنى آجى إسكندرية أصلا" لما الأبواب كلها اتقفلت في وشى بالقاهرة، جيت على إسكندرية يمكن يفتح لى باب، وكتير من الناس بتروح أى بلد ومابتلاقيش أبواب بتفتح.

- إسمع يانور ماتحكيليش كل الحكاية، إنت ليه رضيت وسكت واستمريت في علاقتك بأمى.
- هو فيه واحد شاب يلاقي الحنان والدفء وعايش ساكن آكل شارب مروَّق مع ست زى أمك، وتسألينى السؤال ده، هوَّ أنا نبي يا صفية وكتير من الشباب يتمنى فرصة زى دي لما كل فرص الجواز والشغل تتسد في وشه.
- أنا عارفه إنك بشر يانور، أقصد أيه من أساسه اللي خلاك تعمل كده وتيجي إسكندرية.
- الشغل، البطالة أكلت منى فقلت أهاجر وياريت لمَّا هاجرت استمريت في عملى كمهندس، انطردت من الشغل بلا سبب رغم إنى كنت من أشطر المهندسين ومن أول يوم أثبت إنى مهندس شاطر لكن..
- لكن أيه هي أمك مش قالت لك؟
- قالت إلى إنهم فصلوك، لكن أيه السبب بالضبط؟
- صاحب المصنع عين واحد مهندس قريب واحد عمل لصاحب المصنع مصلحة.
- يعنى المصالح هي أساس التعامل مع أصحاب الأعمال.
- وغير أصحاب الأعمال، الدنيا كلها ماشية مصالح.
- إنت بتسألينى ليه الدنيا عملت في كده طيب ما تسألي نفسك.
- هو أنا لو جوزي بيشتغل في بلده وبيأكَّلني ويشرَّبني من خير البلد وقاعد معايا ليل ونهار زي بقية الخلق عمري ماكنت هاعمل اللي وصلت ليه كنت هاصبر وأعيش.

- وبعد كده دعيتي عليه ومارجعشي.
- أنا دعيت عليه لأن وجوده كان زي عدم وجوده، وبعدين هو أنا دعيت عليه من فراغ وكان البعيد مش راجل ودي كانت مصيبة تانية.
- أه يا صفية هانقول أيه ولا أيه!!
- شوفي الميت واحد في البلد والمصيبة واحدة، ياعزيزى نور ياللي سقتنى من نفس الكاس اللي سقيت بيه أمى.. وسكتت.
- سكتِّى ليه كمِّلى.
- أبدًا ماهي معروفة، الميت هو الناس كلها في كل بيت وشارع في البلد والمصيبة هي البطالة.

"المصيبة بتنتهي بعدم وجود العمل الشريف اللي يحقق الأمان والكرامة لكل واحد.

- طيب وآخرة الكلام ده اللي وجع دماغنا طول الليل والصبح.
- الآخر اللي وصلنا ليه دلوقتِ هانعمل أيه النهارده قبل بكرة.
- هانعمل أيه زي ما احنا عشنا إمبارح هانعيش النهارده.
- يعني إنت يا نور نهبت أميرة مراتك وطلقتها، هاتعمل أيه بالمليون جنيه اللي طلعت بيها؟ ألا إنت ليه عملت فيها كده؟
- وانت عملت ليه كده ودعيتي على جوزك؟ ومش كده وبس.
- قول " قول كمان اللي في نفسك قوله عشان أقولك.
- ليه عرفت هشام؟
- إنت غبي ولا بتتغابى؟!
- إعتبريني غبي.

- هو أنا بعد الصبر دا كله، وكانت عيني عليك لكن أمي خدتك، هو اللي مالقاش حنان وحب في بيته طلع برَّه يدوَّر عليه، عرفت بقى طلعت أمشي في الشوارع تايهة مش عارفه أعمل أيه! شوف واحدة ضيَّعها الزمن لا لاقية أم ولا أخ ولا زوج قولِّلي لو مكاني هاتعمل أيه يانور.
- أبدًا، أقول أيه! مافيش أحسن من السكات والكلام والعتاب والحساب مالوش لازمة.
- دا لغو عمره ما يجيب فايدة ولا نتيجة.
- طيب مش نقوم نروح مع بعض الناحية؟
- يعني آخرتها هاروح لهشام زي مارحت إنتِ؟
- هو مين زي هشام، ياريت كل واحد في البلد عمل للغلابة زي اللي عمله هشام.
- ممكن أعمل زي اللي عمله.
- ياريت تعمل نصه، قوم نروح دلوقت ونشوف مع بعض ممكن تعمل أيه بالمليون جنيه.
- ياله قومي نلبس ونجهز حاجتنا.

"نور يتفق مع هشام على إقامة ملهى عند مرسى القوارب"

في هذه الناحية ممكن أن تصبح الغجرية سيدة، وابنة النجار والحداد والإسكافي والخباز وصانع الكيف.. بنات كل هؤلاء الناس في هذه الناحية التي تجمع ناسًا من قاع الشعب، كل هذه الأسر من آباء وأمهات وعيال عاشوها من تحت وكانوا جميعًا فقراء وكانت أمهاتهم تقسم رغيف الخبز على أربعة وتقول لعيالها: حاسبوا على الجبنة، لكن

تطورت الناحية وأصبح لكل نفس تعيش فيها حياة وعمل ورزق، ولم يعد في الناحية قاعدًا بدون عمل، اغتنت الأسر وتحسَّنت الأحوال ولم تعد الأم تقول لأبنائها حاسبوا على الجبنة، وكان الفضل في إعاشة هذه الناحية أن ما أنشأها يفكر كل يوم ماهو الجديد الذي يمكن إضافته لتحسين أحوال الناحية، ولم يكن هناك من سبيل إلا بتوفير كافة الأعمال البشرية للناس حتى أن الطفل الصغير يعمل في المهنة التي يعمل فيها أبيه أو أمه أو أخيه أو أخته، وكان أهل الناحية جميعًا قد اكتملت حياتهم بإنشاء الملهى الكبير في الناحية، والذي أغنى أهلها عن النزول إلى المدينة في الليل وركوبهم المراكب ذهابًا وإيابًا مما كان يعرِّض الناس للغرق في البحر، ولم يكن الملهى هو المكان الوحيد في الناحية، ولكن كانت هناك أماكن أخرى للهو والونسة أنشاها هشام أو غيره بناءً على تأييده ومساعدته؛ حيث كان يعتقد أنك إذا أردت أن تقيم مدينة متكاملة الأركان فعليك أن تنشئ كل شيء يحتاجه الإنسان فيها وكان الملهى وأماكن اللهو هو آخر الأفكار التي نفَّذها هشام بعد أن وفَّر كل الأعمال البشرية للناس في ناحيته.

ويقول هشام أبو سعدة مؤسس الناحية وعمدتها في جلساته الخاصة في خيمته الكبيرة.

- دقي يا بلد.
- يعني أيه دقي ياعمدة؟
- يعني عيش.. اشتغلي يا بلد، أمان يابلد، اتجوزوا والعبوا وارقصوا وغنوا، اعملوا كل حاجة تحبوها أو تلاقوا فيها نفسكم بس على شرط مافيش ضرر بحد والمسجد والكنيسة عملتهم، ولو جه يهودي واحد هاعمله معبد، إحنا يا بشر يا ناس مش أنبياء يعني أيه عبادة بدون ترفيه نعبد ربنا ونسجد له ونشكره في كل نبضة قلب، لكن ياناس ياعابد ياشاكر لو كنت عايز ترفَّه

عن نفسك شوية روح رفَّه عن نفسك، آدي القهاوي وآدي الدكاكين وآدي الملهى الكبير، بس على شرط تعمل كل حاجة بأدب واحترام ولا تضر بأي أحد ولاتجرح أحد حتى ولو بكلمة، واللي يتجاوز عن حده هاتوه نحاسبه ونحاكمه، أنا عملت كل حاجة في البلد، عملت حياة وبيوت وأرزاق وبرضه فيه بعد كده اللِّي يحب يعبد رب العالمين دور العبادة موجودة، واللي يحب يفرفش ويونِّس نفسه شوية يروح يرقص شوية ويغني ويتفرج لكن بدون أي ضرر بأي حد.

" كان هذا هو فكر منشئ الناحية وعمدتها، واللي مش عاجبه يرحل من هنا، وكان كل واحد عارف كده وماشي عليه واللي يتجاوز يتحاسب..

" وكان الرجال والنساء من الأعراب والغجر في نواحي مقابلة لشاطئ الناحية يأتون كل ليلة في مراكبهم ليتونسوا في الملهى ويشترون من أسواق البلدة ما يشتهونه من طعام وما يلزمهم من ملابس وعدد وأدوات، ومما ساعد أن يرتاد ملهى هشام.

كل ابن بلد أو فلاح أو نجار أو حداد أو جزار أو صياد، أن الملهى نصفه صفوف كراسي وترابيزات والنصف الآخر فرشت أرضيته بالحصير ليجلس فيه أبناء البلاد من الشعب الكادح في دوائر يشربون الشاي والبارد والجوزة المعسل وسجائرهم، لكن الجميع لايدخنون الحشيش ولايشربون الخمر، وهم جميعًا من رواد ملهى متحضرين أو ولاد بلد يرقصون ويغنون ويصفقون مع دقات كل مغنية وراقصة فوق المسرح، الغناء والرقص والصخب؛ حيث تبلغ مشاعر اللهو ذروتها، زبائن يدخلون وآخرون يغادرون وعطر البنات والنساء يفوح ومسئولون عن النظام يتجولون بين الرواد، لا سيد هنا ولا مسود

فالحب يسود بين عبيد تحرروا من قيود ومن قسوة زمان مضى عاشوه في مدينة يعيش فيها حمير وعربجية وظلمة وسارقون.

"اصطحبت صفية نور إلى الناحية ودخلت في طريق جانبي بعيد عن شوارع الناحية المزدحمة حتى وصلت إلى كوخها فدخلت فيه وتبعها نور، كانت حريصة على ألا يراها العمدة أو أحد من إتباعه خاصةً أنها تصحب رجلًا غريبًا عن الناحية وتأخذه إلى كوخها" كانت ترغب في ألاَّ ينغَّص وجود نور أي شيء بينها وبين مسئولي الناحية، وفي الصباح تعالج الأمور كلها الخاصة بنور مع أهل البلدة وخاصةً عمدة الناحية صاحب السلطة والنفوذ.

"كان نور مذهولًا مما رآه في طول الطريق منذ ركوب القارب الذي حملهما إلى الناحية وفي الطريق حتى وصلا إلى الكوخ، وكان يحدِّث نفسه وهل هناك ما بعد المدينة الكبيرة بلاد ونواحي في وسط البحر، خليط من المشاعر انتابته فثقل رأسه وكأن شيئًا في نخاعه يتأوه، ولما فتحت نافذة الكوخ أتاهما هواءً نقيًّا لكن لايخلو من دخان الجوزة ونار الشاي من أكواخ قريبة، وكان سريرها ضيقًا فارتمت في أحضانه لكن العاشق تفوَّه في صدرها بصوت واهن وكان جسده يرتعش خوفًا مما رأى من حياة قوم يعيشون في أكواخ ووسط أفران وخيام ومدقات ودكاكين مثل حوانيت القرى في الخمسينيات، وكان يريد أن يصرخ لكن من أي شيء يصرخ وهو الذي فعل ماضجت منه الجدران، أكان خلوقًا حتى يزعق من خوف أو اندهاش من قوم هم أفضل منه صنعوا بلدة من طول فقرهم فأغناهم الله، عليه أن يتفوه تحت صدرها حتى لا يسعمه أحد.

- عايز أنام نوم قد البحر اللي قطعناه عشان أنسى حتى إنت جبتيني هنا ليه ثم إنك خايفة ليه هو إنت مهرباني من الجمرك؟ هو أنا حشيش ولا أفيون؟!

- ياريت كنت حشيش مانا كل يوم باوزعه.
- أمال خايفة من أيه؟
- خوفي من هشام؛ لأنه ممكن يقتل أي راجل يقرَّب على ست من بتوعه.
- وإنتِ لسه بتاعته؟ مش بقيتي درجة تالتة إنت نسيتي قلت أيه؟
- أنا من تاريخه يانور، لازم يكون راضي عنه وأستأذنه لأن دي مملكته، ماتنساش إنيِّ عايشة هنا ومن شغلي معاه دخلي أكتر من عشرة ألاف جنيه في الشهر.. غير لمَّا باجي هنا آكله شاربة ببلاش، يبقى لازم أحافظ على علاقتي بيه ولاَّ أبقى عبيطة.
- إنت من تاريخ مين ولاَّمين، طيب إزاي هاتعرفيني بيه أو هامشي معاكِ بكرة في البلد علشان نشوف هانعمل مشروع أيه؟
- إنت من الصبح تطلع من الكوخ ماحدِّش يشوفك وتعمل كأنك جاي الناحية لوحدك، وعايز تقابل عمدتها، إنت غريب وتسأل على خيمته وتقابله كإنك جاي من نفسك، وتعرض عليه إنك عايز مشروع تعمله هنا ومعاك مليون جنيه وأنا بطريقتي هاجي الخيمة وبطريقتي أتعرف عليك بالصدفة.
- خلاص اللي إنت شايفاه.

****

"هرب من كوخها بعد إعتلاء شمس الضحى كبد السماء، وراح نور يتمشى في الناحية، ليسأل من يجالسه عن أي شيء فيجيبوه عن سؤاله، حتى تبين له أن الناحية هي بلدة محلية الصنع كأي قرية صغيرة في وسط الدلتا، فإن أهلها جميعًا يخلصون لرجل واحد ويحبونه وهو العمدة هشام أبو سعدة، واكتفى بعد جولات في شوارع الناحية حتى صاح

أذان العصر من المسجد الوحيد في البلد، ولم يدخل المسجد ليصلِّي، فهذه ليست عادته في المدينة الكبيرة، وبلغ علمه أن العمدة يفتح باب خيمته لمقابلة الناس قرب المغرب، وهذا ما اتفقت صفية معه على أن يكون على باب الخيمة هذا الوقت يطلب مقابلة العمدة من حارسه الخاص إبراهيم.

وعندما دخل الخيمة يتقدمه الحارس حتى أصبح يرى العمدة وحوله رجلان يندمجان معه في الحديث قال إبراهيم وهو ينحني:

- رجل غريب من البلد عايزك.

انتبه هشام إلى الرجل فرآه في زينة وبهرجة، هو من أهل المدينة الكبيرة وليس من هنا، هكذا تأكد.

قام هشام من قعدته ليصافحه فانحنى نور قليلًا وقال:

أهلا ياسيدي "نور" أصلي من مصر مش من إسكندرية.

أشار إليه بالجلوس بعد أن قال:

- كلنا من مصر، من أي بلد كلنا مصر.
- بالضبط كده ياعمدة.
- تحت أمرك، لسه جاي بلدنا النهارده؟
- لسه جاي وسألت عليك أول ما وصلت علشان عايز أشوفك، سمعت عليك كتير قبل ما اجي وعرفت عنك عملت حاجة كبيرة قوي هنا..
- ربنا اللي عمل، الحمدلله تطلبنا في أيه؟ أي خدمة؟
- من الآخر ياعمدة أنا معايا فلوس وعايز أستثمرها هنا.

- ياه أول مرة واحد يجي ومعاه فلوس، كل الناس اللي بتيجي هنا بتيجي قالعة وعايزة شغل.
- الحمدلله، عايز أعمل هنا حاجة بعد إذنك وعايز مشورتك.
- معاك كام؟
- مليون
- مليون وجاي هنا ماعملتش حاجة في إسكندرية ليه؟
- عايز أعمل هنا زهقت من إسكندرية والمليون مايعملش حاجة هناك.
- خلاص شوف أيه اللي ناقص ومحتاجاه الناس هنا واعمله.
- عايز أعمل ملهى.
- الملهى موجود وعلى قد البلد، والناس هنا مش كتير وزباين على قدُّهم.
- نجيب له زباين من المدينة، أعمل دعاية.
- إعمل مشروع صيد وجيب مركب كبير.
- تكاليف جامدة قوي وصيد السمك رزق مستخبي.
- هو فيه أحسن من الرزق المستخبي.
- أنا عايز الرزق الباين.

"وراح هشام يتأمله ويتململ في جلسته معجبًا من هذا الرجل العنيد وهو أول يوم يأتيني ولا يسمع كلامي ويريد أن ينافسني في الملهى، ثم نظر للرجلين وهز رأسه قائلًا لهما:

- طيب روحوا دلوقتي وهانشوف موضوعكم بعدين.

وردا عليه في نفس واحد.

- حاضر ياعمدة هانجيلك مرة تانية..

وعند الباب كانت صفية تدخل بعد أن نادي الحارس معلنا سيده:

- الست صفية يابيه.
- تدخل.

ألقت السلام وراحت تقعد في الطرف الداخلي للخيمة فقال لها هشام:

- ريحة فين تعال إحضري كلامنا.
- خلِّيني ياعمدة هنا، علشان تاخدوا راحتكم.
- لأ تعالِ..

تقدمت تظهر استحياءها وجلست على يمين العمدة فقال لها:

- الضيف الكريم جاي من البلد ومعاه مليون جنيه وبيشاورني يعمل أيه بيهم.
- ياه مليون وجاي هنا ليه دا البلد دي بتاع الغلابة.

" كان نور حريصا على ألا ينظر بعينيه ناحيتها وجال بناظريه إلى حصير الأرض وقال:

- ياعمدة أنا ماقدرش أعمل حاجة من غير مشورتك.

ونظر العمدة إلى صفية حتى تشاركه وطفق:

- الضيف عايز يعمل ملهى.
- ملهى، الملهى موجود والناحية ماتستحملش ملهى تاني..
- شوف، سمعت بنفسك.

سكت وقال موجها كلامه للسيدة:

- هاعمل الملهى بعيد وليكن على أطراف الناحية قرب مرسى المراكب.
- هزت صفية رأسها وغمزت بعينيها إلى هشام وقالت:

- خلِّيه ياعمدة يعمل على طرف الناحية.
- إزاي يا صفية دا كده هاياخد الزبون اللي جاي يدخل عندنا.
- خلاص ياعمدة سيبه واحنا لنا تصريف تاني.
- تصريف أيه، جرى أيه هو انت مش يهمك مصلحة الناحية.
- طبعًا يهمني أمال مين يهمه.

" هز هشام رأسه ونظر إليه مليًّا ثم راح يجيل بعينيه في أركان الخيمة وكأنه يدبر أمرًا وفجأة بادر الضيف:

- هاتدفع تمن الأرض وتمن الأرض هناك غال ودي أرضنا بنبيع فيها لأي حد عايز يعمل مشروع بمزاجه فاندفع نور قائلًا:
- وماله أدفع.
- تاخد كام متر.
- مش أقل من ألف متر يدوبك.
- شوف من الآخر علشان إنت ضيفنا وأي قرش هاتصرفه هايفيد كل واحد في الناحية المتر علشان خاطرك بميتين جنيه" يعني الألف بميتين ألف جنيه" فكَّر وعلى مهلك أنا كده باخدمك خدمة ما عملتهاش قبل كده لحد.

وارتاحت أسارير نور وسعد كثيرًا بعرض العمدة وبحماس قال:

- من غير مشاورة أنا موافق.
- خليك بعيد عن مرسى القوارب في أي ناحية يمين شمال تبعد عن المرسى بما لا يقل عن ربع كيلو، روح الصبح ومعاك أي حد من الناحية واختار المكان، ماتروحي معاه يا صفية.

- تحت أمرك ياعمدة.
- خلاص ولما يختار يجي هنا يدفع الميتين ألف إذا خد ألف متر.

ووجهت صفية كلامها إلى نور:

- خلاص يا... وتلعثمت ثم اكملت.
- ياسي...
- اسمي نور.
- ياسيد نور موافق على كل الكلام ده مافيش حد بيرجع في كلام مع العمدة.
- موافق.

ثم أكمل هشام كلامه وهو ينظر بقوة إلى صفية:

- جميع العمالة من هنا، عمال عاديين شيل وحط وحفر، نجارين مسلح حدادين نجارين باب وشباك ألوميتال من أهل الناحية مافيش عامل واحد ييجي من بره، وإذا كانت فيه مهنة غير موجودة هنا تيجي تاخد الإذن منى.

وسكت قليلًا ثم وجَّه كلامه إلى صفية:

- اعتبرى نفسك شاهدة على كل الكلام ده.
- شاهده على كل حرف حصل، وقبل ماتقوم يا سيد نور قول اللي في نفسك.
- مافيش حاجة في نفسي أقولها دلوقتِ.
- وقال هشام وكأنهَّ يوكِّل صفية عليه:
- أى حاجة عايزها أو محتاجها قول لصفية وهي تقولِّلي على فكرة إنت هاتقعد فين ورد نور:
- مش عارف ياعمدة.

- مؤقتا خدية يا صفية على الملهى فيه قوضة هناك عاملها لكده مخصوص يقيم فيها سيد نور على مايدبَّر حاله.

" وسعدت صفية بهذا التوكيل المفتوح لها مع الضيف، وراحا يتمشيان في شوارع الناحية وجلست معه في مكان قريب من المرسى" شربا الشاى والجوزة ثم أخذته إلى الملهى وفتحت له غرفة الضيوف وقامت بالإشراف على تنظيفها ثم جلست معه قليلًا في الغرفة بعدها استأذنته قائلة:

- هاقوم بقى، خلينا أذكيا، أحسن حد يكون واخد باله، أنا ماعرفكش يانور.
- ولا أنا، إمتى عرفتك؟ لسه من ساعة عارفك.
- خد راحتك وشوف الملهى لمَّا يفتح وبكرة هاجيلك على الظهر.
- خلاص أكون شبعت نوم.. ونروح نشوف الأرض أنا عايز أخلَّص بسرعة.
- كده كويس قوى أقوم أمشي بقى النهارده أسعد أيامي.
- وأنا كمان.
- باى يانور.

" يوسف وبرهان كان لهما ابنة عم في حى رأس التين"

" كان والد عبير يعمل موظفًا في الإسكندرية منذ حصوله على دبلوم التجارة وخرج من قريته الملاصقة لضواحى المدينة الكبيرة وراحت تتقصُ زيارته لقريته خاصة بعد وفاة شقيقه عبد الرحمن، وكان لولدي شقيقه تمسكًا شديدًا ببيتهما وقطعة أرض لا تزيد عن فدان يزرعونها قمحًا وشعيرًا وذرة، وكان أبوهما قد ترك لهما عنوان شقيقه في الإسكندرية واحتفظ به في صرة بها بعض الأوراق التي تثبت ملكيتهما للبيت وللأرض التي يفلحونها، وكان عبد الرحمن قد أوصى ولديه يوسف وبرهان بأنه يجب عليهما دوام

التواصل مع عمهما أُنسي شقيقه الوحيد، وكانا يعرفان أن لعمهما هذا ابنة واحدة تدرس في كلية حقوق الإسكندرية، فلما مات عمهما أُنسى تم دفنه في الإسكندرية ولم تعرف ابنته الوحيدة كيف ترسل لولدي عمها بوفاة والدها، ولم يكن يوسف وبرهان قد علما بوفاة العم إلا بالصدفة من واحد في قريتهم يعيش في الإسكندرية قد أبلغهما في زيارة له بالبلدة أن عمهما أنسي توفى منذ عامين، فراحا يفتشان في الصرة عن عنوان عمهما ولما وجدا الورقة المدون فيها عنوان عمهما أنسي قال برهان ليوسف:

- نروح نعزِّيها.
- نعزَّى مين يابرهان إذا كانت ماعبرتناش وبعتت لينا بوفاته.
- معلش هي بنت ويمكن ماتعرفشى تبعت لينا إزاى.
- خلاص يابرهان اللي انتهى انتهى يامنتهى.
- يعنى أيه؟
- اللي نسيك انساه.. وبعدين دى بنت أمها سكندرية وهي طالعة زى أمها كانت عاملة قسوة بين أبونا وأخوه.
- وش عرفك يا يوسف.
- أبويا حكى لى مرة عن حاجات زى كده ولو كانت عايشة ساعة ما أبوك مات يمكن كانت تمنع عمي أنسي عن دفنة أخوه، أسكت يابرهان خلِّينا في حالنا كانت أمى وأمك واتفرَّقت الأيام.

لكن برهان احتفظ بعنوان عمه وقال في نفسه يمكن الأيام تلاقينا في يوم، مش ها اخسر حاجة ودفن ورقة العنوان في صرة أخرى لكن بصندوقه هو، ومرَّت الأيام عليهما في القرية حتى جاء اليوم الذي هاجرا فيه بلدتهما إلى ذلك المكان

الذي فيه أصبح لكل منهما شأن كبير في تعمير هذه الجزيرة الغنية بالزراعة والحرف والمهن، والتي ذهب إليها في أول عهدها بها كل رجل وامرأة جادان يبغيان تعمير الأرض والبحر بكافة الأعمال التي تعود على كل إنسان بالخير الوفير، فلما كان للأخوان شأن كبير في هذه الجزيرة بدأ كل منهما يحفز كل عمل يجلب لها ولو قليلًا بأى عمار لهذه الناحية التي لا تعرف غير الزرع والحصاد، ولما مرَّت الأيام قدَّم برهان لأخيه يوسف ورقة قديمة مطوية قائلًا:

- شوف يايوسف "إقرا".
- ياه "إنت لسه شايل الورقة"؟! وعايز أيه يا برهان؟
- شوف إنت رأيك أيه.
- نسأل عن بنت عِّمنا دلوقتِ.
- لمَّا ربنا إدَّانا وفتح علينا وعملنا كل الخير للغريب يبقى أولى بينا نسأل عن لحمنا.. جه الوقت اللي ندوَّر عليها ولو في طقاطيق الأرض.
- بس مين فاضى يدوَّر عليها.
- ياسلام وهي دى مشكلة، العنوان واضح في رأس التين هاوظف واحد مخصوص يدوَّر عليها.
- إسمع يابرهان اتولى الموضوع ده وأنا ماعنديش مانع.
- دا أكبر خير نعمله خاصةً إحنا دلوقت قادرين نعمل أى خير ليها ودا عند ربنا هايبقى كبير قوى.
- خلاص يابرهان على البركة.

****

كان هناك رجل قد بلغ الخمسين من عمره ويعمل في أحد مطاحن الغلال عاملًا فنيًّا للماكينات، وهو سكندرى الأصل وكان يعمل قبل هجرته إلى الناحية فنيًّا للجرارات والآلات الزراعية، ولما ضاق الرزق عليه ترك المدينة ليجد بديلًا لمهنته في مطاحن الناحية، اختاره برهان وكلَّفه بمأمورية البحث عن ابنة عمه عبير أنسى خطَّاب رأس التين شارع أيام كان رقم تسعة، ناوله الورقة قائلًا:

- إخترتك لمعرفتك بالإسكندرية.
- وراح يتأمل العنوان مليًّا بحثًا عن الشارع في ذاكرته فقاطع برهان تذكُّره في شارع أيام كان.
- اسمع ممكن يكون اسم الشارع اتغير، إنت مش مرسال بس، لازم تجيب لى قرار المهمة وماترجعش من غير حقيقة وصلت لها.

فقال أبو العباس وقد أمسك رأسه بكف يده:

- وإذا مالقيتها في العنوان أعمل أيه؟
- روح السجل المدنى أدخل كل بيت واسأل في كل مكان حوالين الشارع اسأل عن شيخ الحتة إذا كان فيه.
- دا هاياخد وقت، يعنى ممكن أقعد أدور أكتر من أسبوع.
- يكفيك كام؟ ليك حد في إسكندرية تقعد عنده؟
- ماليش حد دلوقتِ هانزل في فندق.
- إنزل في فندق على قد الحال، المهم يكفيك كام سكن ومصاريف ومواصلات؟
- قدَّر إنت يا عمدة.
- جهز نفسك وخد شنطتك فيها حاجتك، ومن الفجر اتكل على الله.

وفتح برهانن درج مكتبه وناوله رزمة فلوس فقال أبو العباس وهو يقلِّبها بين كفيه:

- كام دول ياعمدة؟
- ألفين.
- خلاص ياعمدة في طلعة الشمس هاكون باعدِّى في المركب.
- ثقتى فيك كبيرة يا أبو العباس.
- وقام العباس من قعدته وصافح برهان بقوة وانحنى قليلًا وهو ينقلب إلى باب المكتب قاصدًا مطحنه الذي يأويه ليل نهار.

****

" كانت سماء رأس التين ملبدة بالغيوم الكثيفة طبقات بعضها فوق بعض، حتى أن ضوء الشمس الغاربة لا يصل إلى أرض الحى، وكانت أميرة وعبير تهرولان هروبًا من المطر الذي بدأ ينهمر بلا انقطاع عندما خرجتا من باب البناية التي يقع بها مكتب المحامى الذي انتهى منذ قليل من تحرير عقد بيع المحل من أميرة إلى أحد تجار الخضروات، هربتا من ذخ السماء حتى بلغتا بيت أميرة الذي يبعد عن مكتب المحامي عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام، وكانت ورقة الطلاق قد وصلتها بالبريد منذ ثلاثة أيام، وقبلها بيوم واحد هاتفها قائلًا لها في بجاحة: مالكيش عندي حاجة والمحلين بتوعي باسمى وقدَّامك المحاكم لو قدرتِ تاخدي حاجة خدي، ووبخَّته أميرة ولعنت سلسفيل أبوه داعية عليه:

- روح منك لله.. الله لا يبارك لك ولا يسلِّم طريقك اللي زيك بيئة ومن حثالة المجتمع وأنا وابني كفيلنا ربنا، إنت البعيد كلب جربان، وهاتشوف انتقام ربِّنا يا بعيد وأخذت منها عبير سماعة الهاتف وكيَّلت له من قاموس الشتيمة واللعن مالم يسمعه طيلة حياته.

"وكانت عبير في الأيام القليلة التي تلت هذه الأحداث من مكالمة أميرة طليقها واستلامها ورقة الطلاق تأخذ أميرة وابنها أحمد إلى مسجد للنساء قريب من البيت، حتى تستطيع أميرة مقاومة تلك التطورات المؤسفة في حياتها، وأن في قربها من الله خير علاج تتزود بالمزيد من التقوى والإيمان، وكان لتلك العادة خاصة في صلاتهما للعشاء جماعة مع أهل المسجد أثر في تضميد جراحها التي توالت عليها مصيبة بعد أخرى.

****

" في داخل خيمة هشام أبو سعدة كان هناك المجتمعون" صاحب الخيمة وبطرس النجار وثالثهم فتح الله الحداد.

شربوا الشاى ودخنوا سجائرهم بعدها راح كل من بطرس وفتح الله يتساءلان:

ياترى عايزنا ليه؟! فيه أيه؟! لكن هشام قطع تساؤلهما قائلًا:

- أول مرة أجمعكم مع بعض" أكيد عايزكم في حاجة مهمة وسكت هشام قليلًا ثم أردف:
- فيه واحد جى الناحية إمبارح وعايز يعمل ملهى عجبه الملهى بتاعنا وعايز زيُّه.

فرد فتح الله عليه لما وجده سكت:

- وانت موافق؟
- سيبه يعمل واحنا الكسبانين في الأول والآخر.

فقال بطرس:

- كده يؤثر على ملهانا الزباين هاينقسموا، مش في صالحنا يعمل ملهى هزَّ هشام رأسه وقال:

- وعلشان كده بعت لكم، من بكرة هاتبقى يابطرس تاجر الحديد والخشب، وانت يافتح الله هاتبقى تاجر الأسمنت فيه مخزن فاضى يتقسم إثنين كل واحد فيكم نصُّه.
- واندهش كل من فتح الله وبطرس بمهمتهما الجديدة وقال بطرس:
- التجارة عايزة فلوس كتير وأنا على قدِّى ياعمدة.
- مالكش دعوى بالفلوس وانت يافتح الله برضه.
- واكمل هشام مفاجأته:
- دا كله علشان صاحب المشروع الجديد مايجيبش من بره حاجة، هانوفَّر لبناء الملهى الجديد كل مواد البناء من هنا وانتم أولى بالمكسب وأنا معاكم".. من بكرة تفتحوا المخزن وهاتجيب المراكب الحديد والخشب والأسمنت عليكم بس تنقلوها من المرسى للمخزن.
- فقال بطرس:
- وهانبيع بسعر المدينة؟
- لأ بسعر البلد مضاف ليه تكاليف النقل.

فقال فتح الله مازحًا.

- دا أيه الهنا دا كله اللي نزل عليّ أنا وبطرس.
- شوف يافتح الله إنت وبطرس وأنا وأهل الناحية كلهم أولى بأى قرش يتصرف فيها، والكلام ده فيه حاجات كتير يمكن تفهموها من نفسكم.

فقال بطرس:

- ومهنتنا ياعمدة؟ هاسيب النجارة لمين؟

- مش ليك ولاد يعاونوك وشغَّل معاك أى حد مالوش شغلانة " دى فرصة جديدة للعمل وخير للناس كلها " ومين قال لكَّ سيب مهنتك " والكلام دا ليك برضه يافتح الله " هز فتح الله رأسه ممتنًا وقال:
- مفهوم يا عمدة مفهوم، ربِّنا يزيدك من نعيمه.
- شوف إنت وبطرس من أهل البلد دى بدأتم معايا من الألف للياء وأنا خدام طوب الأرض في الناحية، وأنا إذا كان عليَّ مش عايز حاجة لكن أنا عايز الخير يعم على كل بيت في الناحية دى اللي عملتها وعملتوها معايا بالدم والعرق" وأنتم أول ناس عارفين بدأناها من الصفر إزاى " ولما سكت هشام راح بطرس يهز رأسه ويفرد كفيه أمامه ثم قال:
- إنت خيرك مغرَّقنا ولولا إنت ياعمدة بأخلاقك دى عمر ماكان للناحية شأن ولاكيان، والله مانا عارف أقول أيه لجميلك علينا.
- هاقول لكم كلمتين وبس مش ولادك وبناتك يافتح الله بيشتغلو في الملهى والمحلات وكل المهن، وإنت يابطرس هو الملهى مين بيعمَّره وجايب له الشهرة دى كلها مش بنتك ميادة هي وبنت فتح الله ماجدة وغيرها" مش بنتك التانية يابطرس هي اللي فاتحه معمل التحاليل مين كان هايحلل للناس دى وبنتك التالتة مش فاتحة معمل أسنان، إنتم اللي خيركم على الحتة دى كلها وعلَّى " يبقى لازم من الأول للآخر أى خير يتوجد واجب عليَّ وعليكم نستغله لمصلحة أهل الحتة وبعدين أنا باعتبركم إنتم الإتنين أكتر ناس بتحبوا الحته دى ومخلصين لتراب الأرض فيها.

.. وكان كل من بطرس وفتح الله مذهولان من كلام العمدة فراح كل منهما يثنى عليه:

- إنت عملتنا من الصفر.
- ماكانش الواحد مننا لاقى حتى يشتغل باليومية.
- ماكناش لاقيين حتى ندفع إيجار السكن ولا ولادنا لاقيين العيش الحاف.
- عملت بيوت وشغل لينا ولولادنا، ربنا يعمر بيتك ياعمدة.
- كل حاجة في الدنيا عملتها للناس الغلابة..
- شبعنا ياعمدة بعد جوعه، كنَّا عايشين على حركرك الدنيا.
- الفقر قبل مانيجي هنا أكل مننا وشبع.
- عملت لينا كل حاجة وبعد دا كله هانبقى تجار حديد وأسمنت، أيه الهنا دا كله.
- وقاطعهما هشام مادا بذراعه نحوهما:
- بكفاية، أرجوكم كفاية، من بكرة نشتغل وبكفاية كلام.
- خلاص ياعمدة، تسمح لينا قدَّام الخيمة هانقول حاجة بالصوت العالى.
- هاتقولوا أيه؟
- وجرى كل من فتح الله وبطرس ووقفا أمام باب الخيمة في الشارع وراحا يهتفان تحيا العمدة تحيا هشام أبو سعدة وخرج إليهما هشام يثنيهما عن الهتاف فلم يستطع، ومشيا في الشوارع المؤدية إلى بيتهما وهما يزعقان مكرران تحيا العمدة، تحيا هشام أبو سعدة.

" وراح أهل الناحية يتساءلون مع بعضهم: هو فيه أيه؟ أيه اللي حصل لبطرس وفتح الله؟!!

"ولم يكن لدى أى أحد من أهل الناحية إجابة لهذه التساؤلات".

****

" برهان يبحث عن عبير وأبو العباس ينزل في رأس التين"

" كان أبو العباس طويل القامة جميلًا وسيمًا، خاصةً في أيام شبابه الأولى، حتى بلغ الأربعين عامًا، لكنه بعد العقود الأربعة ظهرت عليه فجأة علامات الكبر فعاد طويلًا نحيلًا مترنح الخطا، وكأن فرطه في الشراب أيامه الأولى من حياته قد بلغ تأثيره شديدًا عندما بلغ عقده الخامس، وهو يعرف الإسكندرية شارعًا وحارة وميدان في كل حى بها. انبلج الفجر وفى هذه الناحية يكون الضياء فضيًّا ساحرًا هذه الساعة من الصبح وكان الندى ينزل من السحاب يبرق كأنه يسقط من أشعة الشمس، وكان يسرع الخطا نحو مرسى المراكب ومسحات برد الرمال المشبعة ببخار البحر تلسع وجهه، ترك الناحية الساكنة وراء ظهره لأول مرة منذ أن قدم إليها مع صاحب المعمل الذي كان يعمل معه ليعمل مرة ثانية في مطاحنه التي أقامها لطحن الغلة من ذرة وقمح وشعير التي تفيض بها أرض ناحية يوسف وبرهان، وكان يضع يده على جيبه ليطمئن على المبلغ الكبير فيه، وصل أبى قير بعد انبلاج الشمس وجلس في محطة القطار حتى قامت أول بخارية قاصدة قلب المدينة، نام وهو يخفى جيبه بيديه وأيقظه رجل قبل جراج القطار الأخير بدقيقتين، ولمَّا نزل محطة مصر مشى في شارع النبى دانيال حتى بلغ آخره، ثم أخذته قدماه إلى حى المنشية ومنها ركب عربة أجرة إلى رأس التين.. كان الوقت يقترب من التاسعة حتى وجد مقهى يجلس فيه وتناول سندوتش الفول والطعمية من عربة ملاصقة

للمقهى واحتسى شايًا بالحليب وقهوة زيادة ثم راح يدخن حجر معسل لم يستطع تدخينه في الناحية؛ حيث تندر المقاهي التي تقدم الشيشة في الجزيرة الخضراء التي أنشأها برهان ويوسف، وكانت رحلته هذه فرصة لأن يصيع ويعود إلى سيرته الأولى في السهر واللهو أخرج الورقة من جيبه وسأل الساقي:

- هوَّ فيه شارع هنا اسمه "أيام كان"؟
- أنا مش من هنا، لما ييجي عبده الضِّل عارف كل حارة في رأس التين.
- هاييجي إمتى؟
- بالكتير ساعة.

" قام أبو العباس وتمشَّى في شارع البحر حتى تنقضي الساعة، لكنه وجد مقهى أخرى في شارع جانبي فجلس فيها وراح يدخِّن الشيشة بشراهة، وسأل رجلًا يجلس قريبًا منه:

- هوَّ فيه شارع هنا إسمه " أيام كان"؟
- أيوه فيه، أسمع عليه، أعرف إنه في الناحية التانية.. روح هناك وأسال.

" كان قد بلغه التعب لكنه آثر على نفسه وذهب إلى تلك الناحية، ومن شارع إلى ميدان إلى حارة ولم يدله أحد حتى بلغ فندقًا قديمًا وهو يستدلُ على شارعه، حجز في الفندق وأمسك بمفتاح الغرفة من يد صاحب النزل وهمس قائلًا كأنه يتوسل إليه:

- فيه شارع هنا ياحاج إسمه "أيام كان"؟
- أيوه أيوه، كان إسمه كده إتغير دلوقت بقى اسمه "أنسي خطاب".
- والله.. يرضى عليك ربي "هوَّ فين".
- على يمين الفندق أدخل في شارع لغاية ماتجيب آخره قبل الآخر بشوية هاتلاقى شارع أنسى.

- ياسلام والله " إنت متأكد كتر خيرك "سلام".
- دخل البيت رقم تسعة بحثًا عن الشقة رقم خمسة، صعد الدرج القديم حتى بلغ الطابق الثالث ليجده أمامه فطرق الباب ولم يرد أحد حتى ضج إصبعه، وبدأ يخبَّط بكف يده، لا أحد ولا صوت في داخل الشقة، ومن شدة التخبيط أزعج أبو العباس الجارة المسنة فخرجت فاتحة بابها مخاطبة الواقف أمامها:
- إنت ياللي بتخبط عايز مين؟
- عايز صاحبة الشقة الست عبير.
- إنت مين أصلا" هيَّ مش هنا".
- أمَّال فين ياستى؟
- قاعدة عند واحدة صاحبتها في المنشية.
- أوصل ليها إزاى؟
- هى بتيجي كل كام يوم شوية وتمشى تانى.
- طيب أنا عايزها ضرورى.
- قوللِّى إنت مين الأول، صلتك بيها أيه؟
- أنا جاى ليها من ابن عمها.
- هى مالهاش حد علشان تقوللِّى ابن عمها!!
- والله ياست أنا جاى من عند برهان.
- برهان مين ياكدَّاب؟
- مش كدَّاب ياستى أرجوك هاتعملي أكبر خدمة في حياتك، أوصل ليها إزَّاي؟
- وش عَّرفنى إنك صادق وأمين؟

- دلِّينى ياستي والله أنا جاي ليها بالخير، عمري ماكنت مرسال وحش لحد.
- تليفونك كام ولما تيجي أخليها تكلمك؟
- خدى تليفوني، وكتب الرقم في ورقة ودوَّن فيها اسمه وناولها للسيدة قائلًا:
- آدي رقمى واسمي.

" أخذتها منه وقرأتها بصعوبة وطفقت:

- أبو العباس، اسمك كبير قوي.
- يكرمك ربنا، أمشي دلوقتِ وآجي تاني.
- تيجي بعد يومين يمكن تكون وصلت وأكيدها تكلمك لو جت في أى وقت.
- يارب يا ستى كتَّر خيرك، سلام عليكم.
- سلام يا عباس.

****

إرتاح باله كثيرًا بوصوله إلى تلك الخطوة في أول يوم باحثًا عن ابنة العم، ونام نومًا عميقًا وقام من ثباته بعد المغرب بقليل فدخل الحمام وتوضَّأ ثم صلى كل أوقات اليوم، ارتدى ملابسه ونزل يدفعه جوعه لأن يأكل طعامًا ثمينًا يشبع بطنه الخاوية وجسده المتعب طول اليوم.

خرج من المطعم قاصدًا أقرب مقهى وراح يفكِّر في ذكريات حياته ونشأته في الإسكندرية حتى أوصلته دنياه إلى تلك الجزيرة الخضراء التي لايعرف أهلها غير الجد والعمل لما أرساه برهان ويوسف من مبادئ عدل بين الناس فيها، وأمعن في شريط أيامه التي عاشها متنقلًا من حى إلى آخر، يا لها من حياة مرَّت كومضة ولما ساقه تفكيره أنه

لم يأخذ من حياته شيئًا لا ولد ولا بنت ولا زوجة، شمله حزن عميق فراح يشد أنفاس الشيشة بشراهة حتى دق هاتفه المحمول.

- آلو.
- أيوه يابو العباس وصلت لحاجة؟
- ياعمدة وصلت للعنوان والشقة مقفولة.
- هَّى راحت فين؟
- مش موجودة وسبتيلها ورقة بتليفوني واسمي مع الجارة.
- كويس، ماتجيش إلاَّ لما توصل ليها.
- حاضر ياعم برهان.

سعد بمكالمة برهان وسرح في ذكرياته حتى تذكر أيام عمله مع السمسار الذي كان يعمل في كل شيء من أجل خدمة البيوت خاصةً الشقق المفروشة التي كان يسكنها الغرباء، وتأسَّف على نفسه تلك الفترة التي عمل فيها مع سمسار ميامى لأنه عمل معه كقَّواد صغير يساعد القوَّاد الكبير في جلب طلبيات هذه الشقة من بنات ونساء.

وألقى بخرطوم الشيشة بعيدًا عن فمه وراح يهمس.. أستغفر الله، إن الله غفور رحيم، سامحنى يارب.

قام وغادر المقهى وتمشى قليلًا في شوارع الحى ثم قصد الفندق وقفل باب غرفته وبَّدل ملابسه ودخل تحت الغطاء بين اليقظة والنوم.

****

وبدأت عبير تخرج إمكانياتها في حكايات تقصُّها على أميرة، من الحياة عن الناس ومن تجارب حياتها الخاصة، وكيف أنها كانت في شبابها شقيِّة وغير مبالية بالعادات

والتقاليد، وكيف ماتت أمها فجأة وهي في صباها الأول، وكيف كان أبوها منغمسها في حياته الوظيفية ولا يعرف أى شيء عن الحياة بجوانبها المختلفة وكم كان لذلك أثر في إحداث فراغ كبير في حياتها فلم تجد أم تؤنسها ولا أب يستمع إليها، ولم يكن لأبى صلة وثيقة بشقيقة عبد الرحمن في البلد رغم أن عمي هذا كان يريد مدْ حبل الوصال معه ورأيت ذلك بنفسي مع عمِّي عبد الرحمن لما جاء بزيارة من البلد قال له وهو يغادر البيت في جفاء شديد:

- إسمع ياعبد الرحمن أنا مش فاضي للزيارات ووجع القلب ده كل شهر جاى لى بزيارة أنا ماعنديش بال ولا وقت للكلام ده..
- بتقول أيه ياخويا هو دا الود والوصال اللي ربَّانا أبوك وأمك عليه؟! إنت بتتكلم جد ياخويا؟!!
- ماتزعلش منى ياعبد الرحمن، هوَّ دا طبعى.
- ليه بتقطع كده؟! اللي بتقوله ده مش في أى دين! إزاى بتصلِّى يا أنسي؟!!

وتكون دى علاقتك بأخوك؟

- دا اللي يريحنى ياعبد الرحمن.
- خلاص ياخويا سلام عليكم، وصافحه وخرج من بيتنا إلى البلد ولم نره من بعدها، أمى كانت طيبة وكانت تشكو من قسوته وجحوده هذا معها، في هذا اليوم عاتبته أمى: ليه كده ليه؟! تخلّى أخوك يطلع مقهور من بيتنا بالشكل ده؟! حرام عليك يا أنسي، مش بكفاية قسوتك عليّ؟!! إنت بنى آدم بتقطع الوصال، حرام عليك حرام عليك وظلت أمي تصرخ في وجهة يومها حتى صفعها في شراسة على وجهها فارتمت أمي على الأرض باكية صارخة

ورحت يومها أمسح دموعها وأخذتها في حضني وكنت وقتها في آخر المرحلة الإعدادية. من هذا اليوم تجنَّبت أبي وتعاملت معه بالكلام القانونى. ويبدو أن أمى في هذا اليوم حزنت حزنا شديًا على حياتها مع هذا الزوج القاسى، ولازمتها الأمراض بعدها حتى ماتت، ويبدو أنها ماتت كمدًا وحزنًا على حياتها، ومن يومها دخل الحزن في قلبى ولم يخرج ولم أقترب من أبى كما تقترب البنات من آبائها ولم أشعر بأى عاطفة نحوه، وبدأت اتجه اتجاهات أخرى أشفي بها نفسي العليلة، لم أجد في بيتي حبًّا يكفيني وكنت ضعيفة أمام كل كلمة حب وحنان، وحسدت كل الناس في حياتهم التي تمتلئ بالحب والحنان، ومشيت في دنياى أشحذ الحنان والحب من الآخرين.. حتى جاء يوم.. وسكتت عبير عن الكلام.

" وراحت أميرة تبكي وتملأ الدموع وجهها لأن عبير كانت تحكي وهي تبكي، ولم تستطع عبير أن تكمل ما كانت تحكيه، وكذلك لم تطلب منها أميرة أن تحكي حكايات حزينة، واستغرقت المرأتان في بكاء شديد حتى قامت كل منهما إلى فراشها.. ونامتا حتى علت شمس الضحى صباح اليوم التالي...

..لمَّا كان الشتاء قارسًا هذه الأيام ذهبت إلى بيتي لأحضر بعض الملابس الثقيلة، ولما أدرت المفتاح في بابى ودفعت الضلفة بيدى كانت السيدة جارتى تناديني:

- يا عبير خدي الورقة دي واحد جه وخبَّط عليكِ.
- واحد مين ياترى؟!

ولما تناولت الورقة بيد مرتعشة: جئت إليك في أمر مهم، كلِّميني أرجوكِ، أنا رسول خير، وهذا تليفوني، أبو العباس" قرأتها مرات وتسمَّرت قدماي وجارتى تنظر إلَّى مليًّا ولما وجدتني في دهشة قالت:

- عارفاه؟ قريبك؟
- قرْيبي انقطعوا من زمان، شوفتِ عمرك حد جالي؟
- أبدًا الله يرحمها أمك حاكيالي اللي عمله أبوكِ مع أخوه، على العموم كلِّميه، إن شاء الله يكون خير، ادخلى ياحبيبتى الباب مفتوح كلِّميه وتبقي طمنيني.
- حاضر ياطنط.

" ألقيت حقيبتى بطول ذراعى فوقعت في طرف الصالة " وأخرجت المحمول من جيب معطفي وحاولت الإمساك بأنفاسي المتهدجة حتى هدأت قليلًا ورحتُ أدق الرقم بهاتفى حتى جاءني صوت الرجل:

- آلو مين؟
- إنت أبو العباس؟
- أيوه إنتِ مين؟
- أنا عبير، إنتَ مين؟
- الحمد لله لقيتك، أنا جاى لك من عند برهان ابن عمك.
- ابن عمي برهان، هم بيطلعو إمتى أنا عمرى ماشفت ولاد عمي أسمع من صغري باسمهم بس.. المهم برهان عايزني ليه وهوَّ فين.
- ياستى دا برهان وأخوه يوسف حكاية كبيرة قوي، دول عمدة بلد بحالها.
- عمدة أيه ياعم إنت دا عمي كان غلبان قوى، إزاى يطلع عمدة من ناس فقرا.

- ياستي الدنيا اتغيرت دلوقتِ دول سابوا بلدهم من زمان وبقوا في مكان تانى بعيد عن بلدهم القديمة، برهان قال لي دي وصية وصَّانا أبونا بها، لازم أشوف بنت عمي الوحيدة وأعمل ليها أي واجب أي خير لأنها من لحمنا ودمنا.
- أول مرة في حياتى واحد عايز يعمل لى خير، لكن بعد أيه؟ هو الخير ماتعملش من زمان ليه؟
- دا سؤال ماعرفش أجاوبه.
- إنت صفتك أيه مع برهان دى حكاية غريبة قوى؟
- أنا باشتغل عنده، ميكانيكى في مطحن.
- والبلد دى فين.
- بعيد عن إسكندرية.
- ومش معنى بعتك إنت بالذات.
- لأن عارف إسكندرية كويس.
- ممكن أقابلك ياست عبير، الكلام في التليفون ماينفعش.
- ماينفعش ليه" أنا مش باقابل رجَّالة ياعباس.
- لأ أنا أبو العباس مش عباس، خلاص هاخلّي العمدة يكلمك ممكن.
- ممكن قوي علشان أعرف الحكاية أيه إذا كان ابن عمي بصحيح.
- شوفي ياست عبير أنا مجرد رسول ومأمور، هابلَّغ العمدة باللي حصل وهاديه تليفونك وانتم حُرِّين في بعض، وأنا نازل في فندق برأس التين مستنِّي أى أوامر منه بعد ما يكلِّمك.

- خلاص خلِّيه يكلِّمنى.

****

" في الخيمة رقص وغناء وفيها يجلد هشام عاشقته القديمة"

قال له هشام مايعجبنى فيك إنَّك مغامر وتريد أن تقيم أعمالًا تفيد أهل الناحية، ورد عليه نور مايعجبني فيك إنك سريع الملاحظة ولمَّاح ياعمدة. وفهم كل منهما أنه يضحك على الآخر ولم تكن إقامة ملهى ثان تسعد هشام وكان يهمه أن يقيم بماله مشروع للصيد كنشاط بشرى منتج يحتاجه أهل الناحية، واندفع نور في الاتفاق حتى يتم مشروعه في أقل وقت ممكن، وانتفع السكان بالدخول الجديدة التي نشأت من أعمال الحفر والبناء، وكان أول المنتفعين فتح الله الحداد تاجر الحديد وبطرس تاجر الأسمنت والخشب، وتحركت آلة العمل في مهن أخرى أقيمت من جراء أى بناء جديد، وكان هشام لايخفى عليه شيء وداخله شك من أول لقاء مع نور أن هناك ثمة شيء بينه وبين صفية، ومما جعله يكثف ظنونه هذا أن عيونه في كل مكان يبلغونه بأن هناك شيئًا من الود والألفة بين نور وصفية مما جعل هشام يوصى كل بائع وخاصة بائعى مواد البناء بالبيع بسعر أعلى للوافد الجديد حتى يستفيد الناس ما أمكن، ومن الناحية الأخرى أن يتم إستنفاذ أموال نور حتى تنفذ بسرعة وفى وقتها فإنه سوف يلجأ إليه لمنحه سيوله تمكنه من إتمام مشروعه.

" ولم تترك صفية فرصة للاختلاء بنور إلا وذهبت اليه في غرفته بالملهى القديم، ولما علت أسوار الملهى الجديد شيَّد نور غرفة من الخشب داخل العواميد لتداريه وتتحقق له إستقلالية خاصة بعيدًا عن جلبة الملهى القديم وليكون هناك كثير من حرية لقائه مع عشيقته صفية وكان هشام لايخفى عليه شيء في ناحيته فكيف يخفى عليه علاقة

صفية بهذا الرجل، سيطر على أعصابه وأمسك بها، وكان يسأل نفسه كيف يعطي لعاشق امرأة من ناحيته أن يستمر في تلك العلاقة وهو ساكت، ولا ينسى أن تلك العاشقة هي من صنيعه وهو الذي التقطها من ترام الرمل وكانت بعدها امرأته الأولى وهو الذي أقام لها بيتًا وعملًا حتى أصبحت مديرة مبيعات صناعته في المدينة الكبيرة وضواحيها، إنه لن يكون مغفلًا أبدًا ولن يستطيع أحد أن يتدارى في أى مكان في الناحية ويفعل مايحلو له دون موافقته، فكيف له أن يسكت عما وصلت إليه صفية مع عشيقها، إنه تركهما بمزاجه وبرضاه حتى يأتى وقت فيه يأخذ حقه منهما، وكانت الناحية تمتلئ بالنساء والبنات اللائي يتمنين أن يكن من جوارى العمدة، وكانت النساء والبنات من أسر الناحية الجميلات كثيرات، هذا غير البنات والنساء الجدد اللائي يصلن إلى الناحية للعمل بواسطة سماسرة، أو اللائي يصلن إلى الناحية وحدهن للعمل في بلدة العمدة، ولم يكن في هذه البلدة الحرة عسكرى أمن واحد، أو شرطى آداب أو مخبر من المخبرين الزبالة الذين يسرحون في المدينة الكبيرة يجلبون الأبرياء وغيرهم إلى أقسام الشرطة ظلمًا وبهتانًا، وكان الشرطى والعسكرى الوحيد الذي يحافظ على الأمن هو حب الناس في الناحية وولاؤهم لصاحب البلدة الذي أسس أعمدة من الأعراف والتقاليد الخاصة التي تحافظ على الناحية من الناحية الاقتصادية، وهو الذي كوَّن هذا المجتمع بإيجاد عمل لكل فرد فيها حتى أن الحمير والجاموس والبقر وجدت أعمالا منتجة، ولم يعد في الناحية كلب ضال يجوب الشوارع يهبهب أو يعض أحد من المارة، في هذه الناحية كل أنواع الحيوانات وصلها شيء من العدل حتى أصبح لكل روح تعيش فوق هذه الأرض عمل وطعام يشبع البطون ودور عبادة، ولامعنى لأن تكون هناك أسباب للحياة من طعام وشراب ودخل ولا يكون هناك مسجد ولا كنيسة، وكان هشام يؤمن بأن

واقع الإنسان في أى أرض نصيب من العدل ونصيب من العبادة إن أراد ونصيب من الونسة واللهو بإقامة الملهى ودكاكين ومقاهي الونسة المتعددة في جنبات البلدة، فلسفة رجل هجر مدينة كبيرة ليس فيها أى عدل ليقيم في هذه الناحية كل العدل قدر ما يستطيع وأن يتوفر في بلدته هذه كل أسباب الحياة والحرية والعيش، وكلما أراد الإنسان شيئًا يطيب لها نفسه وجده في ناحيته، ومن الغباء إقامة بلدة من ظلم في جماعة تستعبد العامة، ومن الغباء أيضا أن يسكت الناس على أن يكونوا عبيدًا وهذه هي المصيبة الكبرى في رأيه، وأن من أسباب سيادة الظلم واتساع دائرة الفقر في المدينة الكبيرة أن كل واحد يبقى على حاله فتغطي دائرة الظلم على جموع الناس فيزدادون فقرًا وقهرًا.

ويقول هشام: إنه إذا كنت تريد أن تقيم مجتمعًا متكاملًا فلابد أن يكون هناك كل أنواع أسباب الحياة الكريمة، من توفير العمل المناسب للجميع وأن يحكم الناس أحوالهم بأعراف وتقاليد تحقق للجميع الحرية التي لا تضر بأحد، من يريد أن يتعبد أكثر في مكان عام للعبادة فليذهب إلى المسجد والكنيسة، ومن أراد أن يلهو فليذهب إلى الملهى، ومن أراد أن يذهب إلى دور العبادة ويذهب بعدها إلى الملاهي فليذهب، وإذا ذهب إلى الملاهي ودور الونِسة وأراد أن يدخل بعدها دور العبادة ليقيم صلاته فليذهب، ويقول هشام في كل جلساته: من العبط أن الشرق يتعامل مع الإنسان دينيًا فقط ويمنع عنه كل شيء، ولكن إذا أرادت مدينتنا الكبيرة أن تبني حضارة فعليها أن تتعامل مع الناس على أنهم بشر وبهذا تكون الإنسانية بكل معانيها موجودة فوق أرض هذه الحياة في أي ناحية، إن الناس في مدننا وقرانا ليسوا بأنبياء أو أصحاب دعوة، لكن الناس منذ نشأت الدنيا هم بشر كثيرون وليسوا أنبياء، حتى أن الأنبياء جميعًا أو بعضهم كانت في

حياتهم أنواع من اللهو والسمر ثم قاموا بدعوتهم فاستقاموا قبل أن يستقيم الناس، الناس لن تستقيم بدور العبادة وحدها، ولكن الناس تستقيم وتنعدل حياتهم بالصلاة والعبادة وباللهو والسمر، بالحرية في العبادة وبالحرية في كل دروب الحياة وأسبابها بتوفير كل ما يحتاجه الناس في اليمين والشمال في حياتهم.

كان هذا الكلام قد وصل ذروته في خيمة هشام أثناء اجتماعه مع شيوخ الناحية أغنيائها وفقرائها الذين كانوا يجلسون عن يمينه، وعن شماله كانت تجلس الراقصات والمغنيات وبنات ونساء كثيرات يعملن في كل أنواع اللهو، وفى آخر اجتماعه بهم قال لهم:

- كل واحد عنده رأى تانى ييجي يقوللِّي، لو الناحية فيها نقص تحتاجه ومش واخدين بالنا منه ييجي يقوللِّي علشان نشوف ممكن نعمله ولا لأ.

...وانصرف الجميع وهم لايفهمون كل ما قاله ولم يجرؤ أحد أن يخالفه، كانوا يهزون رؤوسهم على أنهم يفهمون ما يقوله ويبصمون عليه بالعشرة، وكان يكفيهم أنهم يعيشون حياة كريمة في هذه البلدة، وأن كل مايقوله العمدة صحيح وكل مايقوم به من أعمال فإنها تصب في النهاية لصالحهم، انصرف كل الرجال والنساء من عامة أهل الناحية وبقي معه فاتن مديرة الملهى وميادة وماجدة وبعض البنات والنساء اللائي يساعدن ويعملن بأعمال الملهى الكبير، ولم تمضِ دقائق خمس حتى دخلت صبيحة وأعوانها من النساء يحملن الصوانى والخبز والفاكهة والشراب ويضعونه وسط الخيمة، وقام الجميع إلى المائدة... أكلوا وشربوا مع العمدة ولما شبعوا من طعام صبيحة أشهر طباخة في البلدة، وهي مديرة مطبخ العمدة منذ سنوات، حملت النساء الصوانى والأطباق الفارغة إلى

المطبخ ونظَّفن الخيمة من بقايا الطعام، بعدها دخل عنتبلي المسئول عن بوفيه الكيف الخاص بصاحب الخيمة وانحنى أمامه قائلا:

- أجيب العدة يابيه؟

- شوية ناخد نفسنا، نص ساعة وهات الذي منه.

.. انصرف عنتبلى ليجهز أدوات المزاج التي تعوَّد في كل ليلة بعد تناول طعام العشاء أن يضعها أمام سيده، ولكن هذه الليلة زوَّد عَنتبلي الكمية من كل أداه وصنف من أجل ضيوفه الأعزاء على قلبه ونفسه، وتمدد بجسده فوق الشلتة الطرية وقال لفاتن:

- جسمى بيوجعني شوية.

- أعملك مساج يابيه؟

- محتاج لإيدك تريَّحني.

وراحت فاتن تدلك جسده بكريم تحتفظ به دائما في حقيبتها، ولما دخل عنتبلي بقصعات النار المصطلية، قامت كل من ميادة وماجدة ترفعان ثوبهما حتى أعلى ركبتيهما حتى تصعد النار إلى أعلى ساقيهما ليتمتعا بالدفء فوق اللهب، وكان هشام مستمتعًا وفاتن تسرح بكفى يديها على جسده بكل ماحوله خاصة تلك الراقصة ميادة التي تتمتع بساقين لم ير مثلهما في حياته، وكانت ماجدة تغير من ساقي ميادة.

فتبرز مفاتن صدرها الفاتن الذي يغلب صدر ميادة بشهادة الجميع من المعجبين في الملهى فيجاملها العمدة هازًّا رأسه مصفقًا بكفيه ويزعق سعيدًا بميادة وماجدة.

- ولا في المدينة كلها زيكم، عاشت ميادة وتحيا ماجدة.

وتخبطه فاتن بيدها فوق صدره وتقف متحدية صارخة:

- وأنا... شوف بقى رقصي وغناي ولاحد فيهم أدِّي.

فينعدل هشام ويقعد ويقول لفاتن مقدرًا إمكانياتها

- هو فيه حد زيك؟ إنت ست الكل يا فاتن:

وراحت البنات والنساء اللائي يجلسن في شكل دائرة يصفقن بقوة، واندمجن بقوة ومجون في رقص عنيف أمام هشام ملك الناحية لتحصل كل منهن في النهاية على رضا مليكهن " وظل الرقص الصاخب والغناء حتى تعبت النساء من التصفيق وارتمت كل من ميادة وماجدة وفاتن حول مخدعه وبعد أن شعرت بأن العمدة قد بلغ قمة نشوته بهن لما أشار لهن طافقًا بكفاية، كفاية كده كويس قوي، استريَّحوا.. استريَّحوا.

- وانحنت فاتن فوق رأسه هامسة:
- إتبسطت ياعمدة؟
- قوى قوى.. روحو الملهى بقى علشان تستريحوا شوية قبل ما تبدأ الليلة.
- حاضر يابيه هانمشى، المهم إنت الأول والملهى بعدك.
- خلاص يافاتن سيبونى أنام شوية، طفُّوا نور الخيمة.
- حاضر ياسيد الدنيا" سلام.

" في ليل الناحية يعيش الناس فيها دون شيء يوقظهم وما أجمل أن يندمج كل داخل نفسه، في النهار يخنق الواقع بحدوده الناس في تعاملاتهم وهذا شأن الحياة في أى مدينة كبيرة أو في تلك الناحية التي تتمتع دون غيرها من الأرض بكثير من الحرية والعدل، وكأن رب الخلق يخص بلاد بشيء وبلاد أخرى بشيء آخر يختلف، ولم يكن الخيال في داخلنا إلاَّ نعمة لنخرج من حدود نفوسنا الضيقة التي يخنقها دائمًا معاناة السبيل إلى العيش الأفضل ولكن هناك من يقفل نوافذ الخيال فتموت لذة الحياة حولنا لأن كثيرًا من القوم لايريدون أن يخرجوا من واقعهم حتى يغلبوا واقع الآخرين ليأخذوا

مكانهم، ومن يجرب لذة الخيال يذهب إليه ولو قليلًا للهروب من واقع مؤلم، إننا نقتل حياتنا إذا عشناها بدون بعض الخيال، ونعيش في وهم إذا عشنا كثيرًا من الخيال بعيدًا عن الواقع، ولماذا نندهش إذا كنا لا نتغير متوهمين أننا نحافظ على واقع مثل حيوان لا يستطيع أن يتغير إلا إذا سحبه صاحبه أو أذن له، قلق يهددنا من قلة الأمان، وكنت أبحث عن شيء يحميني من قسوة الظلم الذي بلغ مداه في المدينة الكبيرة، ولم أكن أستطيع إقامة واقع وحدي، ولابد من وجود الكثير معى من الناس حتى نقيم واقعًا قويًّا ليصبح شيئًا من خيال صنعه البشر.

.. كان ضعف الناس في المدينة بلجوئهم إلى الأنانية وظلم غيرهم من الناس حتى أنه لم يكن هناك ذرة من عدل بين الناس، انتشر الفقر والقهر والحرمان فبدأ الناس يبيعون أى شيء لكى يعيشوا مثل المرأة في كل شارع وحارة وزقاق تبيع من جسدها لتطعم أهلها وأولادها الجائعون، ياسادة الأغنياء يذهبون بنا إلى تحت حتى وصل بالناس الحال ليلقون بأنفسهم في البحر بحثًا في أعماقه عن أى شيء لأنهم لايجدون فتاتًا فوق الأرض وكانت دائرة الضعف الإنسانى في مدينتي من أنانية وسرقة ونهب قد أوصلنا جميعًا إلى واقع سافل ومنحط فكان خيالي بأن أذهب بعيدًا عن أرض مدينتي بحثًا عن أرض في قلب البحر حتى وجدتها، وإذا كانت أديان ربنا نزلت لتقول لنا وتدعونا إلى قليل من التدين حتى لانسرق ولاننهب ولانقهر، فإذا كان الناس في مدينتي قد تخلُّوا عن قليل من هذا التدين فإلى أين نذهب؟

" كان الإنحدار في مدينتي قد بلغ مداه وشمل كل ألوان الحياة حولي، ولابد لي من سبيل " وكان لابد لي أن أزرع شيئًا في الأرض الجديدة، ولم تكن الأرض صالحة والأرض حولها مالحة فكيف يأتي قوم إلى هنا ويعيشون؟! إن الناس تحط رحالها في

مكان إذا توافرت فيه الخضرة والماء، فإذا كانت صحراء لاخضرة فيها والماء فيها مالح " فلماذا يحط الناس هنا، وكان لابد من شيء أخترعه مثل لعبة من الخيال أقيمها في هذه الناحية حتى يقيم الناس فيها ويعيشون.

"أنقذت نفسى من هول المدينة ولو كنت أستطيع محاكمة المدينة لفعلت، وإذا أقمت محكمة فلن أستطيع إقامة عدل يحكم به رئيس المحكمة لأن كثيرًا منهم كان له علاقة بمن يملك المال في المدينة، كانت العملية من أولها لآخرها ضائعة لا حق فيها ولا عدل لأن الناس جميعًا في المدينة في حاجة إلى المال حتى ولو كان قليلًا، وكان هناك عدد ليس بقليل من المحامين يستطيعون تبرئة القاتل وتبرئة من يسرق مال النبى، فيضيع ما للبلد من خير وثروة بكل أنواعها، ومن سرق نجا بسرقته وهو الناجى الوحيد في اللعبة من أولها إلى آخرها، والمحامى الذي أتى له بالبراءة هو المنتفع الثانى بعد السارق، فهذا المحامى اللعين يقبض مائة مليون جنيه في القضية الواحدة إذا برَّأ صاحبها، المدينة بالطغاة فيها يسرقون والحارس موجود وبالقانون يسرقون، بل والقوانين يتم تفصيلها لتتم السرقة بحماية القانون، لأن من يسرق يجعل لمن يحكمون ويمسكون بتلابيب الأمور نصيبًا في سرقته، المدينة تمتلئ باللصوص ورجال القانون يفصلونه لكي يتمكنوا من السرقة، والمحامون هم الطرف الثانى الذي يبرئ الجناة من الحكم العادل، العملية كلها دائرة من الفساد في أولها وآخرها، أول الحكاية في مدينتي قانون وفى وسطها سارقون في آخرها أحكام تبرئ اللصوص.

" وكاد هشام يضرب صفية على وجهها حينما استفزته قائلة:

- إنت عمال تحكى بكيفك، وإنت بتعمل أيه ياهشام؟
- عملت ناحية فيها كل أسباب الحياة ياشرمو....

- اشتم زى ما انت عايز، من الآخر ياريت عملت حاجة كويسة تنفع الناس.
- وكان منين أعمل إذا كانت الأرض كلها رمل ومياه البحر مالحة، أزرع إزاي؟! " ولو زرعت كان مين هايستنى الزرع؟! الناس تموت على ما الزرع يطلع كام لازم أعمل حاجة جهنمية:
- وعلشان كده صنعت الحشيش.

" وانفعل هشام وهَّم يقف قابضًا على ذارعها فانقلبت أمامه صارخة من قبضته فصرخ في وجهها زاعقًا:

- تعال ياقحـ... شوفى أنا عملت أيه.
- آه حرام عليك سيب دراعى إنت عايز منى أيه؟
- عايز أيه القتل حلال ليكِ.

ودفعها بقوة ذراعه فسقطت قرب باب الخيمة فنادى الحارس:

- إقفل يا إبراهيم مافيش حد يدخل.
- حاضر حاضر.
- هات الكرباج قبل ما تقفل.
- حاضر ثوان.

" ناوله الكرباج الذي كان يخبؤه خلف الملابس المعلَّقة بالخيمة وهرول خارجًا ليقفل الباب بإحكام وقعد يحرس حريصًا على ألا يدخل آحدًا، كانت الساعة تقترب من الواحدة " من يأت بعد هذه الساعة وراح في غفلة من النعاس.

" وفى غلظة أوقفها ثانية بين ذراعيه وصفعها على وجهها قائلا وكأنه يحلف.

- هاتشوف يعنى أيه واحدة زيك تتجرأ على سيدها.

" وقعت أمامه تنتحب بسوط عال فشخط فيها:

- ولسه هاتشوفى ياقحـ.. جايبالى واحد يعشقك عندي! لأ وأيه وعايز ينافسني في عملي، على كده جايبه واحد أول ماشطح نطح، هاربيكِ يافاجره ومش هاسيبه.
- طيب معلشى أنا غلطانة ليك أبوس رجلك.
- بعد أيه؟ ولسه ياما في الجراب وأنا بتاع حشيش!

" مثل مياه المطر أغرقت الدموع وجهها فسال الكحل من عينيها " كل حالات الضعف كست حالها" خجلة منكسرة لاتعرف كيف تقول وآثرت أن تبكي متوسلة وراحت تبكي كأنها ترجوه، فأمسكها من شعرها وجرَّها لأعلى فوقعت لا تقدر ساقيها على حملها ومازل يجرها من شعرها إلى أعلى ورجته مذعورة.

- أبوس رجلك إعتقني أنا غلطانة، إعتقني لوجه الله.
- أعتقك إزَّاي، إنت مش دارية عملت أيه اقلعي..
- ليه؟ عايزنى بعد ماموتنى! أنا ملكك بس سامحنى خد اللي إنت عايزة.
- بقولك إقلعى ياقحبة.

" وخلعت ملابسها فبصق على جسدها العار" وطوَّح الكرباج فوق صدرها فصرخت وانحنت متأوهه: آه.. أه هاموت فجاءها من الخلف يضربها فوق ظهرها بلا رحمة فارتمت فوق الأرض، ولما سالت الدماء بقعًا تغطى ظهرها العار، وتصرخ مستغيثه ارحمني.. اعتقني، هاموت كفاية، ثم صمتت وكأنها ستموت فرمى السوط من يده وتنفس ملء صدره وقعد يتأملها في قسوة يشفي غليله منها، ثم راحت تعوي مثل قطة

مزقتها أنياب أسد، وداس عليها بقدميه وهو يخطو إلى مخدعه فصرخت، ولما تمدَّد في فراشه سحب الغطاء عليه وشخط فيها أمرًا:

- قومي ياشرمو.. البسى وامشى من هنا..

****

" برهان ابن العم يجد عبير ويدعوها إلى ناحيته"

" كانت عبير مندهشة من ابن عمومتها الذي يبحث عنها، هذا إن صدق أبو العباس، وراحت تبتهج فيما كانت تبحث عنه في أيام حياتها خاصة بعد أن غيَّرت حياتها، ولكن مافائدة هي أن تذهب إلى بلدة أبيها وقد قطع أبوها الوصال في حياته مع أخيه وكانت هي وأمها شاهدة عليه، ولتنتظر حتى يهاتفها برهان ابن العم" وليكن كل ما في بيتي مرتبًا ونظيفًا فمنذ أكثر من شهر لم أقم بتنظيف الغرف والصالة كما كنت أفعل كل أسبوع، أخذتني أميرة بأحداثها حتى أنني نسيت نفسى معها لشدة حماسى الحميم لها وما أحدثه زوجها الخائن من هول صدمة قاسية، ولم يكن ماحدث لها جديدًا فكل يوم عشرات المصائب تحط فوق رؤوس النساء من جرَّاء أفعال الرجال المشينة بهن، فهل يأتينى القدر بنصيب جديد يأخذني من تلك المرحلة الشديدة البأس، ولما كنت أختلي بنفسي وأنا في بيت أميرة خاصةً في الهزيع الأخير من الليل أحتضن فراشى وأحلم برجل يحبني وأحبه، وهل لامرآة كان لها هذا التاريخ منذ كانت طالبة بالجامعة، منْ مِن الرجال يأتيني إلا إذا كان رجلًا يجهل ماضي امرأة مثلي، وحتى هذا اليوم ياجدران غرفتي منذ أن بدأت الأنوثة تدب في جسدي وحتى بلوغي أوائل العقد الخامس من عمري مازلت أحلم وأتخيل رغم أن في سماء هذه المدينة غمامة لا تنتهي فهل يطير الحمام إلى عنق السماء يطلب انقشاع هذه الظلمة، لكن كيف تعفو السماء عن قوم

حملت حمائمهم رذائلهم، لابد لي ولغيري من الرحيل، لاملاذ لنا جميعًا إلا أن نذهب إلى ناحية أخرى حتى لا تشملنا غمامة تلك السماء، سوف أذهب إلى أميرة وأدعوها إلى نداء نفسي لأن بركان الظلم بات ثقيلًا وحتى يتم إزاحة هذا الكابوس لابد أن يكون هناك بركان غضب من كل نساء المدينة يضرب بركان الظلم المخيم فوق رؤوسنا منذ عقود، لابد للنساء في مدينتي من ثورة وكنت أشعر أن ثورة مثل هذه لن تقوم أبدًا مادمت أنا وأميرة وغيرنا لايرحل عن تلك المدينة رغم أن في الرحيل قسوة لأنها بلدنا التي ولدنا فيها فكيف لنا من قوة هائلة تدفعنا لإجتياز هذا الحاجز. آه ياربى ماذا يعتري نفسي؟! إني مازلت أتذكر أيام وليال البغاء مع أكثر من مائة رجل في مختلف الأعمار، يا نفسي لماذا تتذكري لذة أيام غادرتني ولم أعد تلك المومس التي تذهب مع الرجال، من دفعني أنغمس في تلك الحياة؟ هل كان موت أمي مبكرًا؟ هل كان جفاء وقسوة أبى؟ أم كان إبتعاد أهلى عنى عندما قطع أبى صلته بهم؟ وهل تستطيع فتاة جميلة أن تحمى جمالها وسط هذه القسوة؟ أكان عدلًا عندما أذهب إلى مجتمع مدينتي جعلوني ملْكًا مشاعًا لهم، ام أنني كنت أريد ما يريده مجتمعي، بعد كل أحداثي يبحث عني ابن عمي؟ لماذا لم يأتِ قبل أن يتلقفني الرجال؟! بعد أن خربت الدنيا معى يأتيني الدفء الذي كنت أبحث عنه!! أهازيج في نفسي منذ أن كنت طفلة هي التي وضعتني في أحضان الرجال، أكان المال الذي يأتيني عندما أبيع جسدي يجعلني أشعر بأنني ملكة، لم أجد نفسي ملكة مثل كل البنات في بيوتهن، ولكنني كنت ملكه في بيوت الرجال.

" ولما كنت أصعد الدرج ببطء دق جرس الهاتف.

- آلو.

- إنتِ عبير؟ عبير أنس خطاب؟

- أيوه" إنتَ مين؟
- أنا برهان عبد الرحمن خطاب.
- يانهار منيل!! دا كلام الراجل صحيح يعنى إنت..! إنت بجد مين؟!!
- أنا برهان ابن عمك.
- عايز منِّى أيه؟
- عايز بنت عمي.
- ماجتش ليه من زمان.
- أجى إزاي وعمى أنس طرد أبويا من بيته.
- أبويا مات من زمان، ماسألتش عليّ لما مات ليه؟
- ماعرفناش بموته ساعتها.
- طيب إذا كنت ابن عمى صحيح عايزنى ليه؟
- عايزك تيجي بلدنا وتعيشى معانا.
- هَّو فيه حد يسيب إسكندرية ويروح البلاد؟
- إحنا سيبنا البلد من زمان.
- إنتم فين دلوقتِ.
- فى البحر.
- هو إنت زهقت من الأرض رميت نفسك في البحر؟!
- أنا وأخويا في أرض وسط البحر.
- الخلاصة يابرهان إنت باعت واحد يدوَّر على عايز مني أيه؟
- هو فيه واحدة تقول لابن عمها عايزني ليه؟!

- مش عارفه أقولَّك أيه.
- ممكن تيجي مع أبو العباس؟
- تقبل بنت عمك تمشى مع راجل غريب، وآجي ليه مع أى حد، تعال إنت ومراتك وولادك زور بنت عمك.
- دا إنسان أمين اطمني.
- ما اقدرش أسيب بيتي ليلة واحدة وبعدين أنا عايشة مع صديقة لي.. ماقدرش أسيبها يوم واحد.
- إنت مش هاتيجي زيارة، تيجي تعيشى معانا على طول.
- وصديقتي، وبعدين أنا مش فاهمة أعيش عندكم إزَّاي مش ناقصة فقر يا برهان.
- إحنا سيبنا البلد، وسيبنا الفقر من زمان وعايشين كويس قوى.
- غريبة ماقدرش أسيب الست اللي عايشة معاها.
- تعال إنت والست وهات ولادك كمان.
- ماليش ولاد.
- ما اتجوزتيش؟
- لأ.
- يانهار إسود! ليه؟
- مافيش نصيب لغاية دلوقتِ.
- إنت سنك كام يابنت عمى؟
- اتنين وأربعين.

- ماعلهش العيب على الرجَّالة اللي مابتشوفش.
- ما يمكن يكون العيب منى.
- لأ.. تفى من بقك.
- خلاص زى ما انت عاوز.
- أنا عندى مشاغل كتير وممكن أبو العباس يجيبكم الصبح في عز النهار.
- تعال انت وصاحبتك على الرحب والسعة.
- برضه مصمم آجى مع واحد غريب.
- ياه إنتِ بتخافى من الرجالة للدرجة دى؟!
- من حقى.
- الراجل ده أمين قوى مايقدرش يقيم عينه فيك، دا شغَّال عندنا.
- هو إنت من أصحاب الأملاك.
- ربنا أنعم علينا من ساعة ماجينا هنا" إحنا قصاد أبو قير في البحر.
- إنت عايش في ناحية هشام؟ أنا روحت مرة هناك.
- إستغفرى الله، هشام مين؟! يانهار اسود ورحت هناك ليه.
- روحت مع واحدة صاحبتى زيارة من تانى يوم رجعت جرى وقلت هات يا فكيك.
- طيِّب كويس إنك رجعت إحنا ناحيتنا حاجة تانية خالص.
- طيِّب سيبنى أفكر إدِّينى مهلة يومين على ما اتكلم مع صاحبتى.
- موافق بس مش أكتر من كده علشان أبو العباس ما يتأخرش عن شغله.
- يومين وكلِّمني.

- حاضر يا بنت عمي ربنا يهديك وتيجي بلد ولاد عمك وتشوفي الدنيا هنا حلوة قوي وهاتعجبك.
- طيب آديني هاجى وأشوف.
- النهارده من أسعد أيامي عشان لقيتك.
- وأنا كمان.

****

" بعد إنتهاء المكالمة كانت أميرة قد سمعت كل كلامي وهي تجلس بجانبي في الصالة وكانت مشدوهة لمعرفة من المتحدث، أخبرتها بكل شيء وما يدعوني إليه ابن عمي من بداية بحثه عنِّي بواسطة أبو العباس، وأنه ينتظر تلبية دعوته في لهفة، وشعرت أميرة بالخوف وراحت تستغرق فيما سيحدث لها لو تركتها صديقتها فقطعت عبير أفكارها وقالت لها:

- مالك سكتِّي ليه؟ أيه رأيك؟!
- أفهم إنك هاتروحى لابن عمك وأنا هاروح فين؟ يعنى في الآخر هاتسيبيني؟!
- لأ ياحبيبتي عمري ماهاسيبك، شرط أساسى عليَّ إنتِ معايا.
- يعنى أفهم من كده إنك مش هاتسيبيني؟
- أبدًا والله ياحبيبتى.
- ياريت يا عبير.
- أنا جعانة قوى.
- مستنياك فيه أكل بايت من إمبارح.
- فين أحمد؟

- دخل نام من شوية.
- طيب ناكل الأول ونشوف الموضوع اللي جالنا من غير ميعاد.
- يمكن يكون خير.

" وبعد تناولهما الطعام جلستا بالصالة تحتسيان الشاي، وكانت عبير مبتهجة وأميرة ترقب سرورها بمجرد أن رجلًا من أهلها جاءها فجأة، غير أن أميرة راحت تتكلم في إسترسال وكأنها تطلع صديقتها عما في سريرتها من هواجس وخبايا.

" تعرفي يا عبير عيب إني عايشة دايما بالأمل حتى لو كان الأمل أجوف" آه يا عبير بعد اللي حصل لي، مع النصَّاب لسه بافكر إن ممكن يجيلي راجل يختلف تمامًا عما رأيته من أخلاق رجلين كانا نصيبي في حياتي الماضية، رجل آخر، جذاب جميل في أخلاقه حلو في كلامه صادق حنون، أكيد فيه ستات كتير لقت الراجل ده، إنتِ عارفه المشكلة في أيه، المشكلة إن الشوارع مليانة بالضجيج وبأنواع من الرجال والنساء لا عدد لهم، ولا تستطيع الواحدة منا معرفة مابداخل هؤلاء النساء والرجال خاصة، مدينة فيها كل شيء، الحوانيت والملاهي والمراقص، أماكن تنشرح لها النفس وينجذب لها الفؤاد، إننا بشر وحواسنا تندفع إلى تلك المغريات، فهل تستطيع المرأة من أن تنعزل عن هذه المغريات وإذا إنعزلت ستكون مثل بيت مهجور نافذته تطل على كوم زبالة المشكلة أن بيوتنا جميعًا تطل على هذه الأكوام، بالله عليك هل هناك امرأة في هذا الزمن تضع نفسها في دائرة مظلمة وقلب كل منا ينبض بالحياة والأمل، وهل تبحث المرأة منا عن رجل وهي بيت مهجور، والرجال في مدينتي يفرُّون إلى الشوارع في محاولات للبحث عن المرأة ومعظمهم يعتقد أن المرأة منا تبحث عن اللهو فقط ومن لا يعرفه الرجل أنه لا توجد امرأة في مدينتي غايتها النهائية الحصول على ذلك اللهو الذي يقصده الرجل،

حتى الداعرة الناشئة والقديمة تتمنى في أى وقت من حياتها الباغية أن يأتيها الرجل الذي يأخذها إلى بيت كريم فيه تكون الزوجة والأم، إن إفتراء الرجال في مدينتي وغايتهم مع المرأة هي التي تدفع النساء إلى لهو الرجل لقلَّة الرجال المحترمين في مدينتي، إن سقوط المرأة في مدينتى سقوط هزيل، وكل حكايات بيوتنا وشوارعنا ينتهك فيها الرجل حقوق المرأة بكل المعان والدرجات، إن مدينتي هذه لاتكتمل أركانها ولن يكون لها معنى إذا كان الناس في شوارعها يهيمون على وجوهم تائهون والمرأة فيها بهذا المعنى عند الرجل والرجال في تلك المدينة قد تجردوا من كل معان الرجولة إلاَّ قليل منهم، وأين هذا القليل، آه يا عبير أنا أبحث عن هذا القليل، أليس من حقى أن أبحث عن رجل مرة أخرى، وسكتت.

وكانت عبير جد مشدوهة إلى محاضرة صديقتها التي لم تنقطع ونزلت فوق رأسها كسيل جارف، ولاذت هي الأخرى بالصمت وهي تضع كف يدها فوق فمها وكأنها تخرسه، وفجأة أفاقت ورفعت كف يدها القابض على فيها وارتسمت على شفتيها ابتسامة وطفقت:

- شوفى يا أميرة دى وجهة نظرك وكل واحدة فينا ليها وجة نظر ومن حقها تقولها، وعلى فكرة كل الستات بتتكلم كتير مع نفسها وماحدِّش بيسمعهم ولو حد سمعهم مابيعملش حاجه، عمر الكلام ماحرم على حد، لكن الحركة أحسن لكل امرأة من الكلام، عمر الكلام ماعمل حاجة لازم من الحركة، يعنى مش كل ست تقعد حاطة إيديها على خدِّها وتلطم وتصوَّت على حظها لازم من الانتقال من شيء لآخر، لازم من الحركة.
- أى حركة؟! طيب قوليلي أتحرك إزاي؟

- ممكن تربى ابنك وترضى بنصيبك وخلاص، فيه ستات ماعندهاش ولاد، إنت أحسن من غيرك.
- أسكت على كده؟
- فى إيدك أيه تعمليه.
- أنا لسه حلوة، ليه ماتجوزشى تانى؟!
- ماحدش حايشك لكن هاتجيبى الراجل دا إزاى ومنين.
- أنزل الشوارع.
- دا أكبر غلط بتعمله الست وعمر الشوارع ماجابت راجل.
- وبعدين إنت حيرتينى؟!
- ولا قبلين، بقولك أيه، أنا برضه حلوة، عايزة راجل ولاَّ رأيك أيه؟
- حقك يا عبير وحقى والستات كلها حقها، تعرفي أنا مبسوطة قوى من كلامك خلاص إحنا الاتنين عايزين راجل.
- مشكلة مالهاش حل.
- بقولك أيه ياله نرقص.
- عندك شريط نرقص عليه؟
- عندي.
- محتاجين نفك نفسنا شوية.
- عندك بدلة رقص؟
- مش لازم، بقميص النوم.
- والله فكرة وأنا كمان بالقميص.

"صفية تقرر الهرب بعد علقة ساخنة بالكرباج وكيف كانت أول سجينة"

****

" لما خرجت صفية من الخيمة كانت تتأوه وتصرخ ومشيت خطوات وهي تنحني حتى كادت رأسها تلامس ركبتيها، وكان الشارع الممتد من مقر هشام حتى أول ناصية بالحي خاليًا من المارة في هذه الساعة من الليل الذي تجاوز نصفه بكثير وبدأ الهزيع الأخير منه يقترب، وبذلت كل جهدها وهي تمشى منحنية حتى وقعت قرب كومة زبالة فانزعجت الكلاب التي تبحث في النفاية كعادتها كل يوم وصرخت الكلاب بنباح تعودوا عليه حين يجدوا بنى آدم يرقد أو يقع أو يجلس قرب قُوتهم، كأن الكلاب تقول: إيش جابك جنب أكلنا؟ ولو استطاعت كلاب الناحية الشريدة أن يسحبوا شخصًا من جلبابه ليبعد شريد أقواتهم لفعلوا، نبح الكلاب مثل حمار ينهق عندما يجد شبح الليل الأخير في رعية البرسيم أو في حقل ذرة أو في جرن قمح، وكأن لغة البهائم واحدة عند الكلاب والحمير والقطط، وهرول شيخ الكلاب زعرور أكبرهم سنًا إلى بيت صاحبه زبال الشارع يضرب بابه بقدميه ورأسه حتى خرج صاحبه فشدَّه من بنطاله بأسنانه وتمكَّن من توصيله إلى المرمية عند زاد الزبالة الذي جمعه طيلة الليل ليورده في صباح اليوم التالى إلى شيخ الزبالين في الناحية، ولما انحنى عبده الجخ فوقها قلبها على ظهرها فعرفها فصرخ في وجهها كأنه يتوقع أن تجيبه.

- مين عمل فيك كده؟! ياليلة سوده ياستي!

جثة هامدة سيدتي، هكذا علا بصوته سيدتي سيدتي، انقلب هالعًا إلى بيته وأتى بحماره وسارت زوجته شفية خلفه والتي الحَّت عليه ترجوه أن يخبرها ماذا في الأمر، فيه أيه ياعبده؟ فيه أيه؟! لكنه لما إقترب من معاشه وجد المرمية سيدته صفية قد قعدت وفتحت

عينيها، فانحنى عليها مرددًا " كويسة ياستى أحسن دلوقتِ فقالت له هامسة بوجع أليم – خدنى للبيت خدنى للبيت.

- تقدرى تركبى الحمار؟ هاسندك.
- حمار لأ. مراتك من ناحية وأنت من ناحية سيب الحمار.

بصعوبة بالغة وصل عبده وزوجته إلى بيتها كانا يحملانها حملًا، وعند الباب قالت:

- خد المفتاح من جيبى وافتح.

وحملاها إلى غرفة نومها ولما عدلاها في فراشها قالت:

- روح إنت ياعبده " سيب مراتك شوية معايا.
- حاضر ياستى " بس إنت عايزة مداوى " لازم كريمات للجروح وحقن والذي منه.
- هانجيب منين دلوقتِ الإجزخانة الوحيدة تلاقيها قفلت.
- على فكرة بنت بطرس طبيبة وعندها كل الإسعافات، هاروح ليها دى الوحيدة اللي هاتلحق.
- كويس إن بطرس ليه بنت شغالة في الطب الحقنى ياعبده.

" وراحت شفية زوجة عبده تبللَّ قطعا من القماش في الماء وتمسح أثار الدماء في جسدها ووجهها ورأسها حتى جاءتهم الطبيبة تحمل في حقيبتها الحقن والبرشام والكريم الخاص بالجروح، وظلت تداوى صفية من وقت أذان الفجر حتى ملات الشمس أرجاء الناحية ودقَّت أجراس الكنيسة في السابعة كعادتها كل صباح بعدما ذهبت الطبيبة على أن تعاودها في وقت آخر من اليوم.

" وكان في الناحية حلاق ومداوي أقدام الحمير والجياد وضارب طبل ورق وحلاق حمير يعالج الحيوانات والكلاب بالكي بالنار، مجموعة من أصناف الناس الذين يمتهنون مهنًا بسيطة يقولون عنهم دراويش الناحية، كلما وصلهم إحساس بأن هناك شخصًا ظلم أو أصابه مرض عضال أو اعتدى عليه ظالم رقت قلوبهم وجمعهم شعور بوحدتهم فيذهبون إلى دار المصاب يصفُّقون ويطبلون ويدعون حتى إذا خرج إليهم أحد من البيت وجزاهم حسنة من نقود أوزاد أخذوها وانصرفوا وهم يدعون له بالشفاء أو يرزقه مخرج، ولمَّا علموا بضرب صفية المبرح الذي نالته من صاحب البلدة ذهبوا إلى دارها يصفقون ويهللون ويدعون:

على أمك يا أم العال مين جعلك

إنتِ وغيرك يا صفية مين جابكو

يابل عيوني وحياة فرن الحداد

ياحياة قلبى أيه غصبك مين جابك من أبي الدردار

وحياة المرسى وغيط العنب وأبو العباس

روحي بلدك بكفاية عذاب

فين جوزك وأمك وأخوك كمال

سبتي ليه الدنيا وجيتي لأبو الجبار

ماحِّدش غصبك

إنت زى الستات بيحبوا المال

لاصبرت ولاكافحت وحطيت نفسك في النار

إخص عليك وعلى أمك وعلى نفسك ياقتيلة العذاب

إنت زى كتير من الستات يموتوا في العذاب والهروب من الأقدار
عليك وعلى سلسفيل أهلك قومي بقى وخلِّي عندك شوية خشا واستحياء
منين يجيلك الحياء يابايعة العرض والأنساب.
وسمعت صفية ماقذفوه بها من ألفاظ فزعقت فزعة في شفية:

- رشيهم ياشفية بالميه ولوقدرت بشوية نار.

وركبت شفية الخرطوم في حنفية المطبخ وأغرقتهم بالمياه فتفرقوا ولعنتهم بأفظع الألفاظ حتى ترضى عنها سيدتها صفية وراحت صفية تبكى، كده فقعوا دِّملي، مابقاش لي أقعد هنا لازم أمشي ماعدش حاجة حلوة أقعد عشانها" حتى الهُبل والعُبط فضحوني هوَّ فيه أيه باقي؟ لازم أمشي؟ أهرب.. أهرب من العاشق الذي كنت أعشقه واللي خطفني من ترام الرمل إلى هذه الناحية الغريبة، أهرب لأني أصبحت امرأة عنده بلا ثمن دون أدنى تقدير، أهرب من صانع الحشيش" أهرب من وظيفتى في نشر الكيف في المدينة الكبيرة.. أهرب من سقوطى فلم يعد في داخل نفسي شيء له معنى.. أهرب من نور الذي أشرف على الإنتهاء من إتمام ملهاه، " لم يعد لي مكانًا في هذه الناحية لقد فقدت كل شيء.

" وكانت شفية زوجة الزبَّال تكمل لها بقية استمرار العلاج من دهان وبرشام حتى أنها دخلت واستحمت في حمامها لتكون رائحتها مقبولة لدى سيدتها ولم تتركها صفية بعد كل عمل قامت به في تطييبها وخدمتها إلا وأغدقت عليها بالكثير من المال مما دفع شفية لأن تتفانى في خدمتها وتقول لها كلما أكرمتها بالمال:

- أنا تحت أمرك ياستي، إعتبريني خدامتك على طول.
- وولادك وجوزك يا شفية؟

- هم بيصرَّفوا نفسهم ولا مشكلة عندى المهم إنت.

..ومَّرت أيام وليال تأتيها الطبيبة ابنة بطرس وتخدمها شفية حتى أصبحت قادرة على الحركة كما كانت، وكان نور قد أتى لزيارتها بصحبة نساء يعملن في خدمته وكانت تسأله عن المرحلة التي وصل إليها في بناء الملهى حتى فهمت منه أن أيامًا قليلة ويتم افتتاح ملهاه" وكان أهل البلدة جميعًا راضون بقيام مجموعة الدراويش بعملهم من ليلة لأخرى عند بعض الدور الذي يصاب أهلها بأي ألم أو وجع أو بأس" عند باب كل مصاب يقوم هؤلاء بعملهم كأنهم ينصحوه أو يذكروه أو يسخرون منه، وكانت الناس تضحك عندما يسمعون كلامهم وطبولهم بل ورقصهم، ولم يكن هناك أحد يستطيع محاسبتهم أو عتابهم فهم دروايش أصحاب بركة ونداء خفي يحُّركهم لا يعلمه أحد إلا الله، ولم يستطع أحد تفسير معان كثيرة لكلامهم وأناشيدهم، ورغم ألم صفية من كلامهم الواضح لها وسخريتهم منها، إلا أنها أرسلت إليهم نقودًا بواسطة شفية، والتي قالت لهم مافيش داعى للكلام دا تاني وابعدوا عن الست صفية ودى فلوس لكم بعتاها الست ليكم علشان تبقوا عال العال، فأخذ شيخهم المال مبتهجًا قائلًا للخادمة:

- قوي بلَّغيها، مش هايحصل تانى، ولكن خلِّيها ماتقطعش بينا، إحنا ناس غلابة ياشفية أهو كل فترة كده تبعت لينا حاجة، دابرضه أكل عيش، فهِّميها كده ياشفية.
- حاضر يا شيخ اتفقنا.

"ولما عادت زوجة الزبَّال إلى سيدتها وأخبرتها بما تم الاتفاق بينها وبين شيخ الدراويش قالت لها صفية:

- اسمعى ياشفية عايزة أهرب.

- تروحي فين ياستي.
- ارجع بيتي في المنشية.
- وتسيبى بيتك هنا وحالك ومالك.
- بكفاية كده كل شيء له نهاية
- خلاص ياستي إعملي اللي يريَّحك.
- أنا متراقبة دلوقت عايزة أطلع من بيتي لا حد يشوفني ولا حد يدرى بيّ لغاية ما أوصل مرسى القوارب.
- ممكن نحطك في عربة زبالة.
- يعنى تحطينى في مقبرة أموت فيها.
- لأ ياستى نعمل عربية جديدة مخصوص علشانك.
- بكام عربية الزبالة الجديدة؟
- خمسين جنيه، هاجيب صندوق بس.
- أقوم أجيب لك الفلوس.

" ومَّر يومان بعدها أبلغت شفية سيدتها صفية أن عبده زوجها انتهى من تجهيز الصندوق الجديد، وقامت تفُّتش في دولابها عن كل ماهو ثمين وفى أرجاء البيت وجمعت أشياءها الأخرى، وعبَّأت حقيبة كبيرة بتلك الأغراض، وساعدتها شفية في تجميع كل الضرورى الذي يجب أن تأخذه معها، ولما انتهت من ملأ حقيبة أخرى بملابسها، قالت لشفية:

- الملابس والأغراض اللي فوق الكنبة خديها ليك.
- دا كتير ياستى كتر خيرك، ياخبر كل ده!!

- حُطِّيه في بؤجة وروَّحيه دلوقتِ بيتك وتعالِ بدري بالعربية قبل شروق الشمس.
- حاضر ياستي، بعد الفجر على طول.
- تيجي لوحدك حتى عبده مايعرفشي حاجة.
- عيوني تحت أمرك، إنت تأمري.

" لم تنم صفية طيلة الليل، ولم تكن من فترة قد أقامت أية صلاة، مع أذان الفجر قامت وصلَّت وراحت تدعو أن يساعدها الله في هروبها اليوم، وكان يهمها ألا يكون هشام قد وضع جاسوسًا يرصد تحركاتها، وألا يعلم نور بشيء وتركه لمصيره في هذه البلدة.

" كان البيت يطل على البحر وأجمل ما في موقع إقامتها أن تتأمل وجه الأمواج من يوم لآخر وكانت ترى السمك بعد شروق الشمس يغادر الشاطئ ويهرب إلى أعماق البحر، لكن في هذا الوقت المبكر من هذا اليوم كان السمك يجري في صفوف نحو الشاطئ لكن في شقشقة هذا النهار كانت الأمواج هائجة تضرب الساحل بعنف، لكن سلاسل بيوت الناحية تلف ساحل البحر الذي يحضن البلدة من أجنابها الأربعة، وفى غمرة هذه الآفاق الساكنة غمر قلبها أملًا في أنها سوف تغادر في أمان ولن يدري بها أحد، وفجأة نهق حمار شفية أمام البيت فابتسمت وقالت وهي تنقلب إلى حاجياتها داخل البيت:

- ياربى بعد كل هذا الجمال حمار.

فتحت الباب ودخلت شفية التي حملت الأغراض واحدة بعد الأخرى إلى الصندوق، وكلما وضعت بؤجة في العربة نهق الحمار فقالت صفية:

- الحمار هايفضحنا.
- ماتخافيش ياستى الناس كلها في البلد بتصحى على نهيقه كل يوم.

- يعنى دا عادى؟

- عادى، إنت بس ماتنسيش حاجة.

" ربطت رأسها بطرحة سوداء تدلت شراشفها على وجهها وارتدت ملابس حشمة غامقة مثل عباءة بنات بحري التي تغطى ملابسهن الشفتشى تحتها، وفى قدميها كوتش كأنها مدربة رياضة، قفلت الأبواب وأطفات الأنوار ثم خرجت من باب بيتها وأحكمت قفله وقالت:

- أركبي ياشفية.

- إستني أسندك، تعالِ من قدَّام.

" ودخلت في فوهة الصندوق المغطاة بستارة، وكربجت العربجية الحمار بسوطين فانطلق إلى مرسى المراكب، وكان الصندق يتمرجح فتنقلب صفية يمنة ويسرة كأنها كومة من قش حملتها العربة وكانت شفية تطلق حمارها في قسوة فتتأرجح راكبتها غير مبالية بندائها" حاسبى بالراحة شوية المركب موجود مش قطر له ميعاد، ولم تبالِ شفية حتى وصلت بعربتها نزلة المركب فقالت:

- وصلنا.

- أنزلي

- إستني شوية أشوف الجو.

" كانت شفية تعرف من زوجها أن مدحت سلطان رجل الشرطة الأول لدى هشام ينتظر على رأس النزلة هو ورجلان من جماعته، تقدم مدحت وفتح الستارة فصرخت قائلةً:

- عايز أيه؟

- إنزلي ولا كلمة.

- إنت مين؟
- أنا واحد من الناس إنزلي.
- أروح فين؟
- معانا من الآخر الباشا عايزِك

نزلت مذهولة ياخرابي! الباشا مين؟! عملتها شفية!!

- هو فيه باشا واحد في البلد" الباشا اللي جابك وعملك من ساسك لراسك.
- هاتوديني فين؟
- ها اودِّيكِ السجن.

" صرخت وارتمت فوق حجر ضخم فأمسك بها الرجلان وقاداها إلى فولكس وأخذاها إلى سجن البلدة التي لم تعلم به من قبل، ولا تعلم أن هشام قد أقامه خصيصًا لها بعد أن قالت له: إنت عملت أيه؟ عملت مصانع للحشيش بتضر بيها البلد كلها، وكان هشام سيد اختراعه لهذه الصناعة والتي كانت بالنسبة له السبيل الوحيد لإنقاذ هؤلاء العاطلين والفقراء من أهل المدينة الكبيرة، كانت هذه الفكرة والتي استطاع تنفيذها بخبرته كمهندس زراعي، هي الصناعة الوحيدة التي يستطيع تنفيذها وبيعها في أى مدينة للعاملين في العمار والأغنياء، وكان قد فكَّر فيها كثيرًا وهو في المدينة الكبيرة عاطلًا ضجرت منه المقاهي والشوارع في تسكعه كل يوم بحثًا عن أي عمل يعيش منه، وكان لهشام أن يبحث عن مكان بعيد عن كل العيون التي تقوم بالحراسة وتحافظ على الأمن، أن يقيم ناحية ليس فيها شرطة ولامحكمة ولا سجن ولا قاضٍ، بلدة يحكمها هو ويملك الناس فيها بتوظيفهم في هذه الصناعة التي جعلت كل أسرة رحلت إليها تأكل وتشرب وتسكن وتعيش، أهل ناحية ليس فيها بيت يخلو من حظيرة للماعز وليس فيها دار لا تقوم

بتوريد زبل الماعز الولدة للمصنع الكبير الذي يملكه العمدة أو للمعامل الصغيرة التي تقوم بهذه الصناعة، وعليه نشأت مهن أخرى، ففي كل بيت فرن للخبيز فينتج عن ذلك مهنة الخبَّاز والخبازات، وهذا الرجل الصالح فتح الله الذي أقام مهنة الحدادة وذلك الرجل الأمين بطرس الذي أنشأ مهنة النجارة، هذا غير أن فتح الله زوَّد البلدة بالمغنية فاتن التي تدير الملهى هذا غير ابنته ماجدة أشهر راقصة في الملهى، دون أبنائه الثلاث الذين يساعدونه في عمله وينشرون مهنة الحدادة بتعليم كل من يريد إمتهانها، ورجل مثل بطرس الذي قدَّم للملهى أجمل وأبدع راقصة، تلك ابنته ميادة، هذا غير ابنته الطبيبة وابنته صاحبة معمل التحاليل وبقية أبنائه النجارين، عشرات المهن التي أقيمت في الناحية والتي أقامها صاحب البلدة وعمدتها هشام – وكان انتقامه من صفية شديدًا جدًا تلك المرأة التي جاء بها من ترام الرمل" بعد كل هذا التاريخ تأتينى تلك الضائعة وتهددني، فلن تكون إلا أول سجينة في أول سجن يقيمه في الناحية، وراح يسأل نفسه ما الذي سيفعله بها بعد سجنها، وهذا الذي جاءت به نور يتحَّداني ويقيم ملهى ينافس ملهاي، سوف أنتظر ما تأتي به الأيام، سوف يكونان عبرة للناحية كلها حتى يرى الناس جميعًا ماجزاء من يتحدَّاني أو يتمرَّد عليّ، وما الذي ينتظره من مصير.

" عباس هو أبو العباس "لا أدري؟ ومن هو الرجل الذي يأخذنا إلى ابن عمي"

أصاب أميرة كثير من القلق لمَّا وجدت صديقتها عبير فرحةً بسؤال ابن عمها عنها، وأنها قد تذهب إليه، وأنا متربِّية طول عمري عيب أروح معاها عند أهلها لقد تعلقت بها.. إن فيها ما يمس قلبى من حب تجاه امرأة مثلي، إن أيامًا ستأتي لا أعرف ماذا ستجلب لنا من أحداث.

" ومرت أيام أخرى فيها دق هاتف عبير فأمسكت بالهاتف ولم ترد، ودق ثانيةً وثالثةً بعدها بنصف ساعة فأمسكت بالتليفون في الدقة الرابعة وردَّت:

- آلو.
- برهان أخوكِ، ضربت كذا مرة ماردتيش ليه يابنت عمي.
- كنت في الحمام.
- المهم عملت أيه؟ أنا مستنِّيكِ تردي.
- إنت لسه مُصر.
- مُصر لآخر عمري مابهزرش يا عبير.
- طيب يابرهان من شروطي آجي ومعايا صاحبتي وابنها.
- تعالِ إنت وكل صاحباتك.
- هي صاحبة واحدة زي أخت بالضبط.
- موافق على كل ماتطلبيه.
- آجى زيارة الأول وإذا عجبني الوضع أبقى أشوف.
- موافق أبعت أبو العباس إمتى؟
- بكرة زي دلوقتِ كلِّمني نكون جهِّزنا حاجتنا.
- خلاص يابنت عمي إتفقنا.
- إعمل حسابك معايا صاحبتي وابنها، كلام أخير.
- إذا كانت الدنيا عندنا سايعة الغريب يبقى مش هاتساع بنت عمى وصاحبتها.
- يعنى فيه مكان مستقل لينا إحنا لوحدنا؟
- بيت من بابه بمفتاحه ليكِ إنتِ، وبيت لصاحبتك من بابه برضه.

- لأ إحنا عايزين مكان واحد يعنى بيت واحد كفاية.
- كل اللي تريديه موجود.
- خلاص يابرهان كلِّمني بكره نكون جهزنا.
- ربنا يهديك يارب.
- هو إنت شايفني عاصية يابرهان.
- لأ والله ماقصدش ماتخديش كلامي على عكسه، طول عمرك طيبة وماشية على الصراط.
- مين قالك يابرهان.
- عمِّي أبوك مرة قال لأبويا إنك ماتعرفيش حاجة في الدنيا غير البيت والمدرسة.
- ولما رُحت الجامعة كنت كده برضه، اتحوِّلت من قطة إلى أرنبة.
- طبعًا بنت عمى عمرها ماتكون غير أرنبة بالكتير.
- طلعنا لمواضيع تانية خلِّينا في بكرة.
- إتفقنا.. مع السلامة.

****

" كنت قطة مغمَّضة طول حياتى ولما خلصت الثانوية العامة ورحت كلية الحقوق كان أبويا مايقدرش يحكم مواعيدي، كل يوم أقول له الوقت اللي أرجع فيه يختلف من يوم ليوم، أبويا كان راجل قفل قوي، وكان في داخلى شعور نفسي عميق فيه أمقت أبي وصلافته مع أمي التي ماتت كمدًا من تصرفاته المجرَّده من الذوق والأدب، أبويا ماكانش إنسان خالص، ونفس المعاملة المجردة من أى حنان أبوي، وكنت أكلم نفسي

بعبارات أقولها دائمًا عندما أخلو بوحدتي في غرفتي هوَّ إنت أب إنت!! خربت الدنيا قبلك وبعدك لو كان الأبهات في الدنيا دي زيك ربنا ياخدك يا أنسي.

" اتحوِّلت من قطة إلى أرنبة لمّا دخلت الجامعة، انتويت أن أرى نفسي في عيون الرجال ولم أكن أبالي بتصرفات طلبة الكلية معي إنهم يعاملون زميلاتهم كأنَّهن أطفال، ولم أكن يهمُّني التعامل مع أى زميل.. كانت طموحاتى في الرجال أكثر من ذلك بكثير، ولم أكن أريد تضييع وقتي فلا مفر من اجتياز الطريق إلى رجال ناضجي الفكر والمعنى يقدُّرون أنوثتي دفعة واحدة، كانت هناك رغبة في داخلي أن أجد رجلًا يدخل بي إلى أنوثتي الجائعة مرة واحدة، تأكدت من مشاعرى وطموحاتي تلك عندما قفلت باب غرفتي في يوم لم يكن أبي في البيت، خلعت ملابسي قطعة بعد أخرى وأعجبت بنفسى وأنا أنظر إلى جسدى قطعة بعد أخرى أمام المرآة، ولما تأكَّدت من إعجابى بنفسي وأنني بهذا الجسد أتحدى به أي امرأة في مدينتي كلها.

" كان هناك مكتب عقارت في شارع قرب بيتنا، وكنت أعلم من زميلات في المدرسة أن أى سمسار عقارات خاصة سماسرة الشقق وكذلك محلات المكوجية يوفُّرون الشقق لزبائنهم ويوفرون لهم سيدات وبنات يعملن في طبيخ وغسيل وتطبيب مقابل أجور مرتفعة، لماذا لا يكون جسدى هذا هو بداية اللِّعب في طريق يمتلئ بالرجال وتمتلئ فيه جيوبي بالمال؟ لماذا لا أكون واحدة من هؤلاء النسوة اللائي يقدِّمن خدماتهن في هذا المجال المفتوح؟ وفى يوم ذهبت إلى المكتب قابلت شابًّا يعمل في مكتب السمسرة وقابلنى بأدب حتى أنه انحنى رادًّا على تحيتي عند دخولي:

- لو سمحت فيه شغل عندك؟
- تحت أمرك فيه كل اللي إنت عايزاه.

- وبدأت حكاياتي..

" تذكرت أول أعمالى خارج بيتي بعد محادثة ابن عمى، تذكرت عندما عدت أرنبة بعد قطة، وتذكرت المهندس المغترب الذي حَّولني أرنبة، وتذكرت أول واحد سرَّحنى "عباس"، وكان كثير من أهل بلدى يطلقون على أولادهم اسم "عباس" أو اسم "أبو العباس"، وأبو العباس الذي أرسله ابن عمى ليأخذنى إليه اسمه "أبو العباس" وليس "عباس".

****

"السجان يعشق المناضلة الأولى في سجنها"

"غرفة مفروشة بالحصير مظلمة رغم طلوع النهار، نافذة في أعلى الحائط مثل طاقة القاعة في الريف بالكاد تدخل الهواء لكي يتنفس السجين إذا كان بمفرده، وهذه الفاتحة ضيقة تتسع ليدخل منها دجاجة أو بطة، فإذا إمتلات الغرفة بعدد من السجناء سوف يصابون بالاختناق وهي إحدى وسائل التعذيب الطبيعية في هذا السجن المظلم والذي صممه مدحت سلطان من خلال خبرته كأشهر سجناء المدينة الكبيرة منذ أن كان عمره عشرون عامًا حتى بلغ الأربعين وهو سجين دائم من حكم إلى حكم جراء جرائمة المتتالية كفتوة شهير ليستأجره الناس في كثير من الأحياء ليأخذوا حقوقهم من أعدائهم بطريقة الفتونه التي أسسها مدحت في عدد من أحياء مدينته، جاء به هشام ليؤدب من يطغى أو يتجاوز حدوده في ناحيته، وكانت أول أعماله بناء هذا السجن الذي صممه كنموذج صغير لسجن كبير، مرَّ مدحت على سجن بغداد الشهير "أبو غريب" وسجن فيه عامًا بعدة تهم لفقتها له المخابرات العراقية في مدينة الموصل؛ حيث كان يعمل محاسبًا في خدمات برق وهاتف نينوى، ولم يتعاون مع إدارة مخابرات الشمال فكادوا له

وقبضوا عليه من دائرة عمله بتهم مثل: التهجم على شخص رئيس الجمهورية، وثانيها التعاون مع المخابرات النمسوية... وحكاية مدحت سلطان عجيبة، فكلما أطلقوا سراحه ليس من أجل خاطر عيونه ولكن المخابرات كلَّفته بعمل فرقة سرية تتعاون مع جهاز الدولة، قالوا له: سوف نزرعك في مدينة السليمانية وهناك تؤسس جماعتك لتقوم بأعمال لصالح الدولة في بغداد، وافق مدحت سلطان بالعرض حتى يخرج من سجن أبو غريب، أما حكايته في مدينة السليمانية وكيف أنه تظاهر بتعاونه مع المخابرات ضد أكراد الشمال ومرت ثلاثة شهور وهو في الظاهر يتلفح بعباءة تعاونه مع نظام الدولة، وبذل جهدًا كبيرًا حتى استطاع مع بعض رفاقه الهروب إلى تركيا ثم العودة إلى مدينة الإسكندرية في أواخر عام ١٩٨٤، وليس هذا بيت القصيد ولكن حتى يدري الناس من هو مدحت فهو في كل مراحل حياته البريء والمتهم والسجين.

استعان به هشام بعد مرور السنين الطويلة عندما تذكَّره أثناء صحبته في بغداد، تذكر صديق كفاح الغربة مدحت وهو الرجل المناضل الشجاع في كل أطوار حياته، استعان به ليكون له قوة يخيف به كل من تتجرأ نفسه بالتطاول أو التجاوز عليه في ناحيته التي أنشأها من تباريحه وأفكاره من دمه ولحمه وشحمه هو وهؤلاء الفقراء الذين أصبحوا وبعد عشر سنين مواطنين صالحين لهم حياتهم وكرامتهم المستقلة والتي ينعمون فيها برغد العيش بعيدًا عن كل أحوال المدينة الكبيرة.

" كان الطقس شديد الحرارة في منتصف إبريل عام ٢٠١٠ حمدت الله أنهم سجنوها بحقائبها، خلعت كل ملابسها عدا قميص نومها وامتدت بجسدها العارِ فوق الحصير الخشن، ووضعت حقيبة صغيرة تحت رأسها وحاولت أن تنام رغم أحزانها الشديدة على نفسها، ولأنها لم تنم الليلة البارحة أخذها النوم، نوم عميق حتى اندمجت في عالم من

أحلام أخذتها إلى دنيا أخرى كأن رجلًا يحاكيها وينظر إليها من الطاقة الضيقة في أعلى حائط السجن، انتبهت إلى صوته الحاني نحوها:

- تفتكري يا صفية إنك على حق؟
- عمري ماكنت على حق.
- اللي قولتيه لهشام غلط ولاَّ صح؟
- هو أنا وغيرى من الستات أصلًا جينا هنا ليه؟
- علشان الحياة.. "عارف" من حقكم تدوَّروا عن العيشة السعيدة.
- سبب سجني هنا رجل، الأساس في ظلمي وأعمالي دي كلها سببها جوزي عبد الشكور.
- لما خدك هشام زى الشريدة من ترام الرمل في الآخر تظلميه وتتهميه؟
- أهو كلام.. بصراحة الراجل ده عمل منِّى بنى آدمة.
- عملت أيه خير لهشام؟
- ولاحاجة.
- طيب ليه تظلمي نفسك؟
- كانت زلة لسان.
- بعد أيه؟!! مافيش حد في البلد اتصرف كمبدع للحياة زى هشام.
- لكن أنا ماعملتش جُرم جامد قوى علشان أتحط في السجن؟! دا أنا غلبانة يا عم.. هوَّ إنت اسمك أيه؟
- عبد الرؤوف
- اشفع لي يا عم عبد الرؤوف أنا غلبانة.

- أشفع إزَّاى إذا كنت ضغطتي على جرحه!!
- كل اللي قلته إنت بتعمل حشيش وبتضر الناس بيه.
- ياخايبة ده مش حشيش.
- إنت شربته؟
- أنا باشربه كل ليلة ماقدرش أنام إلا لما أرص حجر.
- دا حشيش والله.
- وانت مالك مش الناس عايشة بيه وبتشتريه ياعبيطة دى ريحة حشيش، دا كلام بينى وبينك؛ هو حشيش قدام الناس كلها علشان الناس تعيش، ماتمسكيش في الهايفة يا صفية، الحشيش اللي مش عاجبك ناحية بناسها وبيوتها عايشة منه بقى لها سنين، تقومي تيجي في الهايفة وتتصدري وعايزة تهدِّي كيان أمة كلها عايشة عليه؟! اصحى.. إنت خايبة ولا أيه؟!!
- إنت بتصحينى ياعم عبد الروؤف؛ أنا فعلًا عبيطة وهبلة.
- وهبلك وصَّلك للسجن.
- طلَّعني منه.
- أسمعي أنا عايزك.
- عايزني إزَّاي؟
- إنت مش دارية بنفسك أنا شايفك عريانة يا صفية إنت رائعة عايزك زي أي راجل بيعوز الست، من يوم ماجيت هنا ماشفتش ست.
- كنت فاكراك راجل طيب لما قلت لي إن إسمك عبد الرؤوف!
- لما رحت بغداد قالوا لي اتجاهك أيه: شيوعي – يساري – بعثي – ناصري؟

- ويعنى أيه الاتجاهات دي؟
- خيبة هي خيبة وحطت على أرض البلاد.
- وبعدين قلت اتجاهك؟
- حلفت لهم إن اتجاهي عبد الرؤوف.
- حطُّوك في السجن أكيد؟
- حطُّونى في السجن ولما اتعذبت عرفت أطلع منه.
- إزاي؟
- حلفت لهم إنِّي بهزَّر مافيش حاجة اسمها عبد الرؤوف.
- وبعدين؟
- قالوا لى شوف أى واحد يعيش في بلدنا ويكون مننا لازم يكون له اتجاه، قلت لهم أحسن اتجاه عندكم أيه؟ علشان أعيش في بلدكم عيشة كويسة يكون اتجاهي أيه؟
- لازم يكون البطل الركن بطل القومية العربية كلنا بنسبح بحمده.
- وبعدين اتجهت ازَّاي؟
- حلفت لهم بكل الأيمانات: أنا إتجاهي البطل الركن أبو القومية العربية.
- وبعدين؟
- صَّدقونى في الأول ولما راقبونى شوية يوم بعد يوم قبضوا عليَّ وحطُّوني في سجن أبو غريب.
- يانهار إسود، زى السجن ده؟!
- إنت هنا في رحمة.. انقذني يا عم عبد الرؤوف.

- خلاص توبي.
- إزَّاي؟
- إنت طول عمرك عبيطة لسه مافهمتيش.
- طيب خلاص فهمت، تعالَ الباب مقفول هاتدخل من الطاقة إزاي؟
- معايا المفتاح ياعبيطة.
- تعالَ جالك الفرج يا صفية، يا كريم يارب، دي بسيطة تعال خدْ اللي إنت عايزة.

****

" كنت أعتقد بينى وبين نفسى أنها مناضلة كبيرة بعد علمى بأن المرأة البطلة التي قطعت شوطًا كبيرًا من النضال السياسى هي المرأة التي بذلت كثيرًا من الجهد والعرق وكانت في خدمة رجال الحزب الكبار ورقدت لهم واحدًا بعد الآخر وكانوا جميعًا يتغنون بما تقوله مع كل منهم، وعرفت أن هؤلاء النسوة اللائي تفانين في بذل الجهد مع الأشاوس والأبطال، هي تلك المرأة التي تفني جسدها في خدمة المعتقل الكبير لتجعل هذا السجين يعترف لها بكل شيء وتسجل اعترافاته وتوفر كثيرًا من وقت وجهد المحققين وهؤلاء كن نساء الحزب البطلات اللائي يجب أن ينحني لهن كل من في الوطن، في وسط هذه الأعمال البطولية التي تقوم بها المرأة في بلاد هنا وبلاد هناك أنا لست بطلة مثلهن كنت دائما بعيدة عن أي عمل سياسى ولكن أنا ضحية وممكن أكون بطلة مجتمع تخلى الذين يحكمونه عن أبنائه على مدى أكثر من ستين عامًا من التداول والتجارب والدخول في حروب لا طائل لها وكان المجانين في بلاد هناك وأولادهم لابد أن يكونوا أبطالًا للشرق وأسودًا للبحر وانهزموا جميعًا ونكستهم الأقدار بما اقترفوه من

ذنوب قطَّعت مجتمعاتهم وأسقطتهم من دائرة الحياة الكريمة، ماتوا جميعًا وأسقطهم تاريخ الإنسانية ولم تبقَ إلاَّ شعوبهم في دوائر الفقر والحرمان، هذا هو أنا أنا جئت من دائرة الفقر" فقر الرجال الذين كانوا لابد أن يسافروا إلى بلاد بعيدة ليطعموا بيوتهم وتركوا أولادهم هم وزوجاتهم بلاد بلا رجال فقال الرجال الذين لم يسافروا واعتالوا نساء وبنات وأولاد الذين سافروا، وفى النهاية لم تكن هناك أية حياة كريمة أقامها الذين سافروا ولكن ذلك كَّون وعلى مدى عقود طويلة خرابًا للبيوت وراح الفقير ينتقم من فقره في زوجة أخيه أو بنته أو حتى ولده، وكذلك راح الغنى يدفع لزوجات وبنات المهاجرين مزيدًا من المال، وسبح المجتمع كله في الدعارة المستترة كل ينتهك حرمة أخيه خلف جدران البيوت وفى غرف الفنادق والشقق المفروشة أو المؤجرة إيجارًا جديدًا، غرق المجتمع في دوائر من الفساد الإجتماعي في شوارع لم يعرفها من قبل، ومازال الذين يمسكون بتلابيب الأمور يقولون نحن أهل العدل والحرية والديمقراطية ولماذا لم تقيموا هذا منذ عقود إنكم لن تقيموها أبدًا لأنكم أسوأ ما في هذا الوطن من بشر، أنتم لن تقيموا شيئًا لأنكم أبناء الذين كذبوا وسرقوا ونافقوا وقطّعوا البلاد إربًا لكى يقيموا لهم ولأبنائهم بيوتًا على أنقاض مجتمع أصابه الفقرة والجهل والقهر حتى بات هذا الفقر أبوه وأمه...

صرخ مدحت فيها قائلًا:

- بكفاية بكفاية حرام مش مستحمل أكثر من كده خلِّينى أعشقك يا صفية مافيش داعي للكلام دا خلاص الكلب في البلد عارف المحاضرة دي وبرضه مافيش حل.
- وبعدين يامدحت، طيب اتكلم إنت.

- عمرى ما اتكلم تانى، الكلام بتاع الناس كلها بقى هذيان.. الناس بتتكلم من ستين سنة عملت أيه؟
- تعرف إني بطلة مجاهدة أنا أحسن من أي إمراة في هذه البلاد.
- لأ لأ مش قوي كده ولكن يمكن تكوني كده فعلًا يعيى هو إنت مش أشرف من زوجة أي واحد ماسك حاجة في البلد.
- هو دا اللي أقصده، يعني أيه اللِّي عملته وحش في حياتي؟
- كام راجل في حياتك؟
- أول راجل هشام لما خدني من ترام الرمل وتاني راجل خدني من شاطئ رشدي وهذا الرجل سافر بسرعة. "وسكتت".
- وبعدين؟
- تالت راجل نور اللي كان ساكن في بيتنا وكان عشيق أمي بعد أمي ما ماتت خدته أنا من مراته وكانت مراته طيبة قوي ولكن حاجة في نفسي خلَّتني لازم أخده منها.
- وبعدين فيه رابع؟
- إنت الرابع.
- إنت ست قنوعة جدًّا، إنت أشرف ست طلعت من الفقر، أقل ست جوزها سافر وعرفت رجَّالة، دا فيه ستات كل يوم مع راجل شكل.
- وفيه ستات كتير اشتغلت في الدعارة.
- ياه دا المومسات كتير قوى ماتعدِّيش.

- كويس قوى طيب بعد كل الكلام ده أنا أبقى أيه في وسط الدنيا الضايعة دي؟
- إنتِ المناضلة الحقيقية في هذه البلد.
- صدقت يامدحت بعد دا كله يكون مصيري السجن؟!!
- سجن أيه! دا السجن بتاعى وأنا سجَّانُه.
- طيب يا سجَّان فُكني، مش إنت بقيت الراجل الرابع يامدحت.
- ياترى مين هايبقى الخامس؟
- لولقيت راجل ياخدني بصحيح من اللي أنا فيه.. أكتر من عشر سنين وأنا في الخبص ده.. إنت عارف أنا حاسه بأيه؟ حاسة بإن كلنا في لت وعجن مالوش آخر.
- الشاطر يعمل حاجة زى هشام ماعمل.
- إذا كان ده اللي إحنا فيه مش حشيش يبقى فعلا هشام عمل أحسن حاجة في البلد لغاية دلوقتِ.
- هو ماكانش يقدر يعمل كده جَّوه البلد كان لازم ييجي هنا في البحر بعيد عن الدنيا اللي هناك على فكرة الدنيا كلها اللي هناك كلها حركات وكذب على الدقون.
- وعلشان كده كلنا هربنا من هناك.
- تفتكرى الناحية دى أحسن حتة فيها حياة وصلنا ليها؟
- لأ أكيد فيه أحسن منها.
- فين الحتة دي؟

- أكيد موجودة إعرف إنت.
- ممكن توعديني؟
- أوعدك بأيه؟
- إن مايكونش فيه راجل بعدي؟
- طول ما إنت السجَّان مافيش راجل بعدك.
- ولو طلعت من السجن.
- أكيد ها اكون أسيرة هشام.
- لأ.. أنا عايزك لي وحدي وانسي كل الرجالة اللي قبلي.
- يبقى لازم نمشي من هنا.
- يعني نرجع البلد تاني؟
- لأ نشوف حته تانية زي بتاعة هشام.
- وبرضه نعمل حشيش؟
- نعمل حاجة تانية خالص.
- يبقى لازم نشوف الحتة الأول.
- يا مغيث دوَّر ومطرح ما تروح أنا معاك بس فُكِّني الأول.
- أهو كده رجعت للعبط تاني الصح تطلعي من هنا على الحتة الجديدة على طول..

****

" ولما طلعت شمس صباح اليوم كنت مع مدحت سلطان سمن على عسل وأكثر من هذا المعنى وصلت معه في ليلة أعطي فيها جسدى لرجل من نوع جديد ووعدني بالكثير

ووثقت في وعوده وزرع أمل الهجرة في قلبي، خاصةً أنه رجل الأمن الأول في الناحية وهشام يمنحه الكثير من الصلاحيات الخاصة باستتباب الأمان في البلدة وطمأنني وهو يخرج من سجني إلى عمله عندما سطعت الشمس هازًا رأسه قائلا:

- شوفى طالما هشام عمل السجن ده يبقى هايعمل تاني وتالت وهايبتدي يبطش ويظلم زي الناس اللي ماسكة البلد الكبيرة.
- كويس إنكَّ فهمت كده.. يعني علشان قلت كلمة واحدة يحطني في السجن
- مش علشان الكلمة بس.. علشان جبتي نور.
- دي غلطتي.
- مش كده وبس هو حكى لي إن نور بيجيلك خلْسة في بيتك وساعات إنت بتروحي له يعني إنت عشقت عليه راجل تاني ودي كانت دمِّل عمل في نفسه حاجات كتير ناحيتك.
- يعنى الجواسيس شغالين على الآخر.
- إنت عارفه كام جاسوس شغالين في الناحية؟
- كام؟
- أكتر من خمسين جاسوس، وطالما كُتر شُغل المخبرين كتر الخبص وانتشرت الفتنة وزاد الظلم.
- يبقى لازم نمشي دا الحل الوحيد.
- سلام ربنا يدبرها علشان ما تأخرش على العمدة.
- هاتيجي إمتى؟
- بعد نص الليل.

" كنت دائمًا أنظر إلى الشرق عندما أذهب إلى مرسى القوارب، كأن في هذه الناحية يتجه كل الناس مثلي، وفي عز الشتاء أشعر بدفء يملأني عندما تشرق الشمس، وكأن هناك حركة تدفعني إلى تبة عالية أراها في مدى بصري، وعندما كان يأخذني القارب إلى شاطئ المدينة الكبيرة لأزاول عملي في توزيع الحشيش كانت كل أعمالي التي مارستها اعتديت فيها على نفسي وعلى غيري وكنت أشعر بأنني مثل بئر يحتوي ما في الرجال من ضعف وظلم فهل كان الرجل يمثل ظلمة دائمة في حياتي أم أنني انطويت مع الرجل يضع هناته في بئري.. ألم يكن ذلك البئر الذي وضعه الله في المرأة رحمة لعالم الرجال المندفع إلى طموحاته، لكن بهذه الطريقة اقترفت حول هذا البئر كثيرًا من الاعتداءات على غيري من النساء، وإذا كان ظلم العيش في بلادي هو الذي جعلني أقوم بكل هذه الأعمال. وأن الحياة الفقيرة التي يعيشها الناس في مدينتي هي التي أدت إلى هذه الأعمال دون أن ندري لماذا تتهاوى المعاني الجميلة في مدينة جعل الله فيها البحر يحيطها من كل جانب؟ أتلك حواري الزمن الضيقة التي تطبق على نفوسنا لأن كل منا يظلم الآخر ما استطاع هذا وغيره يؤدي بنا إلى مزيد من الأحزان على فقر نفوسنا الضيقة قبل الأرض التي تضيق بنا طالما نبقى في بيوت المدينة الآيلة للسقوط، مدينة تضيق بالعيش على الجميع وتضيق بالرجال الذين يتعاملون مع المرأة مثل بئر ياحسرة على المدينة، وعندما ضربت شمس الضحى في حيطان السجن كانت الحرارة شديدة لم أستطع فيها النوم العميق، خلعت ملابسي ونمت بالقميص حتى بعد أذان العصر، تناولت بعض الطعام الذي تركه مدحت في لفافة بحقيبتي بعدها دخلت الحمام لأستحم ثم ارتديت ملابس أخرى أكثر إثارة.

" وفي تلك الليلة جاءني مدحت سلطان يحمل طعامًا وماءً وفاكهة، وكان متوترًا قلقًا فقلت له:

- إنت متضايق من حاجة؟
- أبدًا.. أصل هشام طلب مني أعمل سجن تاني.
- فيه حد تاني جرحه بكلمة؟
- أيوه إنت عارفه مين؟
- مش عارفه قول يا مدحت.
- نور.
- قال أيه؟
- قال إن هشام خد مني المليون جنيه ولسه ما كمِّلتش الملهى.
- هوَّ أخدها بطريقته خلَّى سعر الحديد والأسمنت قد سعر برَّه مرتين هو استفزه بطرق أخرى والمستفيد الوحيد من إقامة ملهى نور كان لمصلحة أهل الناحية جميعًا.
- وعلشان كده خلصت فلوسه ولم يكمل مشروعه.
- مش كده وبس استنفزه من بعيد وخَّلاه يتكلم قدام الناس في الناحية إن هشام ضحك عليه وفي مرة قال للعاملين في بناء الملهى هشام سرق فلوسي من غير مايحط إيده في جيبه.
- كل الكلام ده عارفاه وكان بيوصل لهشام أول بأول.
- يبقى هشام من وجهة نظره إنه اتهجم عليه قدَّام الناس وإنه لازم يتربى.
- هاتعمل السجن يامدحت؟

- طول مانا هنا لازم أطاوعه.
- إنت قلت لما السجون تكتر يبدأ الظلم، وهاتبقى الناحية دي بكرة زي المدينة الكبيرة.
- هو دا اللي شايفه.. أبو غريب في كل حتة مش في بغداد بس، كلنا عايزين نسجن بعض علشان نعيش.
- أرجوك عايزين نهرب من هنا بسرعة.
- لازم أدبَّر الهروب كويس قوي من الأول للآخر لأن لو اتمسكنا هاتبقي في نظر هشام خيانة كبرى ويمكن يعدمنا لأنه بقى شديد قوي دا صاحبي وأنا عارفه.
- تمام يبقى لازم تخطَّط كويس طيب كفاية غم تعال جنبي يامدحت حبِّني زي إمبارح.
- إنت الحاجة الحلوة الوحيدة في حياتي.
- عجبتك يامدحت؟
- قوي قوي يا صفية إنت تاني ست أعرفها في حياتي بعد اللي جابوهالي في معتقل بغداد.
- إنت بالنسبة لي راجل عذري إنسي بتاع المعتقل ولكنها كانت.
- إنه بالنسبة لي بنت بنوت والبعيدة كانت بربخ بتشتغل في المعتقل علشان السجين يتكلم.
- أفهم من كده لما نمشي من هنا تتجوزني يا مدحت.
- ياريت يا صفية إنت هاتبقي كل حياتي.
- أحضني قوي يا مدحت.

****

" كان مدحت سلطان رجلًا غريبًا يجمع من صفات رجل المدينة الكثير مادام يعيش فيها، فإذا خلا بي في السجن وهو السجَّان تمرَّد على كل أنظمة السجون القذرة، ولو كان يملك صلاحيات إدارة السجون في العالم لأطلق سراح كل الأبرياء فيها. ولثقة هشام الكاملة فيه تركة يفعل في السجن ما يشاء ولم يراقبه بأحد من جواسيسه أدخل ألذ الطعام والشراب لسجينته صفية وعشقها بحب غير الذين عشقوها من قبل، وكان هشام قد حكى لصديقه مدحت كل شيء عن صفية وكيف أتى بها من ترام الرمل، وما آلت اليه في علاقتها مع نور، وكان مدحت يسمع إليه وحكى كل حكايته.. فقال له مدحت:

- وأيه يعني مش ذنبها.
- أمَّال ذنب مين يامدحت؟
- شوف إنت جيت هنا ليه واتسجنت في بغداد ليه وصاحب العزبة طردك ليه وضعت واتسكَّعت في المدينة قد أيه؟

- كل اللي حصل لي سببه من الأول للآخر الظلم والقهر.
- كنت تقدر تدفع عنك الظلم في كل مراحل حياتك.
- أبدأ دا كان ظلم قوي أصحابه عتاه ماحدِّش يقدر عليهم.
- علشان كده اللي زيي وزيَّك بينسحبوا ويهربوا.
- عندي حق لما أسجن صفية ولما هاسجن نور علشان جم على أعز حاجة عندي وقرصوني من جرحي".
- بس إنت ممكن تكون حكيم شوية في معالجة الأمور" مش لازم بالقسوة دي..
- لازم أكون شديد قوي علشان الناس تختشي وتكش وتخاف.

- أيوه ياهشام إحنا كلّنا ولاد خوف، الخوف كان معانا من يوم ما اتولدنا.
- وهايتتُّه فينا لغاية ما نموت.. وهايخش معانا التربة علشان يموِّتنا تاني.
- علشان تبقى عارف يامدحت الناس في بلدنا غلابة قوي، دا غير فقرهم وجهلهم.
- مش فاهم!
- يعني ما ينفعش هنا نحاسب بعض لأن الناس كلها غلابة وأنا أول واحد غلبان وماكانش قدَّامي غير صناعة الحشيش علشان أجيب رزق للناس، ناس جعانة وبدون شغل أعمل ليهم أيه! وعلى فكرة شوف معايا الأرض دي ماتنفعش فيها الزراعة، أرض رملية رزلة، يعني كنت أعمل أيه علشان ألحق الناس دي بسرعة، ناس قالعة هالعة طردتهم المدينة بقسوة اسمع يامدحت إحنا هانضحك على نفسنا ليه، ما إنت عارف كل حاجة هوَّ دا حشيش يامدحت؟! فاكر لما إتعلمناه سوا في غيط العنب عند العرب، ساعتها لقيناه حاجة حلوة قوي واحنا عيال صغيرة وصرفنا على نفسنا منه.
- لأ مش حشيش دا ريحة حشيش ولكن خلي الناس تعرف إنه حشيش هاتعمل أيه.
- تعرف لو الناس عرفت إنه مش حشيش هاتنهار الحتة بتاعتي هاينهار كيان وأرزاق ناس، مش هاتقدر تخلِّي حد يقدر ينزل المدينة ويوزع المنتج بتاعنا.. ويضربونا ويقولوا علينا نصابين وغشاشين واحنا أقل ناس بتنصب في البلد.
- وعلشان كده سبت الناس مع حياتهم في الناحية من أولها لآخرها وماقلتش الحقيقة؟

- أقول حقيقة أيه إذا كانت الحقيقة هاتخلِّي الناس ترجع للفقر تاني، خلّي الحقيقة نعرفها إحنا وطول الحقيقة مش بتضر حد خلاص، اسمع يا مدحت نقول الحقيقة لما نجيب البديل اللي يخلِّي الناس تعيش، وبعدين حقيقة أيه هو فيه حد في الكون دا كله عايش مع الحقيقة أو حتى بيقول كلمة حق كل الناس كدَّابة وبتكدب علشان تعيش.
- أنا معاك يعني لو مافيش هنا حياة ماكنتش جيت، ومافيش منفذ في المدينة لأي فرصة عمل شريف، وما نقدرشي نرجع للعراق تاني، العراق ضربت انهارت من القهر والظلم وأهلها بتهرب منها.
- كويس إنت عرفت بنفسك.
- تعرف ياهشام ممكن تعمل في الحتة دي مشروع صيد سمك مراكب وعدد وأدوات وناس تعرف تصيد.
- قلت الكلام ده للراجل اللي جابته صفية مارضيش وراح يعمل ملهى ويقابل واحدة أنا عملتها وهي من قلة أدبها عملت معاه علاقة وعملت مش واخد بالي.
- معلش سامحها، إنت برضه شفت غيرها وبقت عندك كم مهمل إنت قلبك كبير اعف عنها وسيب كل واحد يعيش زي ما هو عايز وهي برضه معانا في الغم سوا معلهش.
- دي لأ يا مدحت والراجل اللي جابته رذل واتحدَّاني، كل اللي يجري ليها حلال حتى وبالنسبة للواد ده لسه هايشوف، إنت عملت السجن ولا لسه.
- الناس شغَّالة فيه.

- خلَّص بسرعة علشان أربيه وأعلِّمه الأدب.
- بالكتير يومين ويخلص طوِّل بالك.
- إنت دراعي اليمين يامدحت.

****

" إن من ظلمني في المدينة الكبيرة مازال يظلم كل يوم عشرة ويقترف أعماله المشينة ولا أحد يستطيع ردعه لأن من يملك قوة الرَّدع يسرق معه أموال البلاد، تحالف الحاكمون مع اللصوص، وعندما سافرت إلى بغداد وجدت عملًا أكلت منه وشربت، ولما وجدوني هنئت قليلًا جاءتني المخابرات لأساعدها في حكم الشعب هناك، ولما لم أتعاون معهم ضد شعبهم اعتقلوني من مكان عملي، وكان كل ما أطلبه من رب السماء أن يفرج عني من هذا المعتقل الأسود، ولم يكن هناك رب في الأرض كي أشكو له مظلمتي، لأن الذين يحكمون في الأرض ليس فيهم واحد مثل رب البيت الذي كنا نعرفه، إن الذين يحكمون بلادي في الشرق كلُّهم لصوص وسافكي دماء ولكل واحد فيهم حكاية، ويكفيني حكايتي في بلدي، ولما كنت أتوجه إلى رب السماء" لا أعرف حتى الآن كيف تم الإفراج عني في معتقل بغداد، ولكن ماحدث لي أنهم تعاقدوا معي بأن أكون أحد رجال المخابرات في مدينة السليمانية وألحقوني بطريقتهم في العمل بأشهر فنادق المدينة، وكان ضابط المخابرات يأتيني متخفيًا بزيه المدني ليأخذ مني أخبار الناس وأحوال رواد الفندق وعرفت أنه لكي أعيش ويكون لي بيت لابد أن أتعاون مع المخابرات الشمالية ومقرها مدينة الموصل، ولكي يكون لي شأن لابد أن أكون ضليعًا في صداقة الناس حولي، بعدها يثقون في فيفضوا إلي بأسرارهم وهنا تكون تقاريري العميقة عن اتجاهات الناس هنا، وعليه يبدأ عمل المخابرات في اعتقال هؤلاء الناس، وكان يُروي لي وكنت

أشاهد بنفسي أن من يتفوه بكلمة أو يفضي بمكنون نفسه يخرج من بيته في الصباح ولايعود أبدًا.

" كان لابد لي أن أهرب.. واستطعت الهرب إلى حدود تركيا وعشت فترة مع عائلة كردية أكرموني في بيتهم عندما حكيت لهم حكايتي ثم استطاع أحد من له شأن في هذه المنطقة أن يسفَّرني إلى بلادي مقابل ألف دينار هو كل ما كان في جيبي، وجمع لي أهل المنطقة الأكراد بعض النقود لتكون في جيبي حتى أعود إلى بلدي.

" ولما عدت إلى مدينتي الإسكندرية وجدتني أبدأ من جديد وكأنك يا أبو زيد ما غزيت، نفس اللصوص والظلم يزيد والناس تتوغل في فقرها وكثيرات يبعن أجسادهن لأي مشترٍ كي تعيش بيوتهن، إن كل مافي مدينتي يدمَّر الرمز، لا رمز للبلاد لكن صوت الحكام يعلو ويتحالف مع أيادي اللصوص، تتهاوى كل المعاني في حواري وميادين المدينة، مزيد من الفقر ومزيد من الحزن حتى أنني عللَّتُ بكاء الأطفال عندما ينزلون من بطون أمهاتهم، إنهم يبكون لأنهم ولدوا في بلاد لا تعرف أي معنى للعدل، بلاد كل مافيها القهر والفقر وأمهات سوف تبيع الغال والنفيس من أجلهن..

" أخذت حقيبتي وذهبت إلى ناحية هشام وجدت في ناحيته كل أعمال الذين كانوا فقراء في المدينة الكبيرة، كان لكل واحد منهم في بلدته مهنة وبيت وحياة، من نفس عباءتي السواداء خرج هشام كانت حكايته مثل حكايتي، لكن مايحزنني أن هشام وظَّفني في ناحيته سجَّان وقابض أرواح وفتوة، وظَّفني عصا الحاكم، وبلغت مرراتي ذروتها عندما بدأ يأمرني ببناء السجون تذكرت سجن بغداد وسجن بلادي الكبير، سجن بلادي بلا أسوار، دائرة كبيرة لكل الناس من الفقر والقهر سجن للحياة كلها، يعيش الناس فيه بلا أمانة لا طعام لا عيش ولا بيت، وكان لا بد لي أن أذهب إلى ناحية أخرى لكي أقيم

فيها ما يختلف عن ناحية هشام، أين هذه الأرض، وراح يسألها كل ليلة: فين الأرض دي؟ فتقول له: أرض الله واسعة، هانلاقيها إن شاء الله.

" وكان الرحيل من واقع خنقنا منذ عقود إلى واقع آخر مثل حلم"

" لم يكن في حياتي أي توازن منذ نشأت في بيتي بغيط العنب، كانت حاجة الناس لأن تعيش شديدة وملحَّة، ولم تكن هناك إلا الفوضى وأسوأ ما في هذه الحياة الفوضى بين الفقراء، إن الله خلق هذا العالم ولم يخلق فيه توازنه فكان الصراع شديدًا لكي يرى عباده أين يذهبون..

" إن الناس تقتل أنفسها بالعراك والشجار والرَّدح حتى أن المرأة الجارة تحسد جارتها لأن لها بنت تعمل في أحد بيوت الأغنياء في حي آخر، ولم تكن هذه المرأة تملك في بيتها إلا ثلاثة أولاد عاطلين، وإذا قلت أن الوضع كان مؤسفًا بشارعي وفي الحارات الملاصقة خلف بيتنا، وكأن التوازن الموجود في مدينتي هو في ثبات جدران البيوت رغم أنها آيلة للسقوط، من هذا الواقع كانت حياتي ولم أجد فيها شيئًا واحدًا يثبت عقلي، إلا أنني كلما ذهبت وجدت المرأة، وأينما كانت أسكنت عقلي داخل رأسي وإنني في مدينتي وفي المدينة التي سافرت إليها كانت المرأة هي الكائن الوحيد الذي أجده، ورغم ذلك فإننا شعوب هذا العالم الذي يحكمة اللصوص يتهم المرأة بالخيانة وهي التي تقوم بكل الأعمال المشينة في كل جوانب الحياة، لكنني وجدت المرأة في هذا العالم هي الشيء الوحيد الذي يعين هذا العالم الفقير على البقاء، وكم وجدت الرجل في مدينتي والمدن التي ذهبت إليها كان فريسة لأمراضه النفسية لمعاناته عيش الحياة منذ طفولته، وكان فريسة أيضًا للعُقد الاجتماعية التي عاشها مع أمه وأبيه منذ طفولته، ولم يكن الرجل في حياتي إلا جملة من أعمال خسيسة تجعلنا جميعًا قريبين من الهلاك، ومن الأسف أنني وسط هذا العالم لم ألجأ في حياتي إلى العنف في حل مشاكلي ولجأت إلى كل امرأة

تقترب مني في رفق وتعاملت معها برقة متناهية وكأنني مثل الرجال في مدينة قطعت شوطًا طويلًا من الحضارة، ولم ألقَ من الرجال غير هشام صاحب هذه الناحية الخارقة غير أنها تشبه المدينة الكبيرة في الكثير.

" ومرت ليال أخرى مع صفية في سجنها ولم أمل هذا اللقاء وكنت أتمنى أن يراني سجَّاني هذا العالم لكي يشاهدوا ما كان يجب أن تكون عليه حالة السجون، وكيف تكون العلاقة الإنسانية بين السجان والمسجون، ولا أخفي إذا اعترفت أن المرأة التي دخلت عليّ في سجني الانفرادي في بغداد كانت رحمة لي من العذاب الذي لقيته من زبانية هذا السجن، رغم أنها كانت تعمل في وظيفتها المكلفة بها من قبل المخابرات، لولا هذه المرأة مابقيت حيًّا حتى خرجت من هذا السجن، وأيقنت من أنه لولا امرأة المعتقل التي جاءتني ولولا صفية سجينة ناحية هشام لما كان في حياتي شيئًا جميلًا يعينني على أمل البقاء، وكان الشيء الوحيد الذي يحزنني أنني مع بعض أوقات لقائي بصفية أشعر أنها تقايضني المنفعة، إلا أنها في ليلة قطعت كل أفكار الهاجسة في رأسي قائلة في حنان بالغ الحزن:

- وبعدين يا مدحت؟
- إنتِ زهقت يا صفية مني؟
- عمري مازهق منَّك لكن لازم نخرج من هنا.
- طوِّلي بالك شوية.
- أطول بالي إزاي وإنت في إيدك كل حاجة.
- خليني أفكر مش عاوز حد يحس بينا ونخرج من هنا في منتهى الهدوء.
- حد تاني غيرك يفكر، يالَّه خلص يامدحت أرجوك.

****

" وفي ليلة أخذني النوم في غرفتي بعيدًا عن سجن صفية ولم أذهب إليها، وقبل أن يصدح أذان الفجر بقليل جاءني صوت يوقظني".

- قوم يا مدحت "قوم إصحى".

انتبهت إلى الصوت فلم أسمع الهاجس ثم غفوت قائلًا إنها أحلام لكنه جاءني ثانية:

- روح الشاطئ الكبير هناك".
- نعم "الشاطئ الكبير".
- أيوة روح الشاطئ وخذ اللي عايزها معاك. "وسكت"..

- وبعدين أنا صحيت أهه، قول، "كمِّل".
- فيه هناك مراكبي اسمه سالم. "وسكت"..
- وبعدين اسمه "سالم"
- سالم ده هيوديكم الأرض الجديدة.
- بأمارة أية؟
- قول له عبد الروؤف بيسلِّم عليك، "وودِّينا أرض برهان ويوسف".
- أرض برهان ويوسف "فين الأرض دي"؟!
- إنت مالك..
- ومشمِعنى سالم بس "المراكبية كتير"؟
- إنت بتلت وتعجن كتير يامدحت "نفِّذ اللِّي بقولَّك عليه".

- خلاص ياسيدي "أروح له إمتى ياعم عبد الرووف.
- النهارده قوم قبل ما تطلع الشمس، قوم صلي وخد السجينة واطلع من البلد دي، روح في مركب عادي من مراكب المراكبية، كإنك رايح الشاطئ الكبير زي كل الناس ما بتروح.... بسرعة قوم "مش هكلِّمك تاني".

" جمع مدحت كل حاجاته من غرفته في حقائب وأجوله ونادي حارسه أن يحملها في تريسكل إلى غرفة السجن ثم تبعه ماشيًا يحمل حقيبه صغيرة فارغة، وهناك أيقظ صفية وأبلغها بالأمر، ونقل الحارس كل حاجيات السجينة إلى نفس التريسكل الذي يحمل متاع مدحت، وركبت صفية وسط الحقائب والبؤج ورقدت بين المتاع وغطَّاها مدحت بشرشف، وأمر الحارس أن يذهب إلى المرسى وينقل كل ما في الناقلة إلى أي مركب في المرسى يكون متجهًا إلى الشاطئ الكبير، وتابع مدحت السير خلف الناقلة حتى وصلوا جميعًا إلى نزلة المرسى، وتحرَّكت المركبة إلى الشاطئ الكبير بعد أن وضع في يد الحارس مائة جنيه وأمره ألاَّ يفضي بشيء لأحد وأن يعود إلى عمله كحارس من حراس الملهى.....

في الساحل الذي يقع فيه مركب سالم كان هناك ناس غيرنا ينتظرونه لينقلهم إلى أرض برهان، وكانت صفية مرهقة فنامت بين متاعنا وغطيتها بعباءتي، أكثر من عشرين رجلًا وأمرأة تبدو وجوه معظمهم أنهم رحلوا من ريف المدينة.

" لم يسألني أحد من أنت أو من أي ناحية أتيت، كل مشغول بنفسه وبربط قففه وتحزيم الحقائب وإحكام البؤج والأجولة التي يحمل فيها مؤنه وطعامه وأوانيه، وكان يبدو أنه مازال أمامنا بعض الوقت حتى يأخذنا سالم إلى الناحية التي يذهب إليها كل هؤلاء، كان

حديثهم يأتيني جليًّا وواضحًا يصل أذناي وأنا راقد وسط متاعنا وكم سعدت بابتهاجهم لذهابهم إلى تلك الأرض الجديدة.

- هناك ما فيش غير الأرض.
- لأ وفيه مطاحن ومعامل للجبن والسمن.
- وفيه صيادين ومصانع أسماك.
- وفيه فواكه وخضر "فيه كل حاجة ما عدا حاجة واحدة".
- أيه هيَّ؟
- ما فيش ملاهي ولا قهاوي.
- يعني الواحد يشتغل بس وما فيش أي ترفيه.
- ياسيدي آدي احنا شبعنا من اللعب والمسخرة إحنا رايحين على السمعة الطيبة.
- ياعم كفاية اللَّي فات من عمرنا في البوظان على القهاوي، خدنا أيه من الرقص واللعب في بلادنا "شوف ياجدع إنت وهوَّ إحنا عايزين نعيش.
- الله يرضى عليك جبت التايهة، إحنا عايزين أرض وبيت حتى ولو كان قوضة واحدة مبنية من طين.
- بس لازم تدفع تمن الأرض والبيت وسمعت إن فيه تقسيط مريح لكل حاجة.
- الأرض واسعة والناس هناك ما تعرفش غير الجد واللـيَّ هايهَّرج هناك هايرحَّلوه، وهمَّ رحُّلو ناس كانت ريحة تتسلى..
- رَّبنا يشملنا بالستر أهو الكلام كثير، المهم نلاقي عيشة فيها ناكل ونشرب ويبقى لنا باب يقفل علينا.

"كم ارتحت لكلامهم وصدقهم وبساطتهم وكنت ابتسم وأمسك قلبي بكف يدي "وأهمس" "يارب"، ولم أجد فائدة من إخبار سالم بأن يذهب بنا إلى أرض برهان كما أخبرني عبد الرووف بعد أن تأكدت من أنهم جميعًا ذاهبون إلى هذه الأرض، واطمنت منهم بأن سالم هذا متخصَّص في توصيل الناس إلى هذه الناحية منذ سنوات، وأن الناس تقصد هذه الناحية دون واسطة ولا قيود...

"وصلا إلى الشاطئ مع مجموعة أخرى، وبذلا مجهودًا كبيرًا في نقل متاعهما إلى جوف الشاطئ، وكان مهما أن تنقل الأمتعة مرَّة أخرى من جوف البحر إلى أعلى حيث الطريق إلى ساحة كبيرة يتجمَّع فيها كل الوافدين إلى الناحية، أستأجرتُ حَمالاً ليحملنا إلى أعلى الطريق، وهناك أخذنا عربة نصف نقل إلى الساحة التي يتجمع فيها القادمون..

"وصلنا إلى هذا التجُّمع ونقلنا حاجاتنا من المركبة إلى مكان وسط هؤلاء بواسطة تَّباع العربة وكان على مرمى بصرنا عيني ماء برزت منها ثلاثة خراطيم يتدفق منها الماء للناس فيشربون منه ويملأون حللهم وزلعهم ثم يحملونها إلى بيوتهم، وعلى مدى البصر سلسلة عالية من التباب والصخور تترامى بلا نهاية في شمال البلدة وشرقها لكن ناحية الغرب والجنوب تمتد سهول من الأرض ممتدة بلا حدود تمتلئ بزراعات القمح والذرة والبرسيم، وتتناثر بيوت من طين وحجرات من سقف النخيل تنتشر في نواحي أخرى قرب آبار مياه حفرت في أماكن متباعد وحولها يحط الناس رحالهم كما تتزاحم حيواناتهم من بقر وجاموس وغنم كي تشرب من أحواض بنيت حول الآبار، وكانت صفية معى ترى هذه الطبيعة الجميلة وتلك الجموع في منتصف الميدان التي تقعد حول صواني الطعام فتأكل وتشرب ثم يأخذ كل مجموعة دليل إلى مكان يقع في حواف البلدة يتشكل

في شكل خطوط عند حدود سلاسل الجبال، وتقيم كل مجموعة عريشها من سقف النخيل وجذور الشجر، وكانت هذه الغرف بيوتًا مؤقته حتى يتم توفير الطوب اللازم لبناء بيت صغير لكل أسرة، وأكلنا مثل ما يأكل الناس وساعدنا رجل في بناء عريشتنا التي فيها وضعنا كل متاعنا وفرشنا الأرض بمشمع وأخذت صفية في أحضاني وذهبنا في نوم عميق حتى كان فجر اليوم التالي، وتناولنا فطورًا من طعام كان معنا وقرب الظهيرة جاءنا مندوب من حي البلدة وأمدنا باستمارة لنكتبها. فحواها أننا نريد عملًا نعمل فيه أم أننا نملك مالًا لنشتري أرضًا زراعية نفلحها، وبادرت صفية الرجل قائلة:

- عايزين أرض نزرعها.
- معاكِ ثمنها؟ (هكذا رد عليها الرجل)
- نعم.. الأرض سعرها كام؟
- الفدان الصالح للزراعة بعشرة آلاف جنية.
- نشتري خمس أفدنة.
- ممكن بس بشرط تستصلحي خمسة في قلب الصحراء وتبقى ملكك "دا شرط الخمسة".
- مستعدة أشتري خمسة وأصلَّح خمسة.
- كدة يبقى ساكن مدينة بالدرجة الأولى.
- المهم "إمتى ندفع ونستلم.
- من بكرة نبدأ في الإجراءات والنهارده هابَّلغ رئيس البلد بطلباتكم.
- ياريت بس بسرعه.
- تحت أمرك.

****

ومر يومان بعد وصول مدحت سلطان وصفية ناحية برهان ويوسف، بعدهما جاء الركب العزيز واستقبلهم عند شاطئ البحر صاحبًا البلدة، ولم يصدِّق الطفل الصغير أنه هو وأمه أميرة وخالته عبير أن يكون هذا الحفل الكبير من أول ما بدأت أقدامهم تحف أرض الناحية حين أخذتهم الزَّفة من طبل ورقص وغناء حتى وصلت القافلة إلى بيت برهان ويوسف الكبير، كانت جموع من أعيان البلدة في استقبالهم عندما دخل الضيوف حديقة البيت الواسعة، واشتد ايقاع الطبول وعلت أصوات الغناء وصدح الطرب الجميل من أشهر مطربة يستدعيها أهل المدينة من ملهى المدينة الكبيرة، ثم بدأ العاملون ينصبون الطعام وجاءوا باللحم في أواني كبيرة من النحاس وقوارب الفتة المستطيلة تمَّ رصُّها فوق مناضد مرتفعة، ولم تكن عبير تصَّدق أن هذين الرجلين أبناء عمها الذي كان فقيرًا، وأنها صاحبة هذا الحفل ومليكته، وأن الجميع يحتفل من أجلها، وكانت عبير تمسك بيد أميرة تسألها إن كانت فرحة وسعيدة فتقول لها صاحبتها:

- هَّو فيه كده، مش مصَّدقه إحنا في حلم ولاَّ علم يا عبير؟!!
- إحنا يا أميرة في علم زي الحلم.
- معقوله يا عبير.. دا كله علشانك؟!
- وعلشانك يا أميرة..

وتنحني عبير تقبلِّ أحمد الصغير فيتعلَّق في رقبتها قائلًا:

- شيليني يا طنط.
- لأ يا حبيبي هابوسك بس مقدرش أشيلك.

ثم تجلس الضيفتان فوق منصة عالية يتوسطهما الطفل الذي يضحك فرحًا فيمسك ذراع أمه قائلًا:

- حاسس إني هاطير يا ماما.
- وأنا برضه ياحبيبي.
- طيب بعد كده ها نروح فين؟ هانرجع المنشية تاني؟
- إسأل طنط عبير.

وأمسك بذراعها وهمس في أذنها:

- ها نرجع المنشية تاني ياطنط؟
- عمرنا ما نرجع ياحبيبي، أنا الليلة نسيت كل اللَّي فات مش كده يا أميرة؟
- وترد عليها أميرة في سرور بالغ:
- أنا زِّيك يا عبير نسيت الدنيا إللى ماكنشي فيها غير النكد والغم.. وقفز أحمد من بينهما إلى حلبات الرقص وراح يرقص بين الراقصات، بعدها حملته راقصة في بهجة وضمَّته إلى صدرها وراحت ترقص به..

انتهت بحمد الله وعونه

خيري حداد علي عافيه

(هذه الرواية هي مشروع التفرغ للكاتب وحصلت عليه في عام ٢٠١٥ وهي لم تنشر بعد حتي تاريخه)